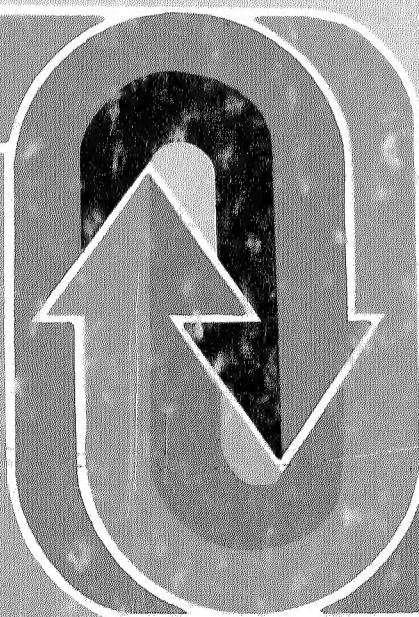


فِي الْمَهَرَاجَاتِ

غُوستِاف لوبون

بِارِعِي

شوقى أبو خليل



0156939



Biblioteca Alexandrina

دار الفکر
دمشق - سوريا

دار الفکر المعاصر
برلين - ألمانيا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي الْمَيَارِتِ
غُوْسْتَافْ لُوبُونْ

فِي الْمِيزَابِ

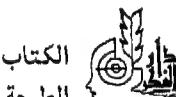
غُوستاف لوپون

برعبي

شوي ابو خليل

دار الفکر
دمشق - سوريا

دار الفکر المعاصر
بکیره - لبنان



الكتاب

٨٢٥ الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل
والترجمة والتسجيل الرئيسي والمسنون والحاوسوي وغيرها من الحقوق
إلا بإذن خطبي من دار الفكر بدمشق

سورية. دمشق - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (١٦٢)
برقيا: ذكر- س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٧٧٧ - ٢١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري : دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست) : المطبعة العلمية بدمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدَّمة

☆ «لقد أثبتَ التَّارِيخُ مَا لِلْمُعْتَقِدِ الْقَوِيِّ
مِنِ الْقُوَّةِ الَّتِي لَا تُقاوِمُ ، فَخَضَعَتْ دُولَةُ
الرُّومَانِ الْمُنِيَّعِ لِجَيُوشِيِّ مِنْ رِعَاةِ الْبَدْوِ ،
الَّذِينَ أَضَاءَ قَلُوبَهُمْ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ
الْإِيَّانِ»^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الْقَائِلِ فِي حُكْمِ التَّنْزِيلِ : هُوَ الَّذِي أَوْفَى الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَجْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ كَمَا [الأعراف ٨٥/٧] ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ،
الْقَائِلُ : «اَحْذِرُوا ذَلَّةَ الْعَالَمِ ، وَانتَظِرُوا فَيَّاثَةً»^(٢) . رَبَّنَا لَا تَؤَاخِذنَا إِنْ نَسِينَا
أَوْ أَخْطَلْنَا ، لَا عِلْمٌ لَنَا إِلَّا مَا عَلِمْنَا ، وَبَعْدَ ..

☆ تمهيد (بُوكَاي واستيغنس) :

كنتُ في مؤتمر سنة ١٩٨٩ م ، وفي حفلة الافتتاح ، جلس إلى جنبي رجلٌ
أوربي الملامح ، مدید القامة فارعها ، ذو لحية خفيفة شقراء ، ولباس خاص ،
أقرب ما يكون إلى الزي المغربي ، وفي المساء ، مر هذا الرجل بنا ، يجر عباءته
السوداء الأنثقة ، فقال بلسان عربيٍّ فصيح ، فيه لُكْنة الأعاجم : السلام على من

(١) روح الثورات ، غوستاف لوبيون ، ص ٢٠

(٢) الخلوي عن ابن عمر ، والبيهقي .

اتبع المُدْهَى ، فاجبناه : وعلى من اتبع المُدْهَى السَّلَام ، فقال : أَعْجَبِنِي رَدُّ سَلَامِكَ ،
أَسْمَحُونَ لِي أَنْ أَجْلِسَ مَعْكُمْ ؟ فقلنا : بِكُلِّ طَيْبٍ خَاطِرٍ ، أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا ،
وَصَادَفَ جَلْوْسَهُ ، وَلَمَرْأَةُ الثَّانِيَةُ ، إِلَيْهِ يَعْنِي مِباشِرَةً ، فَقَلَّتْ لَهُ : مِنْ سُنَّةِ رَسُولِنَا
الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّعَارُفُ ، أَنَا فَلَانُ ، وَهَذِهِ بَطَاقَتِي ، فَمَنْ أَنْتُ ؟

وقيل أن يحيى عن سؤالي ، رحّب بي كثيراً ، وقدّم لي بطاقةه ، ثم قال : عرفتك منذ سنوات عن طريق كتابك ، أنا أبو فريد القبطاني ، مؤسس مجلة (صوت الإسلام) ومدير نشرتها ، أصدرها في مدينة باريس مع عدد من المسلمين الدعاة .

قلت له : أَمْغَرِيُّ الْأَصْلَ أَنْتَ ؟

قال مجيأً : لا ، أنا فرنسيٌّ أباً عن جَدٍ ، كان للبروفيسور محمد حميد الله^(٣) ، الأثر الأكبر في اعتنافي بالإسلام .

قلت له : أتعرف الدكتور موريس بوكاي^(٤) ؟

محمد حيدر الله ، عمره قرابة تسعين عاماً ، باكستاني الأصل مقيم في باريس ، يتقن إحدى عشرة لغة ، ترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية ، فطبع أكثر من أربع عشرة مرة ، وفي كل مرة كان حيدر الله يعدل في ترجمة المعاني ليستقيم المعنى أكثر في أذهان القارئ الفرنسي ، يدرس في الأكاديميات ، ويكتب ويحاضر بالعربية والفرنسية والإنجليزية والتركية والألمانية والأردية ... يعيش في غرفة واحدة متواضعة مليئة بالكتب والأوراق ، ينفق ٩٠٪ من دخله لصالح المسلمين في فرنسا ، أسلم على يديه المئات ، والملئات عن طريق كتبه وترجماته .

الدكتور موريس بوكي : طبيب فرنسي معاصر ، واحد من عنوا بالدراسات العلية ، ومقابلتها بالكتب المقدسة ، ولكن يتسنى له الحصول على مزيد من التوضيحات ، تعلم الدكتور بوكي اللغة العربية ، ودرس القرآن الكريم فوجد فيه آيات مدهشة ، لا يمكن إدراك معناها إلا في ضوء المعارف العلمية الحديثة والمعاصرة ، فهي إعجاز خالد يشهد بأنَّ القرآن الكريم من مصدر إلهي ، يثبت نبوة محمد ﷺ . (٤)

ابتسم أبو فريد ابتسامة عريضة ، وتنهد تنهدأ عميقاً ، وبعد لحظات
صمت ، قال : إنّه صديقي المنافق .

قلت له : ألم تظلم الرجل بهذه الصفة ؟

قال : إنّه صديقي ، وأعترّجداً بصداقته ، وهو مسلم فذّ ، أسلم منذ أواخر
السبعينات ، وهو يحاضر أسبوعياً أمام ألف الف فرنسيين عن الإعجاز العلمي في
القرآن الكريم . وقدّم منذ سنتين حاضرةً أبدع بها وأجاد ، وفي نهايتها سأل
بوّكاي الحضور . و كنت بينهم - هل من سؤال ؟ قلت له : لسان الناس يقول
عنك إنّك منافق ، فقال : لم هذا الحكم ؟ قلت : منذ سنواتٍ وأنت تحاضرنا
عن القرآن ، وإعجازه العلمي في ثنايا آياته الكريمة ، وتوّكّد أنّه هو الكتاب
المقدّس الوحيد الذي جاء العلم الحديث . بكلّ مجالاته - مؤيداً لما فيه ، ولم يجد
فيه ما ينافسه مطلقاً ، وقدّمت كتابك : (دراسة الكتب المقدّسة في ضوء
ال المعارف الحديثة) ، الذي ترجم إلى أكثر من عشر لغات ، فلماذا لا تعلن
إسلامك ، مادامت هذه الحاضرات تمثّل قناعاتك ؟ فأجابني الدكتور بوّكاي ،
وبكلّ هدوء وثقة : أنت تعلم أنّي مسلم منذ عشر سنوات ، ولا مانع أن أجّدد
إسلامي الآن أمام الجميع ، قلت له : ولكنك (موريis) ، لماذا لم تغيّر اسمك ؟
فأجاب : هذا أمر شكلي لا يمس الجوهر ، تأكّد يائحي ، أنّي لو قدّمت كتابي
(دراسة الكتب المقدّسة ..) باسم محمد بوّكاي ، أو مصطفى بوّكاي ،
أو عبد الهادي بوّكاي ... ما كان له ما كان من أثر ، ولما اهتمّ به المسلمين
والأوريئيون على حد سواء ، كما اهتموا به عندما قدم باسم موريis بوّكاي .

ثم أضاف أبو فريد القبطاني في جلستنا تلك : إن عشرة فرنسيين في كلّ
أسبوع يعلنون إسلامهم في مسجد باريس وحده ، وكان منّ أسلم على سبيل
المثال : (كليون توريز) ، حفيد (موريis توريز) مؤسس الحزب الشيوعي

الفرنسي ، وأصبح اسمه رسمياً : (عبد الرحمن توريز) ، كما أسلمت أخته (كاترين) ، والتي أصبح اسمها (لطيفة) .

وقدم لي أبو فريد مجلة (صوت الإسلام) ، العدد التاسع لسنة ١٩٨٨ م ، لأقرأ فيها مقابلة تحت عنوان : (استجواب عبد الرحمن توريز ، مع بيان) ، وما قاله عبد الرحمن توريز خلال المقابلة ، ردًا على سؤالٍ نصّه : « لماذا اعترض الإسلام بالذات ؟ » ، قال : « ثلات ميّزات في الإسلام لم أجدها في غيره من الأديان . ولا في النظريات البشرية : البساطة ، والوضوح ، والتّوافق مع طبيعة الإنسان »^(٥) .

وعندما حدثني أبو فريد القبطاني^(٦) عن الدكتور موريس بوكياي ، تذكرت فوراً البريطاني (كاتستيفنس) مطرب القارئين ، الأوروبية والأمريكية ، الذي نال شهرة عالمية باللغة ، من خلال الغناء والموسيقى ، التي فرغ لها كلّ وقته وجهه ، وكسب بسببيها أموالاً وثروة طائلة جداً ، ولكن لم تجلب له الملايين والشهرة العالمية الواسعة ، السعادة والسعادة والاستقرار ، كما قال ، فعاش ظروفاً تعيسة قاسية « وصراعاً مؤلماً » ، كدّر صفو أيامه ، وصفاء لياليه ، وراح يتنقل من النّصرانية إلى البوذية فالشّيوعية ، ثم النّصرانية مرة أخرى ، إلى أن هداه الله تعالى إلى نور الإسلام ، فاعتنقه بعزيمة وإيمان كاملين ، دون أن يكون لسلم يدّ في ذلك .

(٥) صوت الإسلام ، العدد ٩ ، تشرين الثاني (نوفمبر) ص ٦٠

(٦) وصلتني منه برقية بتاريخ ١٩٨٧/٤/٤ م ، والبرقية أصلًا موجهة إلى السيد رئيس الجمهورية الفرنسية (فرانسوا ميرلان) يعلمه بها أنَّ جهات فرنسية وإسرائيلية تحضر لقتله ، لنشاطه المؤيد للقضايا العربية والإسلامية ، وأنَّ الخطة قد بدأ تنفيذها ، كما هو معهود لها ، وقد أرسلت برقياتٍ مماثلةً لجهاتٍ عالمية « أدباء وملائكة وكتاب ، ليكونوا شهوداً إنْ مستَهُ جهاتٍ معادية للعرب بسوء .

هجر كات استيقنس دنيا الغناء والمعجبين والمعجبات ، واتّجه إلى الإسلام بكل حواسه وجوارحه ، لينهل من تعاليمه السّمحّة ، ويدعو غيره كذلك إليه ، بعد أن أطلق على نفسه اسمًا جديداً هو : (يوسف إسلام) ، فهزّ بإسلامه كلّ الأوساط ، وأسلم بإسلامه وحماسه للإسلام كثير من معجبيه .

يقول يوسف إسلام اليوم ، كات استيقنس الأمس : في عام ١٩٧٥ م ، حدثت المعجزة ، بعد أن قدّم لي شقيقى الأكبر نسخة من ترجمة معانى القرآن الكريم ، لقد لاحظت في القرآن شيئاً غريباً ، فهو لا يشبه باقي الكتب ، لا يتكون من مقاطع وأوصاف تتوفّر في الكتب الدينية التي قرأتها ، ولم يكن على غلاف القرآن الكريم اسم مؤلف ، وهذا أيقنت مفهوم الوحي ، الذي أوحى لي هذا النّبيُّ المُرْسَلُ بهذا القرآن من الله تعالى .

ومن أول وهلة شعرت أنَّ القرآن يبدأ (باسم الله) ، وليس باسم غير الله ، عبارة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) . كانت مؤثرة في نفسي ، ثمَّ تسمر فاتحة كتاب (هُوَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، كلُّ الحمد لله خالق العالمين ، وربُّ الخلق ، فالقرآن هو الذي دعاني للإسلام ، فأجبت دعوته .

وحاولت أن أجرب عن أخطاء في القرآن الكريم ، غير أنّي لم أجده ، كان كله نسجماً مع فكرة الوحدانية الخالصة ، بدأت أؤمن ما هو الإسلام ، كان الإسلام سالة من الله للبشر .

لقد أجاب القرآن الكريم عن كلّ تساؤلاتي ، وبذلك شعرت بالسعادة ، عادة العشور على الحقيقة ، ووجدت في القرآن كيف أنَّ هذه السّعادة هي فائدة .

وبعد أن درست القرآن الكريم ، نطقت بالشهادتين ، فولدت من جديد ،

ورحت أدرس سيرة الرّسول عليه الصّلاة والسلام ، وكيف أنّه بسلوكه وسنته علم المسلمين الإسلام ، فأدركـت الشّروـة المـائـلة في حـيـاة الرّسـول ﷺ وـسـنته^(٧) .

☆ ☆ ☆

☆ كتاب (حضارة العرب) :

تذكّرت - وأنا أُعد هذا الكتاب - الدّكتور موريـس بوـكـاي وـيوـسف إـسـلام (كـاتـاستـيقـنس) ، الـلـذـين أـسـلـاـ ، لأنـها لم يـجـدـاـ فـيـ القـرـآن الـكـرـيم مـاـيـنـافـيـ العـقـلـ ، أوـ يـنـقـضـهـ الـعـلـمـ ، أوـ يـرـفـضـهـ عـلـىـ ضـوـءـ الـمـكـشـفـاتـ الـمـدـيـثـةـ : هـذـلـكـ الـكـيـنـاـبـ لـأـرـيـبـ فـيـهـ هـهـ ، فـهـوـ دـيـنـ الـفـطـرـةـ فـيـ كـلـ شـيـءـ ، وـلـيـسـ فـيـ اـسـطـاعـةـ أـيـ عـقـلـ بـشـرـيـ نـزـيـهـ ، أـنـ يـرـتـابـ فـيـهـ : هـفـيـهـ هـدـئـ لـلـمـتـقـنـينـ هـ ، لـتـبـاـقـ أـحـكـامـ وـهـدـيـهـ ، مـعـ مـقـضـيـاتـ الـفـطـرـةـ الـبـشـرـيـةـ ، وـلـاـ كـانـ غـيـرـ الـعـرـبـ لـاـ يـتـذـوـقـونـ بـلـاغـتـهـ الـلـغـوـيـةـ ، فـيـ الـلـغـةـ الـتـيـ أـنـزـلـ هـاـ ، جـاءـتـ الـلـفـتـاتـ الـعـلـيـةـ الـقـاطـعـةـ حـجـةـ فـيـ كـلـ لـغـةـ : هـلـأـرـيـبـ فـيـهـ هـ .

تذكّرتَ الـاثـنـيـنـ ، بوـكـاي وـاستـيقـنسـ ، وـاسـتـغـرـبـتـ كـيـفـ خـفـيـ هـذـاـ الإـعـجازـ عـنـ الدـكـتـورـ غـوـسـتـافـ لـوـبـونـ ، الـذـيـ أـجـادـ فـيـ كـتـابـهـ (حـضـارـةـ الـعـرـبـ)ـ فـيـ وـصـفـ الـعـمـارـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ «ـ الـتـيـ لـبـسـ أـطـمـارـاـ بـالـيـةـ ، إـلـاـ أـنـهـاـ أـطـمـارـ شـرـيفـةـ »ـ :

«ـ وـيـتـلـأـلـاـ ذـلـكـ الـمـيـنـاءـ الـجـمـيلـ كـالـحـجـارـةـ الـكـرـيـةـ حـينـ تـلـقـيـ الشـمـسـ أـشـعـتـهاـ عـلـىـ جـامـعـ عـمـرـ ، فـيـكـتـسـبـ خـارـجـ هـذـاـ جـامـعـ منـظـراـ سـحـرـيـاـ خـيـالـيـاـ لـأـعـهـدـ لـجـوانـبـ الـمـبـانـيـ الـأـوـرـيـيـةـ الـدـكـنـ بـعـثـلـهـ ، وـلـرـءـ قـدـ يـفـكـرـ فـيـ تـلـكـ الـقـصـورـ السـحـرـيـةـ الـتـيـ يـبـصـرـهـ بـخـيـالـهـ أـحـيـانـاـ ، وـلـكـنـ الـخـيـالـ دـوـنـ الـحـقـيـقـةـ فـيـ أـمـرـ جـامـعـ عـمـرـ »ـ^(٨)ـ .

(٧) الرابطة ، العدد ٢٥١ ، السنة ٢٤ ، جـادـيـ الـآـخـرـةـ ١٤٠٦ـ هـ ، شـبـاطـ (فـبـاـيرـ) ١٩٨٦ـ مـ ،

صـ ٥٢ وـ ٥٣

(٨) حـضـارـةـ الـعـرـبـ ، صـ ١٩٧

« وجامع قرطبة أقيم أيام كان الفنُ العربيُّ في فجره ، ثم تدرج الفنُ العربيُّ إلى الكمال ، فأقيمت على الطراز العربيِّ الكامل مبانٍ عجيبة كالحراء تُخَبِّرُ ، بما لها من الرُّوعة والجلال . الأجيال القادمة بما كان للقوم الذين شاهدوها من الذوق الفنيِّ وحبِّ ما هو ساطع بديع عجيب »^(٩) .

(حضارة العرب) ، كتاب لاشك فريد في نوعه ، وكاتبته محبٌّ للعرب وحضارتهم ، إلا أنَّ الأخطاء والمفوات والمطاعن فيه كثيرة ، فمع حُسْنِ نِيَّةِ (لوبون) ، نلمس أنَّه لم يرافق نفسه ليحيط بدقائق العقيدة الإسلامية ، فجاءت معظم هفواته وأخطائه في هذا المجال ، فهو لم يتصور أو يدرك ظاهرة الوحي ، أو أدركها ، لكنه لم يقرَّ بها لحمد بن عبد الله ، ولم يستوعب بعض الأمور المتعلقة بالنبوة والقرآن والشريعة .

لقد وصف (لوبون) آثار حضارتنا فأجاد ، ودافع عن فتوحاتنا فأنْصَفَ ، كلَّ ذلك بروحٍ عالية المستوى قوية الحجة ، ولكن يصدِّم الدارس (لحضارة العرب) بعد هذا الإنْصاف بأقواله في القرآن ، وفي الرسول الكريم عليه السلام ، وفي الإسلام عقيدة .

أليس من الظلم والجور القول : إنَّ مُحَمَّداً عليه السلام كان من (المتهوّسين)^(١٠) ؟
أليس من التّعامل القول : إنَّ القرآن من تأليف محمد ، وشاهد من شاهد عبقريته^(١١) ؟

أليس من الافتراء القول : إنَّ الإسلام مقتبسٌ من عناصر يهوديَّة ونصرانية^(١٢) ؟

(٩) المرجع السابق ، ص ٢٥٤

(١٠) المرجع السابق ، ص : ٣٩ و ٤٠ و ١٤٥ و ١٧٣

(١١) المرجع السابق ، ص : ١٤٨ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٤ و ١٥٥

(١٢) المرجع السابق ، ص : ١٣٦ ، و ١٣٧

ومن حق (لوبون) والاستشراق أن يقول ، وأن يتناول بالتحليل والنقد والدراسة والتعليق ، ومن حقنا الرد والتصويت وتفنيد الخطأ ، لأن السُّكوت عما يقال ، أو يقدم ، يعني تسليماً ضئيلاً بآراء الاستشراق وطروحاته ، وإلا فain النُّقد والرُّد ، مادام الرأي فاسداً ظالماً !

والغريب العجيب ، أن الأستاذ المترجم ، وهو عربي مسلم ، لم يعلق على هفوات (لوبون) ، ولا على أخطائه وافتراضاته ، سواء جاءت عن حُسْنِ نِيَّةٍ ، أم جاءت عن سوء فهم ، واكتفى الأستاذ المترجم ، وهو رجل فاضل لاشك ، بتوصيب خطأين اثنين فقط ، في مقدمة الطبعة الأولى ، كا سنبيان في فصل : كتاب حضارة العرب ، وصف وعرض .

والصعوبة الكبرى ، التي واجهتنا في دراسة هذا الكتاب ، كانت عدم توثيق (لوبون) لما كتب ، وعدم عَزْوِيه ما اقتبس إلى مصادره ، كما أنه لم يقدم الأمثلة على رأيه المطروح ، وعندما نقل بعض الآراء من مصادrn ، لم يذكر اسم المصادر التي اعتمدها ، أو اقتبس منها ، بل قال في أكثر من موضع بصيغة التّمرير والارتياح : ويريوي مؤرخو العرب ، على زعم كتب السيرة ... دون أن يذكر من هم هؤلاء المؤرخون ، أو يحدد أي كتب السيرة التي تزعم ، واكتفى بسرد أسماء عشرات الكتب في نهاية الكتاب ، على أنها كانت مصادره .

☆ مؤلف (حضارة العرب) :

من مِنَا لم يحفظ ، أو يسمع على الأقل ، منذ طفولته بقول العلامة الفرنسي الشهير غوستاف لوبون :

« ماعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب »⁽¹³⁾ ، لقد حفظنا عبارته الرائعة

(13) يقول روبرتسون : « إن أتباع محمد - عليه السلام - هم الأمة الوحيدة التي جمعت بين التّحمس في الدين والتّسامح فيه ، أي أنها مع تمسّكها بدينها لم تعرف إكراه غيرها على قبوله » ، [حاضر العالم الإسلامي] ١٠٤/١ .

المُنْصِّفة ، إِمَّا بَعْد سَاعَاهَا مِنْ مَعْلِمِنَا ، مَعْلِمِي التَّارِيخِ خَصْوَصًا ، وَإِمَّا مِنْ صَفَحَاتِ كِتَابٍ اقْبَسَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ مِنْ كِتَابِ « حِضَارَةُ الْعَرَبِ » .

وَضَعَ الْعَالَمُ لَوْبُونَ أَثْنَاءَ سِيَاحَاتِهِ الْكَثِيرَةِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ كَتَبًا قِيَمَةً فِي مَدْنِيَّاتِ بَعْضِ الْأَمْمِ ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَ مِنْهَا الْعِبَرَ ، فَوُضِعَ ثَلَاثَةُ كِتَابٍ ، شَرَحٌ فِيهَا مَظَاهِرُ لَهُ مِنْ سِنِ الْاجْتِمَاعِ ، وَهِيَ : (سِرُّ تَطْوُرِ الْأَمْمِ) ، وَ (رُوحُ الْجَمَاعَاتِ)^(١٤) ، وَ (الْآرَاءُ وَالْمُعْتَقَدَاتِ) ، ثُمَّ طَبَّقَ مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْكِتَابِ مِنْ الْآرَاءِ فِي مُؤْلِفَاتٍ أُخْرَى ، أَهْمَاهَا : (رُوحُ الشُّورَاتِ وَالشُّورَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ)^(١٥) ، وَ (رُوحُ الْاشْتَراكِيَّةِ)^(١٦) ، وَ (حِضَارَةُ الْعَرَبِ)^(١٧) ، وَ (حِضَارَاتُ الْهَنْدِ)^(١٨) ، وَ (حِضَارَةُ الْمَصْرِيَّةِ)^(١٩) ، وَ (حِضَارَةُ الْعَرَبِ فِي الْأَنْدَلُسِ)^(٢٠) ..

إِذْنَ . فَالْمُؤْلِفُ هُوَ الْعَالَمُ الدَّكْتُورُ غُوْسْتَافُ لَوْبُونُ : [١٩٣١ - ١٨٤١ م] ، مِنْ فَلَاسِفَةِ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ الْفَرَنْسِيِّينِ ، وَمِنْ الْمُسْتَشْرِقِينِ الْمُنْصِّفِينَ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ ، لَمْ يَدَافِعْ عَنْ حِضَارَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ فَحَسْبٌ ، بَلْ دَافَعَ عَنْ حُوقُوقِ الْمُسْلِمِينِ ، وَانْتَقَدَ سِيَاسَةَ الْقَهْرِ وَالْهُضْمِ الَّتِي عَسْفَتُهُمْ بِهَا الْدُّولَ الْأُورَوْپِيَّةُ الْمُسْتَعِمِرَةُ ، وَقَدْ كَتَبَ كِتَابَاتٍ شَافِيَّةً فِي انتِقَادِ قَوْمِهِ الْفَرَنْسِيِّينَ بِمَا يَعْمَلُونَ بِهِ مُسْلِمِيَّ الْجَزَائِرِ مِنَ الظُّلْمِ ، وَالْإِرْهَاقِ ، وَنَزْعِ الْأَرْضِيِّ ، وَالتَّشْرِيدِ فِي الصَّحَرَاءِ . وَغَيْرُ ذَلِكَ^(٢١) .

(١٤) تَرْجِيمَةُ أَحْمَدِ فَتحِي زَغْلُولِ باشا ، تَحْتَ عَنْوَانِ : (رُوحُ الْاجْتِمَاعِ) مَطْبَعَةُ الشَّعْبِ ، سَنة ١٩٠٩ م .

(١٥) (رُوحُ الشُّورَاتِ وَالشُّورَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ) ، تَرْجِيمَةُ الأَسْتَاذِ عَادِلِ زَيْتُونَ ، نَشْرٌ مَكْتَبَةِ عَبِيدِ بِدَمْشِقَ ، سَنة ١٩٢٤ م .

(١٦) (حِضَارَةُ الْعَرَبِ) مَوْضِعُ دراسَتِنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ ، طَبْعَةُ : دَارِ إِحْيَاءِ التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ ، بَيْرُوت ، الطِّبْعَةُ الثَّالِثَةُ : ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، عَلَيْهَا طَبْعَتُهُ الْأُولَى كَانَتْ سَنة ١٩٤٥ م ، وَطَبَعَتُهُ الثَّانِيَةُ ١٩٤٨ م .

(١٧) حِضَارَةُ الْمَصْرِيَّةِ ، عَرَبَهُ الأَسْتَاذُ صَادِقُ رَسْمٍ .

(١٨) حِضَارَةُ الْعَرَبِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، عَرَبَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبَرْقُوْقِيِّ .

(١٩) حَاضِرُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيٍّ ١٥٥/١

وهو لم يذكر العرب بخير في كتابه (حضارة العرب) فقط ، لقد ذكرهم أيضاً في كتابه : (روح الثورات والثورة الفرنسية) ، قال لوبيون بعد ذكر انتصار جيوش الثورة الفرنسية : « ويدركنا تاريخهم بتاريخ قبائل جزيرة العرب ، التي استولى عليها المثل الأعلى الذي جاء به محمد عليه السلام ، فتحولت إلى جيوش مخيفة فتحت جزءاً من العالم الروماني القديم بأسرع ما يمكن »^(٢٠) .

وقال في كتابه : (روح الاجتماع) : « لقد أثبتت التاريخ ما المعتقد القوي من القوة التي لا تقاوم ، فخضعت دولة الرومان النيمة لجيوش من رعاة البدو الذين أضاء قلوبهم ماجاء به محمد عليه السلام من الإيمان »^(٢١) .

☆ مُتَرْجِم (حضارة العرب) :

عادل بن عمر بن حسن زعيتر : [١٣١٢ - ١٣٧٧ هـ = ١٨٩٥ - ١٩٥٧ م] ، حقوقى ، من أكابر المترجمين عن الفرنسية ، من أعضاء الجمعيات العلمية بدمشق وببغداد ، مولده ووفاته في مدينة نابلس (فلسطين) ، تعلم بها وبيروت وبالأستانة ، وكان من ضباط الاحتياط بالجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى ، ولحق بجيش الثورة العربية الكبرى ، فحكم عليه الأتراك العثمانيون بالإعدام غيابياً سنة ١٩١٧ م ، وقصد باريس بعد الحرب ، فتلقى فيها الحقوق ما بين سنتي ١٩٢١ - ١٩٢٧ م ، وعاد إلى فلسطين حامياً ومدرساً في معهد الحقوق بالقدس ، ثم انقطع إلى الترجمة ، فنقل عن الفرنسية سبعة وثلاثين كتاباً في التشريع والتاريخ والاجتماع ، منها :

ابن الإنسان ، والبحر المتوسط ، ونابليون ، وكلها لأميل لودفيغ ، ابن خلدون ، لبوتول ، ابن رشد والرشدية ، لرينان ، روح الشرائع لونتسكيو ،

(٢٠) روح الثورات والثورة الفرنسية ، ص ٢٢٩

(٢١) روح الثورات والثورة الفرنسية ، ص ٢٠

العقد الاجتماعي ، لجان جاك روسو ، تاريخ العرب العام ، سيديو ، حياة محمد ، لأمبل درمنجهام ، الرسائل الفلسفية ، لفولتير ، مفكرو الإسلام ، لكرادوفو .

وحضارة العرب ، وحضارات الهند ، وروح الاشتراكية ، وروح الثورات والثورة الفرنسية ، وفلسفة التاريخ ، وروح السياسة ، والآراء والمعتقدات ، وكلها للدكتور غوستاف لوبيون .

وللأستاذ عادل زعير مؤلفات حقوقية لم تنشر ، وكان - تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه - مع إجادته الفرنسية ، يجيد التركية ، وله إمام بالإنكليزية جميع أكثر ما كتب عنه ، بعد وفاته ، في : (ذكرى عادل زعير)^(٢٢) .

☆ خطّة هذه الدراسة :

في هذا الكتاب ، الرابع في سلسلة (في الميزان) ، سنعرض كتاب (حضارة العرب) في مجل أبواه وفصوله ، ثم مقدمة (لوبيون) من روائع تحسب له على صفحات (حضارة العرب) ، وبعد ذلك ، الفصل الأهم : الأخطاء والمفوات ، ونخت بفكريتين :

الأولى : مفتاح شخصية الرجل من خلال كتابه (حضارة العرب) .
والثانية : أهم الأخطاء والمفوات والافتراضات المشتركة بين جرجي زيدان ، وفيليب حتي ، وكارل بروكلمان ، وغوستاف لوبيون .

وسيilmiş القارئ من خلال صفحات كتابنا هنا ، أن لوبيون انتقل من أقصى المديح لحضارتنا ، إلى أقصى القدر لعقيدتنا ، ومن قمة الإيجابيات ، إلى حضيض السلبيات ، ومن ذروة التقدير والإعجاب والثناء ، إلى أدنى الخطأ والطعن

والافتراء . ومع ذلك ، لن نقول كما قال نجيب عقيقي في كتابه (المستشركون) ٢٢٦/١ : « حضارة العرب صدر في باريس سنة ١٨٨٤ م ، ولا قيمة علمية له » ، فقد يكون في ذلك ظلم كبير ، وخطأ فادح ، لن نقول إلا ما للرجل ، ولن نذكر إلاً ما عليه بالدليل والبرهان المؤثر .

و قبل أن نبدأ مع صفحات الفصل الأول من هذا الكتاب ، أُسجّل شكري وامتناني إلى الأخ الزميل ، الأستاذ هاني المبارك ، الذي قدم آراءه القيمة في فصل : (الأخطاء والمفوات) ، وإلى أسرة دار الفكر ، التي ألس عن ايتها بما نكتب ونقدم ، وأنا إذ أُسجّل شكري وامتناني ، أنطلق من (من لم يشكِّر الناسَ لم يشكِّر الله) ، فشكراً لكلٍّ قدّم ملاحظاته ، أو قدم إمكاناته :

﴿ رَبَّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُّرْ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالَّذِي وَأَنْ أَعْمَلْ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحُ لِي فِي ذَرْرَتِي إِنِّي تَبَثُّ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف ١٥/٤٦] .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ

شوقى ابوظيل

دمشق في : ٤ الحرم الحرام ١٤١٠ هـ
٤ آب (أغسطس) ١٩٨٩ م



مِنْ رَوَائِعِ لُوبُون

☆ «إِذَا مَا قِيَسْتُ قِيمَةَ الرِّجَالِ بِجَلِيلِ
أَعْمَالِهِ، كَانَ مُحَمَّدًا مِنْ أَعْظَمِ مَنْ عَرَفَهُمْ
الْتَّارِيخُ». .

[غوستاف لوبيون]

إن نظرة مدققة متخصصه لكتاب (حضارة العرب) ، تؤكد أنه كتاب أنصف فيه مؤلفه الدكتور غوستاف لوبيون ، حضارتنا العربية الإسلامية إلى حد بعيد ، ونتيجة طبيعية لهذه النّظرية الشاملة ، يقرّر الدّارس أنّ إنصاف المؤلف واضح ملموس ، وحسن النّية متوفّر لاريـبـ فيـهـ ، وـأنـ المـفـوـاتـ الـتيـ وـقـعـ فـيـهاـ تـؤـخـذـ عـلـىـ مـحـلـ حـسـنـ ، بـعـيدـ . كلّ البـعـدـ عنـ الحـقـدـ وـالـدـسـ وـالـافـتـراءـ ، لـانـطـلاقـ (لـوـبـيـونـ) مـنـ أـرـضـيـةـ الإـعـجـابـ بـحـضـارـةـ غـيرـ مـنـقـىـ إـلـيـهـ ، لـهـ دـورـهـ الـكـبـيرـ فـيـ النـهـضةـ الـمـعاـصـرـةـ ، وـالتـقـدـمـ الـخـاصـارـيـ الـعـلـمـيـ الـحـالـيـ ، فـأـرـادـ إـنـصـافـهـ ، وـتـقـدـيمـ روـائـعـهـ لـبـنـيـ قـوـمـهـ ، ليـبـدـدـ أوـهـامـهـ الـمـورـوثـةـ حـوـلـهـ .

ونحن إذ ننتقي - فيها يلي - أهـمـ ماـ أـوـرـدـهـ (لـوـبـيـونـ) فـيـ كـتـابـهـ : (حـضـارـةـ الـعـربـ)^(١) ، فلا يعني ذلك أهـمـهـ لـمـ يـوـردـ غـيرـهـ ، إـنـاـ نـوـرـدـ أـبـرـزـ مـاقـالـهـ ، وـذـلـكـ قـبـلـ أـنـ نـصـوـبـ بـعـضـ مـاـ أـخـطـأـ بـهـ ، أـوـ نـوـضـحـ نـقـاطـ خـفـيـتـ عـلـيـهـ ، أـوـ نـجـلـيـ أـشـيـاءـ غـابـتـ عـنـهـ ، أـوـ نـفـنـدـ أـمـرـاـ لـمـ يـدـرـكـ (لـوـبـيـونـ) كـنـهـاـ ، فـعـثـرـعـنـدـمـاـ عـالـجـهـاـ ، وـجـانـبـ الـحـقـيـقـةـ عـنـدـمـاـ أـوـرـدـهـاـ ، مـنـ خـلـالـ مـاـ وـصـلـ إـلـيـهـ عـلـمـهـ .

(١) حـسـبـ تـسـلـسلـ وـرـوـدـهـاـ فـيـ الـكـتـابـ ، وـهـذـاـ لـاـ يـعـنيـ أـنـاـ لـاـ نـعـدـ خـلـالـهـ بـعـضـ الـعـبـارـاتـ أـوـ الـكـلـمـاتـ الـتـيـ لـاـ نـوـافـقـهـ عـلـيـهـ ، وـسـنـشـيـرـ إـلـىـ ذـلـكـ فـيـ حـيـنـهـ ، إـنـ لـمـ تـجـاـوزـ الـعـبـارـةـ .

- ١ -

في نهاية الباب الأول : (مصادر قوة العرب) ، يتحدث (لوبون) عن :
(حياة محمد عليه وآخلاقه) ، وبعد عرض جوانب من سيرته عليه ، يقرر أنه
مالاريب فيه أنَّ مُحَمَّداً عليه أصاب في بلاد العرب مالم تُصب مثلها جميع
الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ، ولذلك كان فضل محمد عليه على العرب
عظيماً ، ثم يقول :

« وإذا ما قيَسَت قيمة الرجال بجليل أعمالهم ، كان محمد من أعظم من عزفهم
التاريخ ، وأخذ بعض علماء الغرب يُصنِفونه مُحَمَّداً ، مع أنَّ التَّعَصُّبُ الدِّينِيُّ أعمى
بعصائر مؤرِّخيهم عن الاعتراف بفضله ، قال العلامة بارتلي سنت هيلر : كان
محمد أكثر عرب زمانه ذكاءً ، وأشدَّهم تديناً ، وأعظمهم رأفةً ، ونالَ محمد سلطانه
الكبير بفضل تقوَّقه عليهم ، ونَعْدَ دينه الذي دعا الناسَ إلى اعتقاده جزيلَ النعم
على جميع الشعوب التي اعتنقته » ، [صفحة ١٤٦] .

- ٢ -

وقبل إيراد الآيات الكريمة ، التي تقرَّر أن لا إكراه في الدين^(٢) ، والخوار مع
أهل الكتاب بالتي هي أحسن^(٣) ، يقول (لوبون) :

« وكان محمد كثير المساحة لليهود والنَّصارى ، خلافاً لما يُظنَّ » ، [صفحة

[١٥٥] .

(٢) ﴿ لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ قُدِّمَ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ ﴾ ، [البقرة ٢٥٦/٢] .

(٣) ﴿ وَلَا تَعْجَدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقَوْلُوا آتَنَا بِالَّذِي أَنْزَلْنَا إِلَيْنَا وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت ٤٧/٢٩] .

- ٣ -

وفي الفصل الثاني : (القرآن) ، وتحت عنوان : (فلسفة القرآن - انتشاره في العالم) . يذكر أن التوحيد المطلق هو أصل أساسى ، فالله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهين على كل شيء ، ولا تحف به الملائكة والقديسون وغيرهم من يفرض تقديسهم . ويتابع (لوبون) :

« وللإسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين أدخل إلى العالم التوحيد الحض ... وتشتت سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد الحض ، وفي هذه السهولة سرقة الإسلام ، والإسلام ، وإدراكه سهل ، خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويُباه الدوق السليم من المتناقضات والغواص ، ولا شيء أكثروضحاً ، وأقل غوضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود الله واحد ، وبساواة جميع الناس أمام الله ، وببعضة فروض يدخل الجنة من يقوم بها ، ويدخل النار من يُعرض عنها ، وإنك إذا ما جمعت بأي مسلم من أي طبقة ، رأيته يتعرف ماذا يجب عليه أن يعتقد ، ويشير لك أصول الإسلام في بعض كلمات بسهولة ، وهو بذلك على عكس النصري الذي لا يستطيع حدثياً عن التشليث والاستحالة وما ماثلها من الغواص ، من غير أن يكون من علماء الألهوت الواقفين على دقائق الجدل » ،
[صفحة ١٥٨] .

« وساعد وضوح الإسلام ، وما أمر به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم ، وبتلك المزايا نفس سبب انتشار كثير من الشعوب النصرانية للإسلام ، كل صريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام ، كما نفسّر به السبب في عدم تنصّر أيّة أمّة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً ، سواء أكانت هذه الأمّة غالبة أم مغلوبة » ،
[صفحة ١٥٩] .

- ١٩ -

- ٤ -

وفي معرض حديث (لوبيون) عن مدى تأثير القرآن الكريم والإسلام في الناس ، وما يصبّه في النفوس إيماناً ثابتاً لا تزعزعه الشبهات ، يتبع قائلاً :

« ولا ريب في أنَّ نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيماً إلى الغاية . فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفة من إمارات مستقلة ، وقبائل مقاتلة على الدوام ، فلما ظهر محمد ومضى على ظهوره قرنٌ واحدٌ كانت دولة العرب متدة من الهند إلى إسبانيا ، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهّاج في جميع البلدان التي خفقت راية النبي فوقها .

والإسلام من أكثر^(٤) الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم ، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس ، وحملًا على العدل والإحسان والتسامح ، والبدئية^(٥) . وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفة ، تراها مضطّرة إلى التّحول لتسيرها الجموع ، وهي ، لاشكَّ ، دون الإسلام في شكلها المُعَدّل هذا » ، [صفحة ١٥٩] .

(٤) بل هو الدين الوحيد الملائم لاكتشافات العلم ، قدّيماً وحديثاً ومستقبلاً : هـ سريرهم آياتنا في الآفاق وربني أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحق أو لم يكُن يربّك أنّه على كُلّ شيء شهيد به [فأصلت ٥٧/٤١] ، والقرآن الكريم ، هو الكتاب المقدس الوحيدي ، إن لم يجد فيه ما يؤيّد الاكتشافات العلمية ويثبتها ، لن يجد فيه ما يعارضها حتّى ، لذلك قال الدكتور أرنست بانيرث (المستشرق النمساوي الختص بالدراسات الإسلامية) : « التأثير الديني في الغرب يتعرّض لهزّات عنيفة ، كلما حقّق العلم انتصاراته ، أمّا الإنسان المسلم فإنه يظل على إيمانه المؤكّد بزعم اطّلاعه الذائب والمثابر على العلوم الحديثة » ، [مجلة (الفكر المعاصر) ، العدد ٦٨ ، أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٠ م ، صفحة ١٠٦] .

(٥) البدئية : ديانة في الهند ، تدعى الناس إلى التّحلي بأطيب الأخلاق ، وتقول بتعدّد الألهة ، (انظر هامش صفحة ١٥٩ ، حضارة العرب) .

- ٢٠ -

- ٥ -

وبعد أن يذكر (لوبون) قول الفيلسوف (تايل) : « إنَّ من الصَّالِلَ أَنْ يُعَزِّي انتشار الإِسْلَام السَّرِيع فِي أَنْحَاء الْدُّنْيَا إِلَى أَنَّهُ يُؤْكِي عَنْ كَاهِلِ الإِنْسَانِ مَا شَقَّ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحةِ ». وَأَنَّهُ يُبَيِّحُ لِهِ البقاء عَلَى سَيِّءِ الْأَخْلَاقِ ». فقد ذَوَنَ (هوتنجر) قائمة طويلة بالأخلاقيات الكريهة « والأداب الحميدة عند المسلمين ، فأرى ، مع القصد في مدح الإسلام ، أن تلك القائمة تحتوي على أقصى ما يمكن أن يؤمن به إنسان من التحليل بكارم الأخلاق والابتعاد عن العيوب والآثام » . يقول :

« وسيري القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم ، أنَّ القوَّةَ لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ، فقد ترك العرب المغلوبين أحرازاً في أدیانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النَّصَارَى الإِسْلَام واتَّخذُوا الْعَرَبِيَّةَ لغَةَ هُنَّ ، فذلك لما رَأَوه من عَذَلِّ العرب الغَالِبِين ، مالم يَرَوْا مثله من سادتهم السَّابِقِين ، ولما كان عليه الإِسْلَام من السُّهُولَةِ الَّتِي لم يعْرِفُوها مِنْ قَبْلٍ .

والتأريخ أثبت أنَّ الأديان لا تفرض بالقوَّة ، فلما قهر النَّصَارَى عربَ الأنجلترا ، فَضَلَّ هُؤُلَاءِ القتَلَ والطَّرْدَةَ عن آخرهم على ترك الإِسْلَام .

ولم ينتشر الإِسْلَام بِالسِّيفِ ، بل انتشر بِالدَّعْوَةِ وَجَهَّادِها . وبالدَّعْوَةِ وَجَهَّادِها اعْتَنَقَتِ الإِسْلَام الشُّعُوبُ الَّتِي قَهَرَتِ الْعَرَبُ مُؤْخَراً كَالْمُغْرِبِ وَالْمُغْرِبِ . وبلغ من انتشار الإِسْلَام في الهند الَّتِي لم يكن العرب فيها غَيْرَ عَابِرِي سَبِيلٍ ، أن زاد عدد المسلمين فيها على خَمْسِينَ ملْيُونَ نَفْسٍ^(٦) ، ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً في يوماً ،

(٦) الهند آنذاك تضم الباكستان وبنغلادش أيضاً ، وفي الهند وحدها اليوم أكثر من مئة وخمسين مليون مسلم ، ناهيك عن أكثر من ٢٥٠ مليون مسلم في باكستان وبنغلادش .

مع أن الانكليز ، الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر ، يَجْهَزُون البعثات التبشيرية ، ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جَدْوَى » ، [صفحـة ١٦٢] .

- ٦ -

وتعقيباً وشرعاً لنصٍ تجلّت فيه ساحة الإسلام تجاه الأديان الأخرى ، وعدل المسلمين الغالبين ، مما لم يَرْ شبيهًا له من قبل ، يقرر (لوبيون) في حاشية طويلة التالية :

« ذكرنا آنفًا أن مساحة محمد لليهود والنصارى ، كانت عظيمة إلى الغاية ، مما لم يقل بثله مؤسس الأديان التي ظهرت قبله كاليهوديَّة والنصرانيَّة على الخصوص ، وسرى كيف سار خلفاؤه على سُنته ، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربة المنصفون القليلون ، الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب ، والعبارات الآتية التي اقتطفها من كتب الكثirين منهم ، تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصاً بنا ، قال (روبرتسون) في كتابه : (تاريخ شارلوكن)^(٧) : إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم ، وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، فهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم ، تركوا من لم يرغبو فيه أحراضاً في التمسُك بتعاليمهم الدينية .

وقال (ميشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، فقد ألغى البطاركة والرُّهبان ، وخدمهم من الفرائِب ، وحرَمَ مُحَمَّد قتل الرُّهبان على الخصوص ، لعکوفهم على العبادات ، ولم يمسّ عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، فذبح الصليبيون المسلمين .. بلا رحمة وقتاً دخلوها .

^(٧) شارلوكن (كارل) Charles Quint ، ولد سنة ١٥٠٠ م ، وملك إسبانية : [١٥١٦ - ١٥٥٦ م] ، انزوى في دير يوست ، وتوفي فيه .

وقال الرَّاهب (ميشو) في كتابه : (رحلة دينية في الشرق) : ومن المؤسف ألا^(٨) تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين ، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة » ، [صفحة ١٦٢] .

- ٧ -

وبعد عرض رفق الفاتحين بالشعوب ، وإعطائهم الحرية الدينية التامة ، وعدلاً مطلقاً واحتراماً للأموال ، وجزية سنوية ثابتة بسيطة جداً بدلًا من ضرائب الروم الباهظة ، أورد (لوبيون) مبالغة العرب في الوقوف عند حد تلك الشروط والتقييد بها ، بعد أن ذاقت الشعوب الأخرى من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية ، فأقبلوا على اعتناق دين المسلمين ولغتهم أیّاً إقبال ، ونتائج مثل تلك ، لاتُنال بالقوة ، فلم يظفر بمنها ملوك مصر من الفاتحين قبل العرب ، ثم يقول :

« وللفتح العربية طابع خاص لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاؤوا بعد العرب . فالبرابرية الذين استولوا على العالم الروماني والترك وغيرهم . وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمة ، لم يؤسسوا حضارة . وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التي قهروها . وعكس ذلك أمر العرب الذين أنشؤوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتمكنوا من حمل أمم كثيرة على انتهاج دينهم ولغتهم ، فضلاً عن حضارتهم الجديدة .. » ، [صفحة ١٧١] .

(٨) في أصل النص : (أن تقتبس) ، وأثبتناها : (ألا تقتبس) ، وإن صح الأصل ، فهو يعني : أن التسامح لم ينبع من ذاتها وأهلها ، إله اقتباس . ويبقى الفضل للMuslimين في ذلك ، على كلام الحالين .

- ٨ -

وفي الباب الثالث : (دولة العرب) ، وبعد إيراد رسالة الرشيد إلى تغور :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ماتراه لاما تسمعه » ، يقول (لوبون) : رأى (كلب الروم) الجواب ، فقد أرغمه الرشيد على دفع جزية سنوية ، وبقي سلطانه يمثل أقصى ماتنه إلى سلطان العرب ، ثم يقول :

« فالحق أن العرب الشجعان الذين آتوك دعوة محمد فعدوا أمّة واحدة ، أقاموا في أقل من قرنين دولة بلغت ما بلغته دولة الرومان من الاتساع ، فبدت هذه الدولة أكثر دول الأرض هيبة وقدنا » ، [صفحه ٢٢٠] .

- ٩ -

لقد استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فخرّبوها ، وخرقوا الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله بأمر رئيس الغاليين هولاكو ، ونهبوا بغداد ، وأحرقوا كتبها التي جمعها حبُّو العلم ، وألقواها إلى نهر دجلة ، فتألف منها جسر كان يمكن الناس أن يتمُّروا عليه « رجالاً وركباناً ، وأصبح ماءه أسود من مدادها ، كما روى قطب الدين الحنفي^(٩) ، أولئك الوحش الضاربة صهرتهم حضارة العرب في نهاية الأمر :

« في المدرسة العربية تدَّن المغول ، فاعتنقوا دين العرب وحضارتهم ، وشملوا متبنّي العرب وعلمائهم برعايتهم ، وأقاموا في بلاد الهند دولة قوية عربية

(٩) قطب الدين الحنفي : محمد بن أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود النهزاوي : [ت ٩٨٨ هـ = ١٥٨٠ م] ، مؤرخ من أهل مكة ، تعلم بصر ، ونصب مفتياً بمكة ، من كتبه : الإعلام بأعلام بلد الله الحرام ، و : البرق الياني في الفتح العثماني ، ومنتخب التاريخ ... [الأعلام ٧٦] .

المناهي ، فأ Hollowا بذلك حضارة العرب محلًّا حضارة الهند القديمة . فترى سلطان حضارة العرب بادياً في الهند حتى اليوم » ، [صفحة ٢٢٢] .

- ١٠ -

وبعد فتح مصر تجلّت ساحة الفاتحين ورحمتهم ، وقام عمرو بن العاص بما يكسب به قلوبهم ، فأجذبهم إلى مطالبهم ، فأصلاح أسدادهم وترعهم ، وأنفق الأموال الطائلة على شؤونهم العامة ، ثم ينفي التهمة التي وجهها المستشرقون المتعصّبون إلى الفاتحين العرب المسلمين ، والتي قالت : إن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية بعد فتحها ، يقول (لوبون) نافياً مفندًا :

« وأما حرق مكتبة الإسكندرية فمن الأعمال المجيئية التي تأباهَا عادات العرب ، فتجعل المرء يسأل : كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زماناً طويلاً ، وهذه القصة دُحيَّست في زماننا . فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها ، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين حرقو كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعشرية ، كالمُهدموا بها التماثيل ، فلم يبق منها ما يُحرق » ، [صفحة ٣٦٤] .

ويقارن (لوبون) ، وتتجلى حقائق التاريخ قبالة ناظريه ، دون تشويه أو ضبابية ، فيقول : يشهد تاريخ الرومان أنهم هم الذين أحرقوا كتب مكتبة الإسكندرية :

« فلما أصبحت النصرانية دين الدولة الرسمي ، أمر القيصر النصراني ثيودور^(١٠) ، لا الخليفة عمر بن الخطاب ، بإبادة معابدها ومقاتلتها وكتبها الوثنية كما ذكرنا ذلك آنفاً » ، [صفحة ٢٦٥] .

(١٠) ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) ، مال إلى رأي نسطور الذي ينكر الوهية السيد المسيح ، فدعا إلى عقد مجمع إفسس الأول سنة ٤٣١ م ، يقول ابن بطريق : « تكاثر النسطوريَّة في المشرق والعراق والموصل والقرارات والجزيره » ، [انظر : محاضرات في النصرانية لمحمد أبو زهرة ، صفحه ١٢٥ ، الطبعة الثالثة ، ١٢٨١ هـ = ١٩٦١ م] .

ويتابع (لوبون) في رسمه الصورة الصحيحة بشأن رقي حضارة العرب ، التي امتازت في الأندلس ، بغيل العرب الشديد إلى الفنون والأداب والعلوم ، فأنشئوا في كل ناحية المدارس والمكتبات والمخترابات ، في الوقت الذي تفشت فيه الأمية في أوربة ، حيث كانت الكتب نادرة ، حتى كتابهم المقدس لا يوجد خارج الأديرة ، لقد اقتني الحكم^(١١) في قرطبة مكتبة فيها أربع مئة ألف مجلد ، ثم يتحسر (لوبون) على فعلة (أكزينييس) :

« ظنَّ رئيس الأساقفة الإسباني أكزينييس أنه بحرقه مؤخراً ما قدر على جمعه من كتب أعداء دينه العرب (أي ثمانين ألف كتاب) محاذا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد ، فما ذرَّى أن ماتركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانيا يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد » ، [صفحة ٣٣٩] .

- ١١ -

وبعد أن يسخر (لوبون) من المؤرخين الذين يجسّمون قيمة انتصار شارل مارتل على المسلمين في بواتيه^(١٢) (بلاط الشهداء) ، حيث تقرّر مصير العالم في تلك المعركة ، فلو غُلِّبَ الفرنج ، لكانت الأرض قبضةَ محمد ، يقول :

« ولكن لنفرض جدلاً أن النصارى عجزوا عن دحر العرب ، وأنَّ العرب وجدوا جَوْ شمال فرنسة غير بارد ، ولا ماطر كجو إسبانية ، فطابت لهم الإقامة الدائمة به ، فماذا كان يصيّب أوربة؟ كان يصيّب أوربة النصرانية المتبرّرة مثل

(١١) الحكم الثاني (المستنصر) : [٣٦٦ - ١٩١٤ = ٩٧٦ م] ، ولد وتوفي في قرطبة ، شجع العلوم والأداب ، فقدت قرطبة في عهده مركزاً ثقافياً وحضارياً .

(١٢) بلاط الشهداء ، تور ، بواتيه : أصبح الأقوال أن موقعها على مقربة من طريق روسياني يصل شاتلرو ببواتيه ، على مسافة نحو عشرين كيلومتراً من بواتيه ، في الموضع الذي يسمى اليوم Moussais-la Bataille . وتاريخها تشرين الأول (أكتوبر) سنة ٧٣٢ م ، أوائل شهر رمضان سنة ١١٤ هـ ، وقادها : عبد الرحمن الغافقي .

- ٢٦ -

ما أصاب إسبانيا من التقدُّم والارتقاء ، والحضارة الْزَاهِرَة الرَّفِيقَة تحت راية النَّبِيِّ العربيِّ . وكان لا يجدر في أوربة أَلَّا تكون قد هُذِّبَتْ مَا حَدَثَ فِيهَا مِن الكبائر ، كالحرب الدِّينِيَّة ، وملحمة سان بارتمي^(١٣) ومظالم حاكم التَّفْتِيش^(١٤) ، وكلَّ مَا لم يَعْرِفْهُ المُسْلِمُونَ مِنَ الْوَقَائِعِ الَّتِي ضَرَّجَتْ أَوربة بالدَّمَاءِ عِدَّةَ قرونَ .

ويجب أن يكون المرء جاهلاً تارِيخَ حضارة العرب جهلاً مطْبِقاً لِيُوافقَ عَلَى ما زعمَه ذلك المؤرخ العالم (هنري مارتن) في كتابه عن تاريخ فرنسيَّة الشُّعُوبِ من

(١٣) (سان بارتمي) : ملحمة أمر بها سنة ١٥٧٢ م شارل التاسع وكاترينا دوميديسين ، عندما قُتلت كاترينا خمسة من زعماء البروتستانت في باريس ظنَّ أَنَّهُم يَأْتِيُونَ بِهَا وبِالْمَلِكِ ، ولم يُكَدْ يَنْتَشِرُ الْخَبَرُ فِي باريس حَتَّى شَاعَ أَنَّهُ شُرِعَ فِي قَتْلِ الْخَوَارِجِ ، فَانْتَصَرَ أَشْرَافُ الْكَاثُولِيكِ وَالْمَرْسِ الْمَلُوكِيِّ وَالنَّبَالَةِ وَالْمَهْوُرِ عَلَى الْبِرُوتُسْتَانَتِ ، وَقُتِلُوا مِنْهُمُ الْفَيْ نَسْمَة . وقد قُلَّدَ سُكَانُ الْوَلَايَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ بِعَامِ الْعُدُوِّ أَهْلَ باريس ، فَسَفَكُوا دَمَاءَ سَتَةَ إِلَى ثَانِيَةِ الْآفِ نَسْمَة . ولم يَنْلِ حادثَةُ السَّانِ بارتمي أَيَّامَ وَقَوْعَهَا شَيْءاً مِنَ الْإِنْتِقادِ فِي أُورْبَةِ الْكَاثُولِيَّةِ ، وَقَدْ أَوجَبَتْ حَسَاسِيَّةَ الْوَصْفِ ، فَكَادَ فِيلِيبُ الثَّانِي يَصْبِحُ مَجْنُوناً لِشَدَّةِ فَرَحَّهِ عِنْدَمَا بَلَغَهُ وَقَوْعَهَا ، وَنَهَّالَتِ التَّهَانِي عَلَى مَلِكِ فَرَنْسَةِ أَكْثَرِ مِنْ اِنْهِيَالِهِ عَلَيْهِ لِوَنَالَ نَصْراً عَظِيمَاً فِي سَاحَةِ الْوَغْيِ .

وَمَا بَدَا السُّرُورُ عَلَى أَحَدٍ كَمَا بَدَا عَلَى الْبَابَا غَرِيغُوارَ الثَّالِثِ عَشَرَ ، فَقَدْ أَمْرَ بِضَرْبِ أَوْسَمَةِ خَاصَّةٍ تَحْلِيَّداً لِذَكْرِهَا ، رَسَمَتْ عَلَى هَذِهِ الْأَوْسَمَةِ صُورَةَ غَرِيغُوارَ الثَّالِثِ عَشَرَ ، وَبِجَانِبِهِ مَلِكٌ يَضْرِبُ بِالسُّيْفِ أَعْنَاقَ الْخَوَارِجِ ، ثُمَّ هَذِهِ الْكَلْمَةُ : « قُتْلَ الْخَوَارِجِ » ، كَمَا أَمْرَ بِإِيَقَادِ نَيْرَانِ الْفَرْجِ ، وَبِضَرْبِ الْمَدَافِعِ ، وَبِتَكْلِيفِ الرَّسَامِ فَازَارِيَّ أَنْ يَصْوِرَ عَلَى جَدَرَانِ الْفَاتِيَّكَانِ مَنَاظِرَهَا ، [انظر : روح الْمُؤْرِخَاتِ ، غُوستافُ لُوبُون ، صَفَحة٤٤] .

(١٤) انظر : (حاكم التَّفْتِيش) د. علي مظہر، مطبعة أنصار السنة الحمدیة، ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .

ومظالم هذه المحاكم عَمِّتْ أوربة ، وإسبانية خاصة ، حيث شُكِّلتْ بِهِرَسُومِ بَابُويِّ فِي تَشْرِينِ الثَّالِثِ (نُوفِبِر) سَنَةِ ١٤٧٨ م ، وَمِنْ أَنْوَاعِ التَّعْذِيبِ الَّذِي اَتَيَّتْهُ هَذِهِ الْحَاكِمَةُ ، الَّذِيْنَ عَلَى قِيَدِ الْحَيَاةِ ، وَعِنْدَمَا احْتَلَ نَابِلِيُّونَ إِسْبَانِيَّةَ ، أَصْدَرَ مَرْسُوماً سَنَةَ ١٨٠٨ م بِالْفَاءِ حَاكِمَ التَّفْتِيشِ فِيهَا ، وَلَكِنَّ رَهْبَانَ (المُبَرِّزُوِّيَّتِ) أَصْحَابَ الْحَاكِمِ الْمَلْفَةَ اسْتَرَّوْا فِي الْقَتْلِ وَالْتَّعْذِيبِ ، فَشَمِلَ ذَلِكَ الْجَنُودُ الْفَرَنْسِيُّونَ .

وانظر أيضاً : (التَّعَصُّبُ وَالْتَّسَامِحُ بَيْنَ الْمَسِيحِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ) لِمُحَمَّدِ الْغَزَّالِيِّ ، الطَّبْعَةُ الثَّالِثَةُ ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م ، صَفَحة٣٦ وَمَا بَعْدَهَا .

أن النشاط الذي يحفز الناس إلى التقدُّم ليس مما تجده في عقرية المسلمين ، فنراهم مثل تلك ، ليست مما يقف أمام سلطان النقد عندما يعلم أن التمدن الالمعنِّي بالبلاد التي خضعت لأتباع الرسول مَحْلَّ الهمجيَّة ، وأن النشاط الذي يحفز الإنسان إلى التقدُّم ، لم يكن قويًا في أمَّة مثل قوتها في العرب » ، [صفحة ٢٨٩] .

ويقرُّر (لوبون) ويجزم أن العرب ذوي أثر بالغ في قدين الأقطار التي خضعت لسلطانهم :

« وإن كل بلد خفت فوقه راية الرسول تحول بسرعة ، فازدهرت فيه العلوم والفنون والأداب والصناعة والزراعة أينما ازدهار » ، [صفحة ٣٩١] .

- ١٢ -

ويصف (لوبون) استيلاء الصليبيين على القدس سنة ١٠٩٩ م متأللاً من وحشية ماجرى ، ومتحسراً على أخلاق قومه وسلوکهم ، فالمهوة عبقة بين تفكير الرجل المتدين وسلوکه وعواطفه ، وتفكير الرجل المتتوحش وسلوکه ونزواته .

ثم يورد قول المؤرِّخ الرَّاهب التقى (روبرت) : « كان قومنا يجوبون ، كاللبؤات التي خطقت صفارها ، الشوارع والميادين ، وسطوح البيوت ليترووا غليهم من التقتيل ، فكانوا يذبحون الأولاد والشُّبان والشيوخ ، ويقطّعونهم إرباً إرباً ، وكانوا لا يستبقون إنساناً ، وكانوا يشنقون أنساناً كثريين مجبل واحد بغيضة السرعة ، فياللغرابة أن تُدْبِّح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم !

وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه ، فيُبَقِّرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبيَّة ، فياللشره وحب الذهب ! وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث ، فيالتلك الشعوب العُمي المُعدَّة للقتل ! ولم يكن

- ٢٨ -

يبن تلك الجماعة الكبرى واحداً ليرضى بالنصرانية ديناً ، ثمَّ أحضر بوهيموند^(١٥) جميع الذين اعتقلهم في برج القصر ، فأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم ، ويسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لكي يباعوا فيها » ، [صفحة ٤٠٠] .

ويعقب (لوبون) : « وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى وقتها دخلها منذ بضعة قرون » ، ثمَّ يورد قول كاهن لوبري (ريوند داجيل) : « حدث ما هو عجيب بين العرب (!) عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها ، فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقلَّ ما يمكن أن يصيّبهم (!) وبُقرت بطون بعضهم فكانوا يُضطربون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحرق بعضهم في النار ، فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكdas من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يمرُّ المرء إلاً على جثث قتلهم ، ولكن كلَّ هذا لم يكن سوى بعض مانالوه » ، [صفحة ٤١] .

ويتابع (لوبون) تعليقه على صورة جثث القتلى ، التي تuum في الساحات هنا وهناك قائلاً : « لم يكتفى الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين .. الذين كان عددهم ستين ألفاً ، فأفأنتوهم على بئرائهم في ثانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولاشيخاً .

وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهالي القدس قاطبة ، فانهمكوا في كلِّ ما يستقدر له الإنسان من ضروب السُّكر والعربدة ، فاغتاظ

(١٥) بوهيموند النورماني : Bohemond ، أكبر أبناء روبرت جويسكارد ، وأحد قواد الحملة الصليبية الأولى ، أقام للنورمان إماراة في أنطاكية .

مؤرّخو النّصارى أنفسهم من سلوك حماة النّصرانية الشّائن . مع اتّصاف أولئك المؤرّخين بروح الإغضاء والتّساهل ، فنعتهم برناردة الخازن بالسّعري المجانين ، وشبيههم بودان ، الّذى كان رئيس أساقة دُولَ ، بالفُرسان الّتى تمرّغ في الأقدار^(١٦) ، [صفحة ٤٠٣] .

- ١٣ -

وفي معرض حديثه عن المجتمع العربي ، يقول (لوبون) :

« وإليك ماقاله الفيكونت فوغيه ، عندما تكلّم عن تزاور أفق طبقات العرب : لا يسعني سوى الإعجاب بما يسود اجتماعات أولئك القرويين الفقراء من الواقع والأدب ، فما أعظم الفرق بين اتزان أقوالهم ، وبنبل أوضاعهم ، ولغطبني قومنا وقاحتهم » ، [صفحة ٤٣٩] .

- ١٤ -

وبعد حديث (لوبون) عن نظام القضاء والمرافعات عن المسلمين ، الّذى كان بسيطاً للغاية ، والّذى لا يضيع وقت المتّقاضين الثمين ، ولا تشتمل بالنّفقات القضائية ، وتكون الأحكام عادلة على العموم ، فروح العدل والإنصاف نامية كثيراً في العرب ، فالعدل أساس الحياة في تلك المجتمعات الّتى لا تزال على الفطرة ، ويختم بقوله :

« نخت قولنا في نظم العرب الاجتماعية بأن نذكر أن العرب يتّصفون بروح المساواة المطلقة ، وفقاً لنظمهم السياسيّة ، فبدأ المساواة الّذى أعلن في أوربة قوله ، لافعلاً ، راسخ في طبائع الشرق رسوحاً تماماً ، فلا عهد للمسلمين بتلك

(١٦) انظر : (الحركة الصليبية : صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى) ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور .

الطبقات الاجتماعية التي أدى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب « ولا يزال يؤدي ، وليس من الصعب أن ترى في الشرق خادماً زوجاً لابنة سيده » وأن ترى أجراء منهم ، قد أصبحوا من الأعيان » . [صفحة ٤٧٦] .

- ١٥ -

وبعد أن يذكر (لوبون) أن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصاً بالإسلام ، فقد عرفه أمم الشرق قبل الإسلام^(١٧) ، لذلك لم تر فيه هذه الأمم غنماً جديداً ، ويذكر (لوبون) أيضاً الغرب ، الذي لم يكن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة في غير القوانين ، لافي الطبائع حيث يندر ، ثم يقول :

« ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوروبيين ، مع أنني أبصر بالعكس ما يجعله أنسى منه » وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدناً الكبيرة ، من احتجاجنا عليهم ، ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شرعاً^(١٨) ، [صفحة ٤٨٣] .

- ١٦ -

وفي صدد حديثه عن : (تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق) ، حيث كان لهنّ من الشأن ما اتفق لأخواتهنّ حديثاً في أوربة ، وذلك حين انتشار فروسيّة عرب الأندلس وظريفهم ، يقول (لوبون) :

(١٧) إنّه مقرر في التّوراة ، لقد كان عند داود مئة زوجة ، وعند سليمان ألف !؟ وعرف تعدد الزوجات عند الفرس وعرب الماحليّة أيضاً .

(١٨) يقول لوبون ، صفحة ٤٩١ : « إنّ الميّانة الزوجيّة في الأمم القائلة بالاقتصر على زوجة واحدة تزيد باطّرداد ، فقد دلت الإحصاءات الرّوسيّة التي ثبّرت حديثاً على أنّ عدد قضايا الزّناء في فرنسة في سنة ١٨٨٠ م ، أصبح تسعة أمثال ما كان عليه في سنة ١٨٢٦ م » ، فما بالنا ونحن في العقد الأخير من القرن العشرين !؟

- ٣١ -

▪ إنَّ الْأُورَبِيِّينَ أَخْذُوا عَنِ الْعَرَبِ مِبَادِئَ الْفَرْوَسِيَّةِ ▪ وَمَا اقْتَضَاهُ مِنْ احْتِرَامٍ
الْمَرْأَةِ ، فِي إِلَيْسَامٍ ، إِذْنٍ ، لِلنَّصْرَانِيَّةِ ، هُوَ الَّذِي رَفَعَ الْمَرْأَةَ مِنَ الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ
الَّذِي كَانَتْ فِيهِ ، وَذَلِكَ خَلَافًا لِلْاعْتِقَادِ الشَّائِعِ ▪ فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَمْرَاءِ النَّصَارَى
الْإِقْطَاعِيِّينَ فِي الْقَرْوَنِ الْوَسْطَى ▪ رَأَيْتَهُمْ لَمْ يَحْمِلُوهُ شَيْئًا مِنَ الْحَرْمَةِ لِلنِّسَاءِ ... ▪ ▪ ▪
[صَفَحةٌ ٤٨٨].

▪ وَمِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى أَهِمِيَّةِ النِّسَاءِ أَيَّامِ نِسَارَةِ حَضَارَةِ الْعَرَبِ ، كَثْرَةُ اسْتِهْرِ
مِنْهُنَّ بِعِرَافِهِنَّ الْعُلَمَىِّينَ وَالْأَدْبَرِيِّينَ ، فَقَدْ ذَاعَ صَيْتُ عَدْدٍ غَيْرَ قَلِيلٍ مِنْهُنَّ فِي الْعَصْرِ
الْعَبَّاسِيِّ فِي الْشَّرْقِ ▪ وَالْعَصْرِ الْأُمُوِّيِّ فِي إِسْبَانِيَّةِ ... ▪ [صَفَحةٌ ٤٨٩].

وَيُلَاحِظُ (لُوبُون) أَنَّ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ السَّاطِعَةِ خَبَتْ فِي عَهْدِ وَارِثِيِّ
الْعَرَبِ ، وَلَا سِيَّا فِي عَهْدِ التُّرْكِ ، فَنَقْصَ شَأنِ النِّسَاءِ كَثِيرًا :

« وَمَا تَقْدِيمَ يَثْبِتُ أَنَّ نَقْصَانَ شَأنِهِنَّ حَدَثَ خَلَافًا لِلْقُرْآنِ ، لَا بِسَبِّ الْقُرْآنِ
عَلَى كُلِّ حَالٍ ، لَمْ يَقْتَصِرْ فَضْلُ الْإِسْلَامِ عَلَى رَفْعِ شَأنِ الْمَرْأَةِ ، بَلْ نُضِيفُ إِلَى هَذَا ،
أَنَّهُ أَوْلَى دِينِ فَعْلِ ذَلِكَ ، وَيُسْهِلُ إِثْبَاتَ هَذَا بِبِيَانِنَا أَنَّ جَمِيعَ الْأَدِيَانِ ، وَالْأَمَمِ الَّتِي
جَاءَتْ قَبْلَ الْعَرَبِ ، أَسَاءَتْ إِلَى الْمَرْأَةِ ، وَهَذَا مَا أَوْضَحْنَا فِي كِتَابِنَا الْآخِرِ ،
فَلَا نَرَى غَيْرَ تَكْرَارِ مَا ذَكَرْنَا فِيهِ لِإِقْنَاعِ الْقَارِئِ »^(١٩) ▪ [صَفَحةٌ ٤٩٠].

(١٩) مِنَ الْأَمْثَلَةِ : كَانَ الإِغْرِيقُ عَلَى الْعُومَ يَعْدُونَ النِّسَاءَ مِنَ الْخَلْقَاتِ الْمُنْحَطَّةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ لِغَيْرِ
دَوْمِ النُّسُلِ وَتَدْبِيرِ النِّزَلِ ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ الْوَلُودُ تُؤْخَذُ مِنْ زَوْجِهَا بِطَرِيقِ الْعَارِيَةِ لِتَلِيدِ الْلَّوْطَنِ
أُولَادًا مِنْ رَجُلِ آخَرِ ، وَلَمْ يَنْلِ فِي دُورِ ازْدِهَارِ الْحَضَارَةِ الْيُونَانِيَّةِ الْحُكْمُ مِنْ نِسَاءِ الإِغْرِيقِ
سُوَى بَنَاتِ الْمَوْىِ .

وَجَاءَ فِي شَرَائِعِ الْهَنْدُوِينَ : لَيْسَ الْمُصِيرُ الْمُقْدَرُ وَالرَّبِيعُ وَالْمَوْتُ وَالْجَمِيعُ وَالْأَفَاعِيُّ وَالنَّارُ أَسْوَأُ
مِنَ الْمَرْأَةِ .

وَفِي التُّورَةِ : « الْمَرْأَةُ أَمْرٌ مِنَ الْمَوْتِ » وَأَنَّ « الصَّالِحُ أَمَامُ اللَّهِ يَنْجُو مِنْهَا ... » ، [حَضَارَةُ الْعَرَبِ
]. [٤٩٣/٤٩٢]

ويختم فقرة (الحريم في الشرق) قائلاً : كلمة الحريم لفظ يدلّ عند العرب على كلّ ما هو مقدس ، وينسج الأوريون على العموم ، أفسد الآراء حول دوائر الحريم في الشرق ، ثمّ يقول (لوبيون) :

« إنَّ الإِسْلَامَ حَسْنٌ حَالَ الْمَرْأَةَ كَثِيرًا ، وَإِنَّهُ أَوَّلُ دِينٍ رَفَعَ شَأْنَهَا ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ فِي الشَّرْقِ أَكْثَرُ احْتِرَامًا وَ ثَقَافَةً وَ سَعَادَةً مِنْهَا فِي أُورَبَةٍ عَلَى الْعُمُومِ »^(٢٠) ،

[صفحة ٥٠٣]

- ١٧ -

ومع بداية فصل (الدين والأخلاق) ، جعل (لوبيون) الفقرة الأولى تحت عنوان : (تأثير الدين في المسلمين) :

« تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر ، فلا تزال العروق^(٢١) المختلفة التي اتبعت القرآن مرشدًا لها ، تعمل بأحكامه ، كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً .. » ، [صفحة ٥٠٤] .

- ١٨ -

لقد أخذ العرب المسلمون من معارف اليونان ، شأنهم في ذلك شأن الطّلاب

(٢٠) وهذا ما أكدته القاضية السُّويديّة (بريجيدا أولف هامر) التي كلفت من قبل الأمم المتحدة بدراسة أحوال المرأة العربية ، مقارنة بالمرأة الغربية ، بمناسبة عام المرأة الدولي ١٩٧٥ م ، لقد درست (بريجيدا) المرأة في الشرق ، من أعقاق المرأة الصعيدية في (أبي طشت) في صعيد مصر ، إلى أعقاق المرأة التُّونسية في (سidi تراز) في تونس ، إلى عمق أعقاق المرأة الليبية في مصراته ، إلى عمق أعقاق المرأة العراقية في السُّليمانية ، ثمّ قدّمت دراستها التي قالت فيها : المرأة الشّرقية في قطاعات كثيرة وبمارزة من البلاد العربية التي زارتها أكثر حرّية من المرأة السُّويديّة ، المرأة المسلمة تمارس وضعاً ينتهي إلى القدسية لا إلى العبودية .

(٢١) يستخدم كلمة عِرْق بمعنى النّوع ، جاء في صفحة ٧٨ : « ويمكن تعريف العِرْق ، أو النّوع البشري ، بأنه يتخلّل على جماعات ذات أخلاق مشتركة تنتقل إليها بالوراثة المنظمة » .

غوستاف لوبيون (٣)

- ٣٣ -

الذين يتلقون في المدرسة ما ورثه الإنسان من علوم الأئلين ، ولكن العرب المفطورين على قوّة الإبداع والنشاط ، لم يكتفوا بحال الطلب الذي اكتفت به أوربة في القرون الوسطى . فلم يلبثوا أن تحرروا من ذلك الدور الأول . ويقول (لوبون) بعد هذا :

« والإنسان يقضى العجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث ، فإذا كانت هنالك أمم قد تساوت هي والعرب في ذلك ، فإنك لا تجد أمّة فاقت العرب على ما يحتمل .. » ، [صفحة ٥٢٦] .

- ١٩ -

لقد كان منهاج العرب العلمي قائماً على التجربة والتّرّصد والمراقبة ، ومنهاج أوربة في الوقت ذاته : كان درس الكتب ، والاقتصار على تكرار رأي العلم . وهذا ما سارت عليه أوربة طوال القرون الوسطى ، والفرق بين النّهجين أساسي ، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق :

« إذن ، اختبر العرب الأمور وجربوها ، فكانوا أول من أدرك أهمية هذا النهج في العالم ، فظلو عاملين وحدهم زمناً طويلاً ، قال (دولانبر) في كتاب : (تاريخ علم الفلك) : إذا استطعت أن تعدّ بين الإغريق راصدين أو ثلاثة ، رأيت بين العرب عدداً كبيراً من الرّصّاد ، وأما في الكيمياء ، فلا تجد مجرّباً يونانياً ، مع أنّ المجرّبين من العرب فيها يعُدُّون بالمئات » ، [صفحة ٥٢٩] .

« ونشأ عن منهاج العرب التجّريّ وصولهم إلى اكتشافات مهمّة ، فسرى من مباحثنا في أعمال العرب العلميّة ، أنّهم بالحقيقة انجزوا في ثلاثة قرون ، أو أربعة قرون ، من الاكتشافات ما يزيد على ما حقّقه الإغريق في زمن أطول من ذلك كثيراً . وكان تراث الإغريق العلمي قد انتقل إلى البيزنطيين ، فلم

- ٣٤ -

يستفيدوا منه منذ زمن طويل ، فلما آل إلى العرب حَوَّلوه إلى غير ما كان عليه ، فتلقاً ورثتهم مخلوقاً خلقاً آخر .

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد نشروها ، كذلك ، بما أقاموه من الجامعات ، وما أُلفوه من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ في أوربة من هذه الناحية ، وسُترى في الفصل الذي ندرس فيه هذا التأثير أن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدّة قرون ، وأنّنا لم نطلع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب ، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغنِّ عن نقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب إلا في الأزمنة الحاضرة » ، [صفحة ٥٢٩] .

- ٤٠ -

وكان حُبُّ العرب للعلوم من القوّة بحيث لم تقنعهم الحروب والفتن الأهلية ، وغارات الأجنبي ، من الاهتمام بها ، فأثر العرب بسعة معارفهم تأثيراً كبيراً في قاهرِيهِم ، الذين لم يلبثوا أن اتّخذوهم حمَّةً لهم :

« ولا شيء يُورث العجب أكثر من حضارة العرب على همجيّة جميع الغزاء ، ومن تخرّج هؤلاء الغزاء ، من فورهم ، على مدرسة العرب المغلوبين ، فقد دام عمل العرب في حقل الحضارة إلى ما بعد زوال سلطانهم السياسي .. » ، [٥٥٤] .

- ٤١ -

ولقد وصل العرب إلى اكتشافات مهمة في علم الكيمياء ، على الرّغم أنها بدأت مشوّبة بالسيّاء (٢٢) :

(٢٢) السيّاء : « الصُّنْعَة » ، أي تحويل المعادن الخصيصة مثل النحاس والمحمد ، إلى معادن ثمينة هي الذهب والنفطة ، وقال العالم الكبير عبد اللطيف البغدادي : إنّها باطلة ، وقال عن تجاريها : إنّها تجاري الصّلال الفارقة .

- ٣٥ -

« إنَّ المَعْرِفَةَ الَّتِي انتَقَلَتْ مِنَ اليُونَانَ إِلَى الْعَرَبِ فِي الْكِيمِيَاءِ ضَعِيفَةٌ ، فَلَمْ يَكُنْ لِليُونَانَ عِلْمٌ بِمَا اكتَشَفَهُ الْعَرَبُ مِنَ الْمَرْكَبَاتِ الْمُهَمَّةِ » ، كالكحول ، وزيت الزَّاجِ (الحامض الكبريتي) ، وماء الفضة (الحامض النتربي) ، وماء الذهب وما إلى ذلك . كَمَا أَنَّ الْعَرَبَ اكتَشَفُوا أَهْمَّ أَسْسِ الْكِيمِيَاءِ ، كالْتَّقطِيرِ .

قال بعض المؤلفين : إنَّ لِفَوَازِيَهُ هُوَ وَاضِعُ عِلْمِ الْكِيمِيَاءِ ، فَنَسَوْا أَنَّا لَا عَاهَدْ لَنَا بِعِلْمِ الْعِلُومِ ، وَمِنْهَا عِلْمُ الْكِيمِيَاءِ . صَارَ ابْتِداَعُهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، وَأَنَّهُ كَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنَ الْخَتِيرَاتِ مَا وَصَلُوا بِهِ إِلَى اكتِشافِهِ لَوْلَا هُمْ مَا سَطَعَ لِفَوَازِيَهُ أَنْ يَنْتَهِي إِلَى اكتِشافَاتِهِ » ، [صفحة ٥٧٣] .

- ٤٢ -

ويشرح (لوبون) علم الصحة عند العرب ، الذين لم يجعلوا في حياتهم أهمية حفظ الصحة ، مع الوقاية من الأمراض قبل الواقع فيها ، ثم يقول :

« وَلَيْسَ فِيهَا نُسْبَةٌ إِلَى النَّبِيِّ مِنَ الْوَصَايَا الصَّحِيَّةِ^(٢٢) مَا يَنْتَقَدُ » ، [صفحة ٥٩٢] .

- ٤٣ -

وفي فصل : (فن عمارة العرب) ، وهو فصل غني بالصور ، تحدّث (لوبون) عن التَّدَلِيلَاتِ (المقرنصات)^(٢٤) ، التي امتاز بها الفنُ العربي . والنُّقوشُ العربيَّةُ ، ودقائقُ الزَّخْرُفِ ، والخطُّ العربيُّ الكوفيُّ ومشتقاته ، وختَمَ : (مباني بلاد الأندلس) : جامع قرطبة ، قصر إشبيلية ، قصر الحمراء في غرناطة ... ثم يقول :

(٢٢) جمعت وصاياه عليه السلام في كتاب ابن قيم الجوزية : « الطَّبُّ النَّبُوِيُّ » .

(٢٤) القرانيص خرز في أعلى الخف ، ويقال : قرنصت البازي إذا ربطته ليستطع ريشه ، فهو مقرنص ، [اللسان : قرنص] .

- ٣٦ -

« وبلغ خصُب الفنُ العربيُّ الأندلسيُّ غايتها في قصر الحمراء الذي أنشئ في القرن الثالث عشر من الميلاد ، وعلى ما فيه من غلوٌ في الزخرف ، ترى هذا الغلوٌ وليد ذوق رفيع ، لا يتجلّى في آثار دور مُنْحَط ». [صفحه ٦٥٠] .

- ٢٤ -

وما عجز الإغريق والفرس والرومانيون عنه في الشرق . قدر عليه العرب سرعة ، ومن غير إكراه ، لقد وُفق العرب في كل بلد خفقت فوقه رايتهم ، إفريقية ، وسورية ، والرافدين ، وفارس ... وبلغ نفوذهم بلاد الصين ، وجنوب شرق آسيا ، التي لم يزوروها إلا تجّاراً . يقول (لوبون) :

« ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التي اتصل العرب بهم ، اعتنقوا حضارتهم ولو حيناً من الزمن ، فلما غاب العرب عن مسرح التاريخ ، اتّحول قاهم ، كالترك والمغول إلى ، تقاليدهم ، وبدؤوا للعالم ناشرين لنفوذهم ، أجل ، لقد ماتت حضارة العرب منذ قرون ^(٢٥) ، ولكن العالم لا يعرف اليوم في البلاد المتدة من المحيط الأطلنطي إلى السندي ، ومن البحر المتوسط إلى الصحراء ، غير دين أتباع النبي ولغتهم » . [صفحه ٦٧٢] .

- ٢٥ -

ويقول (لوبون) منصفاً مُقِرّاً :

« إن أوربة مدينة للعرب بحضارتها » . [صفحه ٦٧٥] .

ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوربة ، حينما أدخل العرب الحضارة إليها :

(٢٥) الحضارات لا تقوت ، بل تتنقل ، وهي متواصلة العطاء . إنها بساط نسجته وتسجّه أيدي أمم كثيرة ، يقول المرحوم مالك بن نبي : « الحضارة تسير كاسير الشمس ، فكلّها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر ». .

- ٣٧ -

▪ فإذا رجعنا إلى القرن التاسع ، والقرن العاشر من الميلاد ، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ، ساطعة جداً ، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراًجاً يسكنها أمراء إقطاعيون متواحشون ، يفخرون بأنهم لا يقرؤون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون ، الذين كانوا يقضون أوقاتهم في أديارهم . ليكُشِطُوا^(٢٦) بخشوع كتب الأقدمين النفيسة ، فيكونون عندهم من الرُّقُوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة » . [صفحة ٦٧٥]

« وظلت هجية أوربة طويلاً زمناً عظيماً جداً من غير أن تشعر بها ، ولم يُبَدِّلْ فيها بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر ، وفي القرن الثاني عشر من الميلاد على التحديد ، فلما ظهر فيها أنس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الشقيق عنهم . ولُوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أمةً وحدُهم » . [صفحة ٦٧٦]

- ٤٦ -

وبعد ذكر القنوات التي عبرت من خلالها الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربة : (الأندلس ، صقلية ، إيطالية) . يقول (لوبون) : فالحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد عليه السلام ، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها :

« فإذا كانت هنالك أمة نُقِرَ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزَّمن القديم ، فالعرب هم تلك الأمة ، لارهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم

(٢٦) كشط الغطاء عن الشيء ، والجلد عن الجذور ، والجلد عن ظهر الفرس يكشطه كشطاً : قلعه وزعه وكشط عنه ، « وإذا السماء كُشِطَتْ » : نزع فطويت ، [اللسان : كشط] ، ولعل المعنى المراد هنا : النسخ .

اليونان ، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنفهم في إيقاد تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً ، قال مسيو ليري : لولم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت هبة أوربة في الآداب^(٢٧) عدة قرون ■ ، [صفحة ٦٧٧] .

فلم يكن في العالم ، في القرن العاشر من الميلاد ، بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية ، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً :

« إلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون ، لطلب العلوم في الحقيقة » ونذكر منهم ، على حسب بعض الروايات التي هي موضوع جدال من غير أن يثبت عدم صحتها^(٢٨) ، جربت الذي صار بابا في سنة ٩٩٩ م باسم سلفستر الثاني ، فلما أراد هذا البابا أن ينشر في أوربة ماتعلمه عَدَ النَّاسَ ذلك من الخوارق ، فاتهموه بأنه باع روحه من الشيطان .

ولم يظهر في أوربة قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يقتصر على استنساخ ما في كتب العرب ، فعلى كتب العرب وحدها عَوْل روجري يكن « وليونارد البيزي » وأرنوند الفيلسوف ، وريمون لول ، وسان توما^(٢٩) ، وألبرت الكبير ، والأذفونش العاشر القشتالي إلخ ، قال مسيو رينان : إنَّ ألبرت

(٢٧) والأخلاق والعلوم والفلسفة أيضاً ، وهذا ما اعترف به (لوبيون) في الصفحات التالية من كتابه موضع دراستنا هذه ، وصفحة ٦٧٨ خصوصاً .

(٢٨) انظر : (شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في أوربة) لزيفريد هونك ، المستشرقة الألمانية ، نصل : (البابا يحب بالعربية) : « واستمع جربت في إسبانيا إلى الأساتذة العرب ، وتعلم أشياء لم يكن أحد في أوربة ليعلم أن يسمع بها ، وكان من أم ماتعلمه جربت نظام الأرقام والأعداد العربية » ، صفة ٨١/٨٠ ، الطبعة الأولى أذار ١٩٦٤ م ، المكتب التجاري - بيروت .

(٢٩) توما الإكويوني : [١٢٥ - ١٢٧٤ م] ، ولد في إيطالية ، وتعلم في جامعة باريس ، اطلع على آراء ابن سينا والغزالى وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية ، واقتبس منها الكثير . فبرهانه على وجود الله مثلاً ، هو البرهان نفسه الذي عرضه الفارابي في كتابه : (آراء أهل المدينة الفاضلة) ، وعرضه ابن سينا في كتابيه : (النجاة) ، و (الشفاء) ، كذلك أخذ فكرة =

الكبير^(٣٠) مدين لابن سينا ، وسان توما مدين في فلسفته لابن رشد » ،
[صفحة ٦٧٨] .

ولم يكن نفوذ العرب في جامعات إيطالية ، ولا سيما جامعة بادوا^(٣١) ، أقل منه في فرنسة ، فقد كان للعرب فيها شأن :

« ويكن للقارئ أن يتمثل سعة نفوذ العرب من الاحتجاج الصالح الآتي الذي قاله الشاعر الكبير بترارك^(٣٢) : ياعجبأ ، استطاع سيسرون^(٣٣) أن يكون خطيباً بعد ديويستين^(٣٤) ، واستطاع فيرجيل^(٣٥) أن يكون شاعراً بعد

= ضرورة الولي الإلهي عن الفلسفة المسلمين . وعن ابن رشد أخذ توما مذهبة في النقل والعقل ، أي بين العقل والولي . [دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ، د . عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثالثة ١٩٧٩ م ، ص ٣٤/٣٣ ، وكالة المطبوعات الكويتية ، ودار القلم بيروت] .

(٣٠) ألبرتس الكبير : [١٢٠٧ - ١٢٨٠ م] راهب ملاني ، معلم القديس توما الإكونوفي ، يقول الدكتور بدوي في المرجع الوارد في الحاشية السابقة ، صفحة ٢٢ : « درس - ألبرتس - ماترجم إلى اللاتينية من مؤلفات الفلسفة العربية دراسة عقيقة ، وكاد أن ينقل عنهم كُلّ نظرياته الرئيسية في الفلسفة ، وإن لم يستطع أحياناً الجهر بذلك خوفاً من السلطات الدينية ... وفضلاً عن ذلك فإنه في إدراكه وفهمه للفلسفة الأرسطية ، إنما اعتقاد كلّ الاعتقاد على الفارابي وابن سينا وابن رشد » .

(٣١) بادوا Padova : مدينة في شمال إيطالية ، غربي مدينة البندقية (فينيسيا) .

(٣٢) بترارك Petrarca : [١٣٠٤ - ١٣٧٤ م] شاعر إيطالي من رواد النهضة الأوروبية ، اشتهر بديوانه : (الانتصارات) .

(٣٣) سيسرون (أوشيشرون) Cicéron : [١٠٦ - ١٢ ق . م] ، أكبر خطيب وكاتب ومفكرة عرفته رومية .

(٣٤) ديويستين Demosthenés : [٣٢٢ - ٣٨٤ ق . م] ، سياسي وخطيب ، يوناني قضى حياته ينظم المقاومة في أثينا والمدن الأخرى ضدّ فيليب المقدوني والاسكندر ، وكان يحرّض مواطنيه على المقاومة بخطب شهيرة عرفت بالفيليبيك .

(٣٥) فيرجيل : [٧٠ - ١٩ ق . م] أعظم شعراء الرومان ، أهمّ ما يُميّزه إيمانه بالأفكار التي تجول بخاطره ، وإتقانه صنعة الشعر ، وتقنه من اللغة ، وبراعته في استخدام الأوزان .

أُوميرس^(٣٦) ، فهل قُدِّر علينا ألا نكتب بعد العرب ؟ لقد تساوينا ، في الغالب ،
نحن والإغريق وجميع الشعوب وسبقتها في بعض الأحيان ، خلا العرب ،
فياللحافة ! وياللضلالة ! ويا العبرية إيطالية الناعسة أو الخامدة ! » ،
[صفحة ٦٧٩] .

- ٤٧ -

وليس الإسلام مصدر عدم التسامح ، بل بعض الأشخاص ، فالعرق العربي
كان من التهذيب والسماحة ما لا يجده معه عن ذلك التسامح الذي أقام الدليل
عليه في كل مكان حل فيه منذ بدء فتوحه ، ثم يقول (لوبيون) :

« ويكن القول إن التسامح الديني كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة
العرب » ، [صفحة ٦٨١] .

- ٤٨ -

وتحت عنوان : (تأثير العرب في الطيائع) ، وبعد أن يقرر (لوبيون) أنَّ
الدم الشرقي يشاهد في إسبانية بسهولة ، فمن الممكن أن تباد أممَّة ، وأن تحرق
كتبهَا ، وأن تهدم آثارها ، ولكن ما لها من التأثير أقوى من القُلُّ في الغالب^(٣٧) .
فلا يستطيع إنسان محوه ، ولا تقاد العصور تقدر عليه . يقول :

ـ لانعود إلى ما فصلناه في فصل سابق عن تأثير العرب الخلقي في أوربة ،
 وإنما نذكر أننا أثبتتنا فيه الفرق العظيم بين أمراء النصارى الإقطاعيين ، وأشیاع
النبي في ذلك الزَّمن ، وأن النصارى تخلصوا من همجيتهم بفضل اتصالهم بالعرب ،

(٣٦) هوميروس Homeros : ولد في آسية الصغرى في القرن ٩ ق . م ، شاعر ملحمي يوناني . نسبت
إليه الإلياذة والأديسة ، والأغاني الهوميرية ، التي أثرت تأثيراً عيقاً على مستقبل الشعر
اليونياني .

(٣٧) القُلُّ من النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد ، [اللسان : قلز] .

- ٤١ -

واقتباسهم منهم مبادئ فروسيّتهم ، وما تؤدي إليه هذه المبادئ من الالتزامات ، كمداعاة النساء والشيوخ والأولاد واحترام العهود إلخ ، ونذكر أننا بيتاً في فصلنا عن الحروب الصليبية أنَّ أوربة النصرانية كانت دون الشرق الإسلامي أخلاقاً بمراحل ، فإذا كان للديانات ما يُسند إليها من التأثير في الطبائع على العموم ، فنجادلُ فيه ، أمكنت المقابلة بين الإسلام والأديان الأخرى ، التي تزعم أنها أفضل منه على الخصوص » ، [صفة ٦٨٧] .

« تكلمنا في ذلك الفصل بدرجة الكفاية عن تأثير العرب **الخلقي** في أوربة ، فنحيل القارئ عليه ، وإنما نذكر القارئ بالنتيجة التي توصل إليها أيضاً العلامة المُتَدِّين مسيو بارتلي سنت هيلر^(٢٨) في كتابه عن القرآن ، حيث يقول :

أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع أمراينا الإقطاعيين الغليظة في القرون الوسطى . وتعلم فرساننا أرق العواطف وأربأها وأرجحها من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم ، فأشك في أن تكون النصرانية وحدها قد أوحت إليهم بذلك ، مما يبلغ في كرمها .

وقد يسأل القارئ بعدما تقدم : لماذا يُنكِّر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر ، الذين يضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح ؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضاً ، وهو : أنَّ استغلاناً الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة ، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد » ، [صفة ٦٨٨] .

« لقد تراكمت أوهامنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة ، فصارت جزءاً من مزاجنا ، فأضحت طبيعة متصلة فينا ، تأصل حقد اليهود على النصارى الخفي أحياناً ، والعميق دوماً .

(٢٨) لعله هيلر Hilar : [١٨٩٥ - ١٨٠٥ م] ، مستشرق فرنسي ، درس أديان الشرق ، له : (بوذا الهندى) ، و (محمد والقرآن) .

إِنَّا أَضْفَنَا إِلَى أَوْهَامِنَا الْمُورُوثَةَ ضَدَّ الْمُسْلِمِينَ وَهُمَّنَا الْمُورُوثُ الَّذِي زادَ مِنْهُ
القُرُونُ بِفَضْلِ ثِقَافَتِنَا الْمُدْرَسِيَّةِ الْبَغْيَيَّةِ الْقَائِلَةِ : إِنَّ الْيُونَانَ وَالْإِلَاتِينَ وَحْدَهُمْ مِنْبَعُ
الْعِلُومِ وَالْآدَابِ فِي الرَّزْمِ الْمَاضِيِّ ، أَدْرَكَنَا بِسَهْوَلَةٍ سِرَّ جَهْودِنَا الْعَامَّ لِتَأْثِيرِ الْعَربِ
الْعَظِيمِ فِي تَارِيخِ حَضَارَةِ أُورْبَةِ ، وَيَتَرَاءَى لِبَعْضِ الْفَضَلَاءِ أَنَّ الْعَارَفَ يَفْكَرُ
فِي أَنَّ أُورْبَةَ النَّصَارَى مِدِينَةً فِي خَرْوْجَهَا مِنْ دُورِ التَّوْحُشِ لَا لِئِنَّ الْكَافِرِينَ ،
فَعَلَّ ظَاهِرُ كَهْذَا لَا يُقْبَلُ إِلَّا بِصَعْوَدَةٍ » ، [صَفَحةٌ ٦٨٩] .

- ٢٩ -

وَفِي مَعْرِضِ حَدِيثِ (لُوبُون) عَنْ : (وَرَثَةُ الْعَربِ فِي الْأَنْدَلُسِ) ، أَيْ بَعْدِ
أَنْ غَابَ الْعَربُ الْمُسْلِمُونَ عَنْ أَرْضِهَا :

« لَمْ يَفْكَرْ النَّصَارَى ، بَعْدَ أَنْ اسْتَرْدَوْا غَرْنَاطَةَ ، الَّتِي كَانَتْ مَعْقَلُ الْإِسْلَامِ
الْأَخِيرِ فِي أُورْبَةِ ، فِي السَّيِّرِ عَلَى سُنَّةِ الْعَربِ فِي التَّسَامِحِ الَّذِي رَأَوْهُ مِنْهُمْ عِدَّةَ
قُرُونٍ ، بَلْ أَخْذُوا يَضْطَهِدُونَ الْعَربَ بِقَسْوَةِ عَظِيمَةٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنِ الْعَهْدِ » ،
[صَفَحةٌ ٦٩٤] .

- ٣٠ -

وَمَاذَا جَرِيَ فِي إِسْبَانِيَّةِ بَعْدَ سُقُوطِ حُكْمِ الْعَربِ الْمُسْلِمِينَ ؟

لَقَدْ عَاشَ فِيهَا جِيلَانٌ أَحَدُهُمَا مِنَ النَّصَارَى الْقَابِضِينَ عَلَى زِمامِ السُّلْطَةِ
الْعَسْكَرِيَّةِ ، وَالْأُخْرَى مِنَ الْعَربِ الْقَابِضِينَ عَلَى نَاحِيَةِ الْمُخَاصِرَةِ الْمَادِيَّةِ : « كَانَ
وَجُودُ ذَئْنِكَ الْجَيْلَيْنِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا ، فَإِذَا كَانَتِ السُّلْطَةُ الْعَسْكَرِيَّةُ كَافِيَّةً لِإِقْرَامِ
دُولَةً ، فَإِنَّهَا تَعْجِزُ وَحْدَهَا عَنِ إِدَامَتِهَا ، فَلَنْ يَكُونَ ازْدَهَارُهَا إِلَّا بِتَوَافُرِ بَعْضِ
عَنَاصِرِ الْمُخَاصِرَةِ ، وَلَنْ تَبْقَى طَوِيلًا إِلَّا بِيَقَاءِ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ .

هَذَا هُوَ عِينُ مَا أَصَابَ إِسْبَانِيَّةَ بَعْدَ طَرْدِ الْعَربِ ، فَقَدْ حَلَّ الْانْخِطَاطُ فِيهَا

- ٤٣ -

حمل العظمة ، وقد زاد انحطاطها سرعةً ماعطلت من قادة عظام حربين . كالذين ظهروا في قرن واحد ، وهي حين خسرت سلطانها الحربي وحرمت الحضارة ، أضاعت كل شيء .

وكان من سرعة الانحطاط الذي عقب إجلاء العرب وقتلهم ما يكمنا أن نقول معه إنَّ التَّارِيخ لم يُروِي خبر أمة كإسبانيا ، هبطت إلى ذرَّة عيقة في وقت قصير جداً ، فقد توارت العلوم والفنون والزراعة والصناعة ، وكلُّ ما هو ضروريٌّ لعظمة الأمم عند بلاد إسبانية على عجل . فأغلقت أبواب مصانعها الكبرى ، وأهملت زراعة أراضيها ، وصارت أريافها بلا قمع . والمدن إذ كانت لا تزدهر بغير صناعة ولا زراعة ، خلت المدن الإسبانية من السُّكَان على شكل سريع خيف ... » ، [صفحة ٦٩٥] .

- ٣١ -

وحانت إسبانية النُّهوض بعد طرد العرب المسلمين ، ولكن من غير جدوى ، وحقاً أنَّ العرب زالوا . وقضت حاكِم التَّفتیش على كلِّ من يزيد ذكاؤه قليلاً على المستوى المتوسط ، فصرت ترى فيها سُكَانًا ، لا رجالاً ، ويتابع (لوبون) قائلاً :

« أجمع كُتاب العصر الذين زاروا بلاد إسبانية على الاعتراف بضعف مستوى الإسبان الثقافي ، فكان هذا الضعف عميقاً عاماً في أواخر القرن السابع عشر من الميلاد . فبدت تلك البلاد التي أضاءت العالم أيام سلطان العرب بحاليه من أية مدرسة لتعليم الفيزياء والرياضيات والطبيعتيات ، فصرت لا ترى فيها كُلُّها حتى سنة ١٧٧٦ م كيماوياً قادرًا على صنع أبسط التراكيب الكيماوية ، ولا شخصاً قادرًا على إنشاء مركب أو سفينة شراعية » . وذلك كما قال الكاتب الإسباني (كانبومانيس) مؤكداً .

- ٤٤ -

ولا مِرَاءَ في نجاحِ حُكَمِ الْفَتْيَشِ المَرْهُوبَةِ فِي أَعْمَالِهَا^(٣٩) ، فَأَضَحَتْ جَمِيعَ بَلَادِ إِسْبَانِيَّةَ لَا تَعْرِفُ غَيْرَ كِتَابِ الْعِبَادَةِ ، وَلَا عَمَلاً غَيْرَ الْأُمُورِ الْدِينِيَّةِ » ، [صفحة

. [٦٩٧ / ٦٩٨]

- ٣٢ -

وتحت عنوان : (أسباب عظمة العرب) ، بدأ (لوبيون) بقوله :

« ونذكر على رأس هذه العوامل التي ندرسها ، ذلك العامل الذي توحدت بفضلـه جميع القبائل العربية المنقسمة ، وهو الدين الذي جاء به محمد ، فقد منح هذا الدين ما كانت تحتاج إليه أمم من المثل الأعلى الذي اكتسبوا به من الحِمَيَّةِ ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله » . [صفحة ٧١٨]

- ٣٣ -

ولقد أتمَّ العرب نصرَهم على الروم لاستعداد كل جنديًّا عربيًّا لبذل نفسه في سبيل دينه :

« كان يمكن أن تُعمي فتوحَ العرب الأولى أبصارَهم ، فيقتربوا من المظالم ما يقتربه الفاحلون عادةً ، ويسيئوا معاملةَ المغلوب . ويُكثِّرُوهُم على اعتناق دينهم الذي كان يرغبون في نشره في العالم ، فلو فعلوا ذلك لتألَّتْ عليهم جميع الأمم التي كانت ، بَعْدَ ، غير خاضعة لهم ، ولا صابهم مثل مأساة الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورياً مؤخراً ، ولكن العرب اجتنبوا ذلك . فقد أدركوا الخلفاء السابقون ، الذين كان عندهم من العبرية ماندر وجوده في دُعاةِ الديانات الجديدة ، أن النُّظم والأديان ليست مما يُفرض قسراً ، فعاملوا ، كما

(٣٩) بسبب المرسوم البابوي الصادر سنة ١٤٧٨ م ، وغياب روح التسامح كلياً ، وسيطرة الحقد والتُّعصُّبُ الأعمى .

- ٤٥ -

رأينا ، أهل سوريَّة ومصر وإسبانية ، وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزئية زهيدة ، في الغالب ، إذا ماقيست بما كانوا يدفعونه فيما مضى ، في مقابل حفظ الأمان بينهم ، فالحق أن الأمم لم تُعرِف فاتحين راحمين متساحجين مثل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم » ، [صفحة ٧١٩] .

« وما جهله المؤرخون من رحمة العرب الفاتحين وتساحهم ، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم ، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتى بعد توالي سلطان العرب عن مسرح العالم ، ونَعَدْ أمر مصر واضحًا على الخصوص ، فلم يستطع الفرس والإغريق والرومانيون الذين استولوا عليها أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها ، وأن يقيموا حضارتهم مقامها » ، [صفحة ٧٢٠] .

- ٣٤ -

وتحت فقرة : (حال الإسلام الحاضرة) ، يعتبر (لوبيون) : ثُقلت قرون على أعيار العرب^(٤٠) ، ودخلت حضارتهم في ذمة التاريخ منذ زمن طويل ، ولا نقول مع ذلك : إنَّهم ماتوا تماماً^(٤١) :

« نرى الآن دياناتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انتشاراً مما كانتا عليه في أنسُر أدوارهم ، فالعربية هي اللغة العامة من مراكش إلى الهند ، ولا يزال الإسلام جاداً في تقدُّمه .

(٤٠) العَقْرُ والعَقْرُ : ظاهر التُّرَاب ، والمُعْجَمُ أعيار ، [اللسان : عفر] .

(٤١) حضارة العرب بجانبها القائدية قائمة باقية ، ولئن تقدم الجانب العلمي عند الغربيين ، فهم اليوم أحوج ما يكون للجانب الروحي والخلقي في حضارتنا العربية الإسلامية ، وهذا ما قامت به السُّويد ، عندما جعلت عام ١٩٨٥ م (عام الإسلام) ، علّها تسعد الفراغ الروحي الهائل في حياتها الاجتماعية .

- ٤٦ -

والسُّهولة العجيبة التي ينتشر بها القرآن في العالم شاملة للنَّظر تماماً ، فالمسلم أيها مرَّ ترك خلفه دينه ، فبلغ عدد أشياع النبي ملايين كثيرة في البلاد التي دخلها العرب بقصد التجارة ، لفاحتين ، كبعض أجزاء الصين ، وإفريقية الوسطى وروسية ، وتمَّ اعتناق هذه الملايين الإسلام طوحاً ، لا كرهاً ، ولم يسمع أن الضَّرورة قبضت يارسال جيوش مع هؤلاء التجار المبشرين العرب لمساعدتهم ، ويتسَع نطاق الإسلام بعد أن يقيمه هؤلاء في أيِّ مكان .

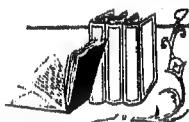
ولقد أصاب مسيود وفال حيث قال : من فضل الإسلام « زوال الأصنام والأنصاب عن الدنيا ، وتحريم القرابين البشرية ، وأكل لحوم الإنسان ، وحفظ حقوق المرأة ، وتقييد مبدأ تعدد الزوجات وتنظيمه .. وتوطيد أواصر الأسرة » ، وجعل الرَّقيق عضواً فيها ، وفتح أبواب كثيرة سهلة لتحريره ، وتهذيب الطَّبائع العامة ، ورفع مستوىها بالصلة والزَّكاة ، وإيواء الغرباء ، وتنقيف المشاعر بالعدل والإحسان ، وتعلم أولياء الأمور أنَّ عليهم من الواجبات ما على الرَّعية ، وإقامة المجتمع على أُسس منظمة ، فإذا حدث أنَّ كان هناك جُورٌ في الغالب ، كما في أيِّ مكان آخر ، وُجد في العدل الإلهي ما يخفف وطأته ، وذلك أنَّ في رجاء الحياة الآخرة ، حيث السعادة وحسن الثواب ، سند لضحايا الدهر أو الظلم ، تلك هي بعض الحasan التي تدلُّ في كلِّ مكان على انتشار الإسلام بين المجتمعات غير المتدَّنة .

وفي الصين ، على الخصوص ، يتقدَّم الإسلام تقدِّماً يقضي بالعجب ، ففي الصين ، حيث اضطُرَّ المبشرون الأوَّريُّون إلى الاعتراف بفشلهم ، يكتب للإسلام أسطع فوز ، وقد رأينا أنَّ عدد أتباع محمد في الصين عشرون^(٤٢) مليوناً ، وأنَّ في مدينة بكين وحدها مئة ألف مسلم » ، [صفحة ٧٣٥/٧٣٤] .

(٤٢) حالياً أكثر من أربعين مليون مسلم .

ويختتم (لوبون) سِفَرَهُ الْقِيمِيْ ، بِالْفَقْرَةِ التَّالِيَةِ :

« لَقَدْ تَمَّ الْكِتَابُ ، فَنَلْخَصُهُ فِي بَعْضِ كَلَامَاتٍ ، فَنَقُولُ : إِنَّ الْأَمْمَ الَّتِي فَاقَتِ
الْعَرَبَ تَمَّاً قَلِيلًا إِلَى الْغَايَاةِ ، وَإِنَّا لَا نَذْكُرُ أَمَمًا ، كَالْعَرَبَ ، حَقَّقَتْ مِنَ
الْمُبْكِرَاتِ الْعَظِيْمَةِ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ مِثْلَ مَا حَقَّقُوهُ ، وَإِنَّ الْعَرَبَ أَقامُوا دِينًا مِنَ
أَقْوَى الْأَدِيَانِ الَّتِي سَادَتِ الْعَالَمَ ^(٤٣) ، أَقامُوا دِينًا لَا يَزَالُ تَأْثِيرُهُ أَشَدَّ حَيَوَيَةً مَا لَأَيَّ
دِينٍ آخَرَ ^(٤٤) ، وَإِنَّهُمْ أَنْشَوْا مِنَ النَّاحِيَةِ السِّيَاسِيَّةِ دُولَةً مِنْ أَعْظَمِ الدُّولِ الَّتِي
عَرَفَهَا التَّارِيَخُ . وَإِنَّهُمْ مَدَّنُوا أُورَبَةَ ثَقَافَةً وَأَخْلَاقًا ، فَالْعَرَوْقُ ^(٤٥) الَّتِي سَمِّيَّ
الْعَرَبُ وَهَبَطَتْ هَبُوطَهُمْ نَادِرًا ، كَالْعَرَبُ ، عِرْقٌ يَصْلَحُ لِيَكُونَ مَثَالًا بَارِزًا لِتَأْثِيرِ
الْعَوْمَلِ الَّتِي تَهْمِيْنَ عَلَى قِيَامِ الدُّولَ وَعَظِيمَتِهَا وَانْخِطَاطِهَا » ، [صَفَحةُ ٧٣٦] .



(٤٣) لَمْ يَقُمِ الْعَرَبُ دِينًا مِنْ أَقْوَى الْأَدِيَانِ الَّتِي سَادَتِ الْعَالَمَ ، اللَّهُ أَنْزَلَهُ وَحْيًا عَلَى قَلْبِ نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَشَرَهُ الْعَرَبُ دُعَوةً وَجَهَادًا .

(٤٤) وَهُوَ مَا يَزَالُ أَكْثَرَ الْأَدِيَانِ اِنْتَشَارًا فِي الْعَالَمَ ، حَسْبَ إِحْصَاءَاتِ مَكْتَبِ اِنْتَشَارِ الْأَدِيَانِ وَالْعَقَائِدِ في
سُوِيْسِرَا ، لِذَلِكَ يَسِّيَّهُ الْأُورُبِيُّونَ : (الَّذِينَ الزَّاهِفُ) ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْجَهُودِ الْهَائِلَةِ - مَا لَا
وَرْجَالًا وَدُولًا - الَّتِي يَبْذِلُهَا التَّبْشِيرُ فِي الْعَالَمِ لِلوقوفِ فِي وَجْهِ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ .

(٤٥) أَيْ : النُّوعُ ، انْظُرْ إِلَى الْمَاخِشِيَّةِ رقم : ٢١ فِي هَذَا الْفَصْلِ .

كتابُ
حضارةُ العرب
وَصُفُّ وَعَرْضٌ

* « ولم يقتصر فضل العرب في ميدان الحضارة على أنفسهم ، فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب ، والشرق والمغرب مدينان لهم في قلنهما ، ولم يتتحقق لأمة فيها ما للعرب من النفوذ » .

[حضارة العرب ، ص ٢٩] .

ألف العلامة الدكتور غوستاف لوبيون كتابه القيم سنة ١٨٨٤ م ، وترجمه عن الفونسيية الأستاذ الفاضل عادل زعير سنة ١٩٤٥ م .

والكتاب في طبعته العربية (الطبعة الثالثة^(١) : ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م) يقع في سبع مئة وأربع وثمانين صفحة من القطع العادي ، ويضم مئتين وخمس صور^(٢) ، وثلاث خرائط .

(١) الطبعة الأولى : ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

الطبعة الثانية : ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

الطبعة الثالثة : ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، وهي من أجدود الطبعات ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

(٢) يذكر لوبيون في مقدمته (الصفحة ٥١ من الطبعة الثالثة - العربية) أنَّ في الكتاب ٣٦٠ صورة ، ولعل الأستاذ زعير اختار منها ٢٠٥ صور فقط وزينها هذا الكتاب بعضها .

مقدمة المترجم للطبعة الثانية من الصفحة ٢ إلى الصفحة ١٠ ، وما جاء فيها :

« يظهر هذا الكتاب للعالم بداعاً في درس حضارة العرب درساً شاملأً ، ويبدو خير كتاب عن هذه الحضارة ، وذلك في بابه وروحه ومناحيه ، وقوّة التحليل فيه ، ووصول لوبون إلى مانشده فيه من الأهداف الاجتماعية والأدبية والسياسية » .

« جاء فيما نشر في مجلة (الرسالة) المصرية : ظهر كتاب حضارة العرب ، والشبيبة العربية حائرة لضعفٍ في إيمانها ويعوج في تربيتها ، ووهنٍ في ثقافتها ، وعجمة في لغتها ، ويسار من أمّتها ، وخجل من ماضيها ، وغوض في حاضرها ، وخوف من مستقبلها ، أجل ، ظهر هذا الكتاب النّفيس ليقول بلسان الأجنبي ، لضعيف الإيمان : هذا هو الصخر من عظمة الأجداد فاين عليه إيمانك الوطني الضّاوي المزيل ، ويقول لليأس : من كان لأمته مثل هذا الماضي المشرق اللامع ، لا يمكن أن يتسرّب اليأس في قلبه ، إلا إذا كانت قد حققت عليه اللعنة ، ويقول للخجل من أمته الذي لا يحذثك إلا وهو يخلط العربية بالفاظ من لغات متعددة : إنك من شعب لم تعرف البشرية أبل منه ولا أشرف ، وليرقول للوجل من الحاضر والخائف من المستقبل : إن الخوف هو لعنة الحياة ، وإن الشك في الانتصار هو الهزيمة العابسة النكراء » .

« وجاء فيما نشر في مجلة (اليقظة) الشاميّة : إننا إذا قلنا إن لوبون قد أُنْصَفَ العَرَبَ فَلَا نَكُونَ قد أُنْصَفَنَا لَوْبُونَ نَفْسَهُ ، وأَجْدَرَ بِنَا أَنْ نَقُولَ : إِنَّهُ الْمِدْرَهُ^(٣) الْبَلِيْغُ الَّذِي رَافَعَ عَنْهُمْ أَمَامَ مَحْكَمَةِ التَّارِيْخِ » والفارس المجلبي في حلبة

(٣) المِدْرَهُ : المُقَدَّمُ فِي الْلُّسَانِ وَالْيَدِ عِنْدَ الْخُصُومَةِ وَالْقَتَالِ ، المَدَافِعُ الْخَطِيبُ الْمُتَكَلِّمُ ، (اللسان : مدر) .

إذاعة فضائهم ، ففي كلّ فصل من فصول الكتاب ترى لوبون الذائد المُناهِج الصّوَالُ الجَوَالُ ... » .

أمّا (مقدمة المترجم) في الطبعة الأولى ، فتتبع على الصّفحات من ١١ إلى ٣٦ ، وهي عرض لمضمون الكتاب ومنهجه . جاء في بدايتها :

« كان من نتائج اصطراع الشّرق والغرب منذ قرون مضت ، وإلقاء العرب الرّعب في قلوب الأوربيين ، أن صار الأوربيون يشعرون بذلة الخضوع للحضارة العربيّة التي لم يتحرّروا من سلطانها إلا منذ زمن قريب . فأخذوا يُنكرون فضل العرب على أوربة وقدينهما ، وأصبح هذا الإنكار من تقاليد مؤرّخي أوربة وكتابها الذين لم يقرووا لغير الإغريق والروماني بمدنيتها ، وساعدهم على ذلك ما عليه العرب والمسلمون من التّأخّر في الزّمن الأخير ، فلم يشاووا أن يرّوا للعرب رقيّاً تاريخياً أعظم ماهم عليه الآن ، غير ناظرين إلى أن نّجم حضارة العرب أقلّ مندّ أجيال ، وأنه لا يصحّ اتخاذ الحال دليلاً على الماضي . »

ولم تخلّ أوربة ، مع ذلك ، من مؤرّخين أبصروا بالعرب من فضل في تمدنّ أوربة ، فألفوا كتبًا اعترفوا فيها للعرب بما ليس فيه الكفاية .

راغ ذلك المحظوظ العلامة الفرنسي الكبير غوستاف لوبون ، وهو الذي هدّته رحلاته في العالم الإسلاميّ ، ومباحثه الاجتاعيّة إلى أن العرب هم الذين مددّوا أوربة ، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبيّ من مرقدده ، وأن يُبديه في صورته الحقيقية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فآخر في سنة ١٨٨٤ كتابه (حضارة العرب) ، الذي نُعرض ترجمته على النّاطقين بالضّاد ». .

ثمّ عرض الأستاذ عادل زعيتر فصول الكتاب بإسهام « وأهم النّقاط التي أنصف لوبون بها العرب وحضارتهم ، ويختتم قائلاً :

« فن درس كتاب (حضارة العرب) وإنعام النظر فيه يتبيّن للقارئ أن

العلامة غوستاف لوبيون سلك في تأليفه طريقاً جديداً لم يسبقه إليه أحد ، وأنه حاول فيه بعث حضارة العرب ، من مرقدها وإظهارها للملأ على وجهها الصحيح .

ولم يتألّ العلامة لوبيون جهداً في درس حضارة العرب مستنداً إلى أهم المؤلفات التاريخية ، وإلى مشاهداته الشخصية ، فجاء كتابه جامعاً للكثير مما في تاريخ حضارة العرب من العظات والعيّر ، وقد أكثر بعض كتابنا من الاستشهاد بجمل منه عند بحثهم في تاريخ الحضارة ، فصار من الضروري نقله بأسره إلى اللغة العربية .

وهذا الكتاب صحيح الناحي والغايات في مجموعه ، وهو كغيره من الكتب المهمة ، لا يخلو من هفوات لا تخفي على القارئ ، ولكن هذه المفوات لا تخطئ من قيمته العظيمة ، وقد أشرت إلى أهمها في هذه المقدمة » .

لقد أشار الأستاذ زعير إلى نقطتين اثنتين فقط ، وهما :

« لانعتقد أنَّ لوبيون أصاب حين ظنَّ أنَّ من أصول الإسلام النُّظام الأساسي القائل بجمع جميع السلطات في يد سيد مطلق ، وحين عزا الخطاط العرب إلى هذا النُّظام الذي حمل به الناس ، كادعى ، على التمسك بأحكام الماضي الإسلامية غير المطابقة لاحتياجاتهم المتحولة ، وبعد أن أوضح لوبيون أنَّ نظام العرب ديمقراطي ، وأن مبدأ المساواة التامة ساد الجميع بفضله . وأن الفقهاء ساروا على المبدأ (لا ينكرون تغيير الأحكام بتغيير الأمكنة والأزمان) ، وأن المسلمين في عصر خلفاء بغداد وقرطبة الزاهر كانوا يعلمون ، بما يأتونه من ضرائب الاجتهاد ، كيف يُوفّقون بين تلك الأحكام واحتياجات الأمم التي انتعلتها ، كان من الخطأ ذهابه إلى أن نظام الحكم المطلق هو من أصول الإسلام » [صفحه ١٩] .

والنقطة الثانية التي أشار إليها الأستاذ المترجم ، هي :

« واعترف لوبون للعرب بظهور رجال عظاء منهم كما تشهد بذلك اكتشافاتهم ، ولكن أبدى ارتياه في ظهور عباقرة منهم كنيوتون ولاينتزر ، فنعت ذلك هفوة من العلامة لوبون الذي ذكر في غير موضع أن لافوازيه مدين لعلماء العرب في علم الكيمياء ، وأن كيبلر وكوبرنيك مدينان لعلماء العرب في علم الفلك مثلًا ... فإذا كانت الحضارة العامة سلسلة حلقات ، وكانت حضارة العرب من أهم تلك الحلقات ، كان من المتعذر ظهور نيوتن ولاينتزر وغيرها من أركان حلقة الحضارة الحديثة بدونها ، والفضل للمتقدم » ، [صفحة ٢٤] .

لقد أحصينا أكثر من خمسين هفوة وخطأ في : (حضارة العرب) ، وهي ذات أهمية كبيرة . خصوصاً فيما تعلق منها بالقرآن الكريم والعقيدة . كثنا نتفى من الأستاذ زعير ، وهو عالم فاضل واسع الاطلاع ، ولا تفوته معرفة المفهومات والأخطاء ، أن يتبه إلية ، ويحذر منها ، فضلاً عن تفنيدها ورفضها في هامش الكتاب .

أما مقدمة المؤلف ، فهي على الصفحات من ٣٧ إلى ٥٢ : « وبالعرب بدأت ، وسبب ذلك أن حضارتهم من الحضارات التي اطلعت عليها في رحلاتي الكثيرة أحسن مما اطلعت على غيرها ، وهي من الحضارات التي كمل دورها وتتجلى فيها مختلف العوامل التي أوضحتنا سرّها في ذلك الكتاب ، وهي من الحضارات التي نرى الاطلاع على تاريخها مقيداً إلى الغاية وقد جهله الناس تقريراً ..

كلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ، ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة ، ولسرعان مارأينا أنَّ العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين ، وأنَّ جامعات الغرب لم تعرِف لها ، مدة خمسة قرون ، مورداً عالياً سوى مؤلفاتهم ، وأنهم الذين مددُوا أوربة

مادةً وعقلاً وأخلاقاً ، وأنَّ التَّارِيخ لم يُعْرِف أُمَّةً أَنْتَجَت مَا انتَجُوهُ في وقت قصير ، وأنَّه لم يَفْقُهُمْ قومٌ في الابتداع الفنِّي .

وتأثير العرب عظيم في الغرب ، وهو في الشَّرق أَشَدَّ وأَقْوى ، ولم يَتَّفَقْ لِأَمَّةٍ مَا اتَّفَقَ للعرب من النُّفوْذ .. الغربُ ولِيدُ الشَّرق ، ولا يزال مفْتَاحُ ماضِي الحوادث في الشَّرق ، فعلى العلَّامَةِ أَنْ يبحثوا عن هَذَا المفتاح فِيهِ » .

« وَنَحْنُ إِذْ نَخْتِمُ هَذِهِ الْمَقْدِمَةِ نُلْخَصُ بِمَا يَأْتِي الْمَنَاهَجُ الَّذِي اتَّبَعْنَاهُ فِي وَضْعِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَالَّذِي تَسْتَعِيْهُ فِيمَا نَوَّلْنَاهُ مِنْ تَوَارِيْخِ الْمُحَضَّرَاتِ ، فَنَقُولُ :

مِنَ الْمَبَادِئِ الْعَامَّةِ : الْوَجُوبُ فِي وَقْعِ الْحَوَادِثِ التَّارِيْخِيَّةِ ، وَالصَّلَةُ الْوَثِيقَةُ بَيْنِ الْحَوَادِثِ الْمَاضِيَّةِ وَالْحَوَادِثِ الْمَاضِيَّةِ .

وَمِنْ مَوَادِ التَّأْلِيفِ : آثارُ الشُّعُوبِ الَّتِي هِي مَوْضِيُّ الدُّرْسِ وَتَصْوِيرُهَا تَصْوِيرًا صَادِقًا ، وَوَصْفُ الْعِرْقِ جَسماً وَعُقْلَا ، وَالبَيْئَةُ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا الْعِرْقُ ، وَالْعِوَافِلُ الَّتِي خَضَعَ لَهَا ، وَتَحْلِيلُ لِعِنَاصِرِ الْحَضَارَةِ ، أَيُّ لِلَّظُومِ وَالْمُعْقَدَاتِ وَالْعِلُومِ وَالآدَابِ وَالْفَنُونِ وَالصَّنَاعَاتِ ، وَتَارِيْخُ لِتَكْوِينِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْعِنَاصِرِ .

وَإِذَا أَصَابَنَا التَّوْفِيقُ فِي عُرْضِ صُورَةٍ وَاضْحَىَّةٍ عَنِ الْعَصْرِ الَّذِي نَرَغَبُ فِي بَعْثِهِ ، مُسْتَعِينِينَ بِتَلْكَ الْمَوَادِ وَالْمَبَادِئِ ، فَإِنَّا نَكُونُ قَدْ نَلَّنَا مَا نَتَمَّنِي » .

ثُمَّ تَبْدِأُ مَادَّةُ الْكِتَابِ الْعُلَيَّةِ ، وَهِيَ ضَمِّنُ سَتَّةِ أَبْوَابٍ :

☆ الْبَابُ الْأَوَّلُ : (البَيْئَةُ وَالْعِرْقُ) ، مِنَ الصَّفَّحَةِ ٥٣ إِلَى ١٢٥ ، وَيَضْمُونُ هَذَا الْبَابَ ثَلَاثَةُ فَصُولٍ :

- ١ - بَلَادُ الْعَرَبِ .
- ٢ - الْعَرَبِ .
- ٣ - الْعَرَبُ قَبْلَ ظَهُورِ مُحَمَّدٍ - عَلِيُّهُ اللَّهُ أَعْلَمُ .

☆ الباب الثاني : (مصادر قوّة العرب) ، من الصفحة ١٢٧ إلى ١٨٢ ،
ويضمُ هذا الباب ثلاثة فصول أيضاً :

١ - محمد - عليه السلام - نشوء الدولة العربية .

٢ - القرآن [الكريم] .

وفي هذين الفصلين أكثر المفهومات والأخطاء التي وقع فيها الدكتور
لوبيون .

٣ - فتوح العرب .

☆ الباب الثالث : (دولة العرب) ، من الصفحة ٤١٧ إلى ٤١٣ ، ويضمُ هذا

الباب ثانية فصول :

١ - العرب في سوريا .

٢ - العرب في بغداد .

٣ - العرب في بلاد فارس والهند .

٤ - حال مصر حين الفتح العربي .

٥ - إفريقية الشّمالية قبل الفتح العربي .

٦ - العرب في إسبانيا .

٧ - العرب في صقلية وإيطالية وفرنسا .

٨ - اصطدام النّصرانية والإسلام - الحروب الصليبية .

☆ الباب الرابع : (طبائع العرب ونظمهم) ، من الصفحة ٤١٩ إلى ٥٢١ ،

ويضمُ هذا الباب خمسة فصول :

١ - أهل البدو ، وأهل الأرياف من العرب .

٢ - عرب المدن - طبائعهم وعاداتهم .

٣ - نظم العرب السياسية والاجتماعية .

٤ - المرأة في الشرق .

٥ - الدين والأخلاق .

☆ الباب الخامس : (حضارة العرب) ، من الصفحة ٥٢٣ إلى ٦٩٠ ، ويضمُ
هذا الباب عشرة فصول :

١ - مصادر معارف العرب وتعليمهم ومناهجهم .

٢ - اللغة والفلسفة والأداب والتاريخ .

٣ - الرياضيات وعلم الفلك .

٤ - العلوم الجغرافية .

٥ - الفيزياء وتطبيقاتها .

٦ - العلوم الطبيعية والطبية .

٧ - الفنون العربية ، الرسم والحرف والفنون الصناعية .

٨ - فن عمارة العرب .

٩ - تجارة العرب ، صلاتهم بختلف الأمم .

١٠ - تمدن العرب لأوربة ، تأثيرهم في الشرق والغرب .

وهذا الفصل العاشر من أجود ما كتب الدكتور لوبون في كتابه :
(حضارة العرب) .

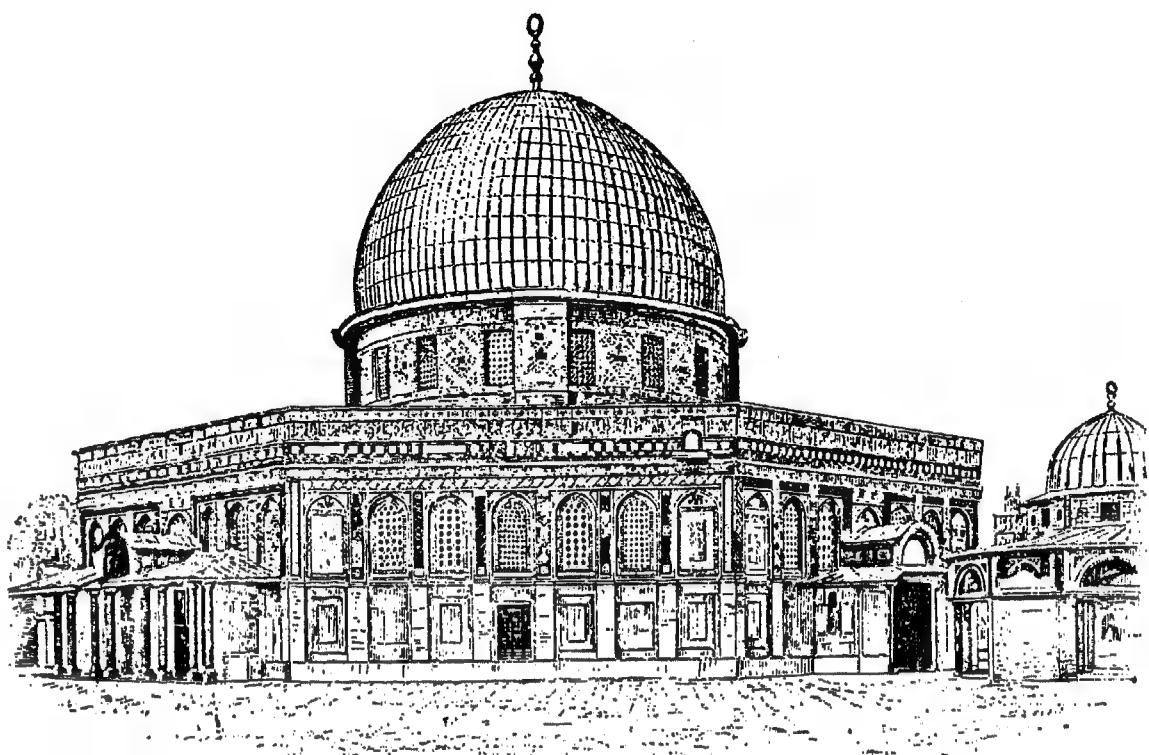
☆ الباب السادس : (الخطاط حضارة العرب) ، من الصفحة ٦٩١ إلى ٧٣٦ ، ويضمُ هذا الباب فصلين فقط :

١ - ورثة العرب ، تأثير الأوريبيين في الشرق .

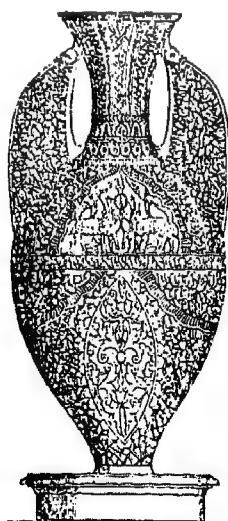
٢ - أسباب عظمة العرب وخطاطهم (حال الإسلام الحاضرة) .

☆ ثم المصادر والفالهارس ، من الصفحة ٧٣٧ إلى ٧٨٤

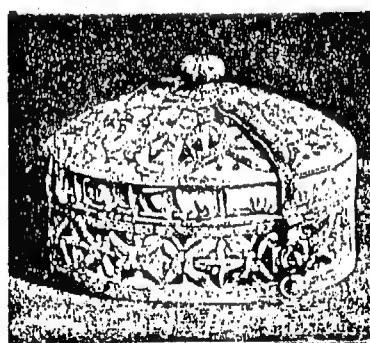
☆ ☆ ☆



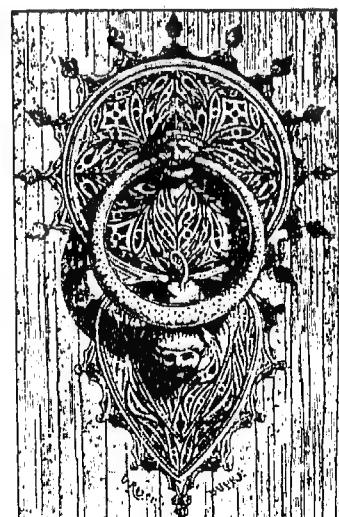
مسجد عمر في القدس (من صورة التقطها المؤلف)



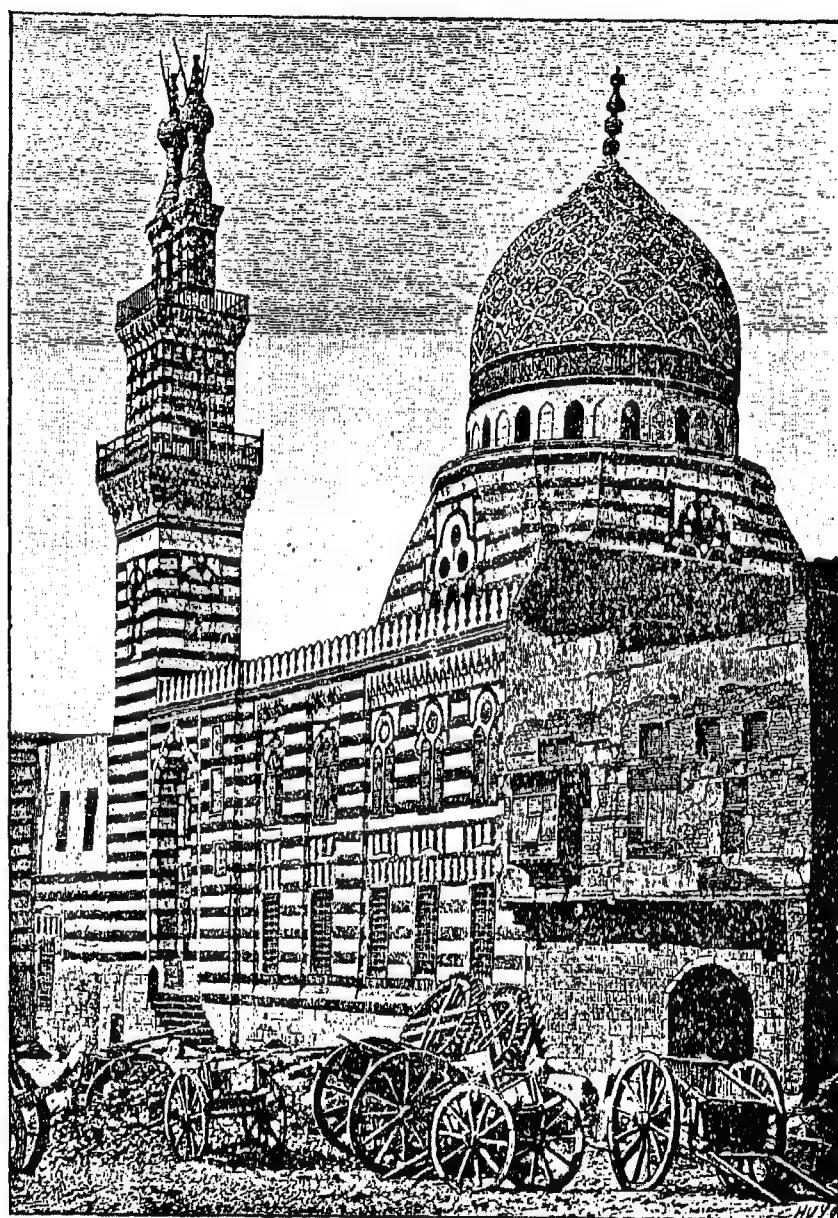
إناء عربي مأخوذ من قصر الحمراء
(كما جاء في صورة قدية)



صندوقي صغير مصنوع في قرطبة من العاج
المرصع ، وذلك في القرن العاشر من الميلاد
(متحف كلينينغر)
(من صورة فوتوغرافية التقطها شارل رلسا)



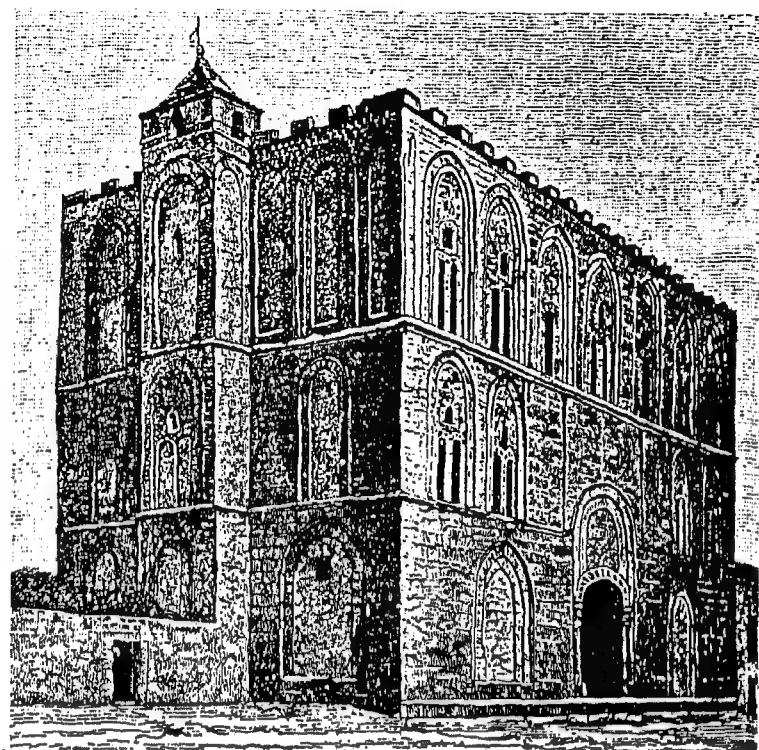
مدق باب كتدرائية طركونة
(طراز إسباني عربي)



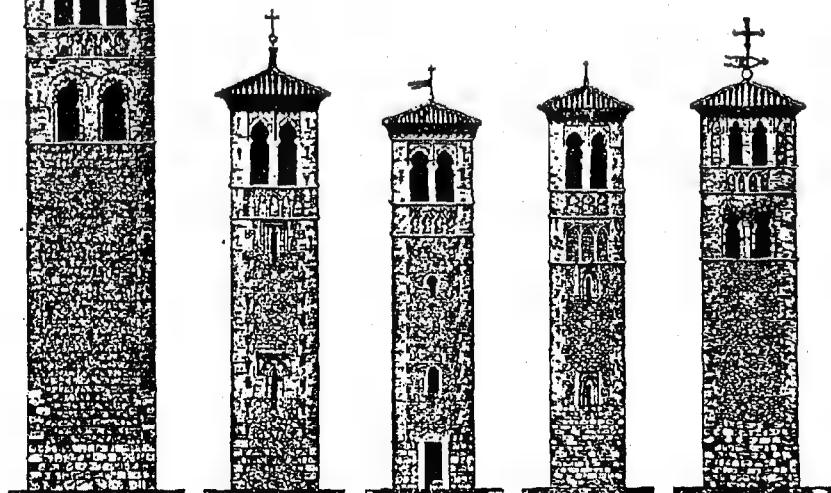
مسجد آخر في القاهرة (من صورة فوتوغرافية)



برج لا جيرالدا (برج لعبة الهواء) في إشبيلية (من تصوير دوبرانغيه)



مقدم قصر العزيزة العربي في صقلية (من صورة فوتوغرافية)



أبراج عدة كنائس في طليطلة أقيمت تقليداً لآذن عربية قديمة

الأخطاء والهفوات

★ إنَّ حُبَّ غُوستاف لوبون للعرب وحضارتهم مشهود معروف ، لذلك كانت الأخطاء والهفوات التي وقع فيها في كتابه (حضارة العرب) ناتجة عن حُسْنِ نِيَّةٍ ، ويبيّن كتابه كتاباً نفيساً رائعاً ، ذات قيمة فريدة في موضوعه .

مواقف الدكتور غوستاف لوبون في كتابه النّفيس : (حضارة العرب) ، لا شكَّ بعيدة عن التّعصب والتّشنُّج ، وبعيدة عن الحقد والكراهيّة ، وبعيدة جدًا عن الشّتائم والسباب .

وهو من حقّه أن يقول ما يعتقد ، ويقرّر ما أوصله إليه عِلْمُه ، ونحن من حقّنا تناول أقواله وما قرّره بالتحليل والنّقد والدّراسة والتعليق والتّصويب والرّدّ ، لأنَّ سكتنا عن الأخطاء والهفوات والهنات يعني تسليماً ضمّنياً لها ، وإلاً أين تفنيدها إن كانت باطلة ، وأين تصويبها إن كانت خاطئة ؟ !

ونحن في هذا الفصل الأهم من هذا الكتاب : (غوستاف لوبون في الميزان) ، سنفصل أخطاء هفوات الدكتور لوبون ، مع تأكيدها على أنَّه ماقدمها عن سوء نِيَّةٍ ، وبالتالي لم تصدر عن خبث طويّة ، ولا عن انتقام أو ضغط كنسّي ، فحبُّ الرّجل لحضارتنا كبير عظيم . ودفاعه عن العرب معروف معلوم . فحسن النّيَّة وصفاؤها وراء عمله النّفيس : (حضارة العرب) .

ومعظم أخطاء الرجل وهفواته مردها عدم استيعابه لظاهرة الوحي ، مع عدم إدراكه لبعض الأمور المتعلقة بالعقيدة الإسلامية ، ومع ذلك يبقى كتابه : (حضارة العرب) كتاباً ممتازاً رائعاً في موضوعه .

وبعد ، هذه أخطاء (حضارة العرب) وهفواته ، لا حسب موضوعاتها ، بل حسب تسلسل ورودها على صفحات الكتاب^(١) :

- ١ -

يقول الدكتور لوبيون عن نبينا الكريم ﷺ :

« حقاً أنَّ من أتعجبُ التَّارِيخَ أَنْ يَلْبَيَ نَدَاءَ ذَلِكَ الْمُتَهَوْسِ الشَّهِيرِ شَعْبَ جَامِعِ شَدِيدِ الشَّكْيَةِ لَمْ يَقُدِّرْ عَلَى قَهْرِهِ فَاتَّحْ ، وَأَنْ تَنْهَارِ أَمَامِ اسْمِهِ أَقْوَى الدُّولِ وَأَلَا يَزَالْ يَمْسِكُ ، وَهُوَ فِي جَدَّتِهِ ، مَلَيْنَ مِنَ النَّاسِ تَحْتَ لَوَاءِ شَرْعِهِ .

ويجب احترام أعظم مؤسسي الأديان والدول ، وإن وصفهم العلم الحديث بذوي الهوس . وحق له ذلك ، ففيهم تجلّى روح الزَّمن وعصريةِ القوم ، وبليسانهم تنطق أجيال من الأجداد راقدةً في ثنايا العصور ، والخيالات ، وإن كانت كلَّ ما يأتي به هؤلاء المبدعون ، هي الْتِي أوجَدَتْ كياننا الحاضر ، ولا تقوم بغيرها حضارة ، ولم يكن التَّارِيخُ سُوكَصَ للحوادث الْتِي أقامَ بها الإنسان خيالاً فعبدَهُ ثُمَّ هدمَه » : [صفحة ٣٩ و ٤٠] .

« ويجب عَدُّ مُحَمَّدَ مِنْ فَصِيلَةِ الْمُتَهَوْسِينَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَالَمِيَّةِ كَأَكْثَرِ مُؤْسِسِيِ الدِّيَانَاتِ ، وَلَا كَبِيرَ أَهْمَيَّةِ لَذَلِكَ ، فَلَمْ يَكُنْ ذُوو الْمَزَاجِ الْبَارِدِ مِنَ الْمُفَكَّرِينَ هُمُ الَّذِينَ يُنْشِئُونَ الدِّيَانَاتَ وَيَقُودُونَ النَّاسَ ، وَإِنَّا أُولُو الْهَوْسِ الَّذِينَ مَتَّلَوْا هَذَا الدُّورَ ، فَتَقَى يَبْحَثُ فِي عَمَلِ الْمُفَتوَّنِينَ فِي الْعَالَمِ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ ، فَهُمُ الَّذِينَ

(١) إلا إذا كانت مكررةً متباينةً ، فإنَّها ترد مع ورودها في المرة الأولى .

أقاموا الأديان ، وهدموا الدول ، وأشاروا الجموع وقادوا البشر ، ولو كان العقل ، لا الموس » هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر » ، [صفحة ١٤٥] .

« وكانت هنالك أخطار أخرى أعظم من تلك تهدىء بخنق عمل محمد في مهده ، فقد ظهر متھوسون كثيرون هزّهم ماناله محمد من التوفيق فرأوا أن يدعوا النبوة أيضاً ، فاستطاع أحدهم أن يجعل سكان نصف اليمن من أتباعه^(٢) ، ولولا قتل بعض المؤمنين^(٣) إياه لخسر الإسلام أحسن ولاياته ، واقتصر متھوس آخر على إضافة بعض السور إلى القرآن^(٤) ، وبلغ من النفوذ ما يقرب من نفوذ الحلفاء الأولين لزمن معين ... » ، [صفحة ١٧٣] .

يستعمل الدكتور لوبيون كلمات كأنها تنتهي ليبقى في مكانة العالم المنصف بعيداً عن استعمالها ، من ذلك كلمة الموس^(٥) ، وخصوصاً حين يتحدث عن الرسول العظيم عليه السلام ، وذلك لأن مهداً عليه السلام كان يجد في إيمانه وفي عقيدته وفي رسالته ، ما يحفزه على اقتحام كلّ عائق ، ولم يكن يجد ذلك فيما سماه لوبيون (ھوسه) ، ومثل هذه الكلمة تقال لمن تدور في نفسه وأفكاره أمور غير واضحة ، وتظهر بانفعالات مختلفة ، أمّا رسول الله عليه السلام فما عرف في حياته قبلبعثة وبعدها إلا باتزان وحسن تفكير ، وبعد نظر ، ثم جاءه الوحي السماوي ، فقام

(٢) يعني الأسود الغنسي .

(٣) قتله فيروز الديلمي ، قال عليه السلام : « إن الله قد قتل الأسود العنسي ، قتله رجل مبارك من أهل بيته مباركين ، قتله ييد رجل من إخوانك » وقاموا وصدقاً » ، قيل : ومن هو ؟ قال عليه السلام : « فيروز ، فاز فيروز » ، [الطبرى ٢٢٧/٣ ، الكامل في التاريخ ٢٢٦/١ ، البداية والنهاية ٢٢٠/٢ ، ٢١٠/٦] .

(٤) مسلمة الكذاب في الجاما ، لم يضف شيئاً إلى القرآن مطلقاً ، بل حاكاه ، فكانت مهزلة ، سخر منها المسلم وغير المسلم ، [الكامل في التاريخ ٤٤٢/٢ ، ٢٤٤/٢ ، البداية والنهاية ٢٢٦/١ ، الطبرى ٢٨٤/٣ ، الاكتفاء ١٧/٢] .

(٥) انظر هوس في اللسان : طرف من الجبون ، وكذلك القاموس المحيط ، وختار الصحاح ، وأساس البلاغة .

بتأدية رسالته كما أرادها الله تعالى أن تؤدي ، وامتلاً قلبه تصدقًا بها ، وإيماناً وإخلاصاً في تنفيذها حسب أمر الله له ، فهل يصح أو يليق لمؤرخ منصف أن يكتب عن محمد ﷺ ، صاحب الأثر العميق في أمته والبشرية جماء ، كما يكتب عن أناس دفعتهم أنايّاتهم وعصبيّاتهم ومطامعهم إلى ادعاء نبوة كاذبة ، مثل الأسود الغنسي ، أو طليحة بن خويلد الأسدى ، أو مسلية الكذاب ؟

إن بعض المستشرقين يتحدثون عن محمد ﷺ وكأنه يتحدث عن بطل مصلح أو قائد فاتح ، أو مبدع موهوب ، ويغفلون أو يتغافلون عن (الظاهرة القرآنية) أو عن (الوحي والنبوة) ، وعندما يجدون أنفسهم قبالة يقولون : القرآن تخيلات في نوبات صرع^(١) ، مع أن المصروعين حافظتهم معطلة في نوبات صرعهم . ومحمد ﷺ حافظته أجود ما تكون عند هبوط الوحي ، وهم لا ينكرون الوحي ظاهرة ، لقد اعترفوا به للأنبياء .

فلا هوس ، ولا ضرع .. ولو نزل القرآن العظيم اليوم ، بعد اكتشافات العلم المذهلة ، مع سبر أغوار الأرض والمحيطات ، والتحقيق في أعماق الكون ، لما اختلفت نظراته إلى الكون ، أو الحياة ، أو الإنسان ، والمكابرة في هذه الحقيقة ، هي مكابرة في المحسوس الملموس ليس غير .

- ٤ -

ويقول الدكتور لوبون :

« ولا تُفضل مكّة على المدن العربية الأخرى بغير نظامها الكبير » ،

[صفحة ٦٩] .

« ويقع المعبد الصغير ، الكعبة ، في باحة الحرم المكي » ، [صفحة ٧٠] .

« ولا نعلم نصبًا كرمه الناس زمانًا طويلاً كالحجر الأسود » ، [صفحة ٧١] .

(٦) وهذا ما ادعاه : لامانس ، ونولدكه أيضًا .

أولاً : عالم كبير ، نستغرب أن يقع بهذا الخطأ ، والتصور الخاطئ لوضع مكّة ، فلا يرى بأنّها تفضل غيرها من المدن العربية بغير نظامها الكبير ، وربما كان سبب ذلك أنه بعيد عن حياة مكّة الدينية ومكانتها بين العرب حتى قبل الإسلام ، فنفي أنها تفضل أيّة مدينة أخرى بما عرفته منذ نشأتها من قيام أول بيت وضع للناس لعبادة الله ، وقد أقام إبراهيم وإسماعيل قواعد بيت الله الحرام - الكعبة المشرفة - فبقيت ، وما تزال ، عبر تاريخها الطويل مركزاً لعبادة الواحد ، أي مركزاً للتوحيد ، ثم أصبحت قبلة المسلمين ، ومحجاً لهم ، إحياءً لعقيدة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وجاء محمد عليه السلام يؤكّد هذا المعنى ، وهذا الدور العظيم لمكّة المكرمة .

ثانياً : ليست الكعبة معبداً ، وإنما هي بناء حجري في وسط حرم ، هو بيت الله الحرام ، أو البيت العتيق ، ولم تكن الكعبة إلا مركزاً لذلك المعبد ، يرمز إلى وحدانية الله ، يطوف بها المؤمنون لاعبادتها ، ولا تقديساً لحجارتها ، وما نظن عاقلاً يمكن أن يدور في خلده أنَّ الله سبحانه وتعالى أراد تقديس البيت الحرام لحجارته وجدرانه ، إنما القدسية للأمر الإلهي وحده .

ثالثاً : الحجر الأسود ليس نصباً كاصفه لوبون .

النصب : كل ما عيّد من دون الله تعالى ، والجمع أنصاب ، والنصب : الآلة التي كانت تعبد من أحجار ، والأنصاب : حجارة كانت حول الكعبة تنصب قيئهل عليها ، ويذبح لغير الله تعالى ، [اللسان : نصب] .

ومن المعلوم المعروف أنَّ العرب اتخذوا آهتمهم في الجاهلية من أشياء لا تُخصّى ، ومع ذلك لم يروا مطلقاً أنَّ الحجر الأسود كان ضمن آهتمهم ، بل كانت له مكانة خاصة محترمة ، لأنَّه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة .

فالحجر الأسود ، حجر عادي ، يختلف بلونه عن بقية حجارة الكعبة ، لأنَّه

من أُسُسها ، جَعَلْ بِدَايَة لِلطَّوَافِ حَوْلَهَا ، لِيُسْتَطِعُ الْحَاجُ الطَّائِفَ مَعْرِفَةَ عَدْدِ مَرَّاتِ الطَّوَافِ ، فَتَيَّزَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ عَنْ بَقِيَّةِ حِجَارَةِ الْكَعْبَةِ ، وَاعْتَبَرَ مَرْكَزاً لِتَبْيَانِ الطَّوَافِ . وَبَقِيَ الْحَجَرُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَمْ يَتَغَيَّرْ مَكَانَهُ كَمَا أُعِيدَ بَنَاءَ الْكَعْبَةِ أَوْ إِصْلَاحَهَا .

وقَفَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَوْمًا أَمَامَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ . وَقَالَ : « إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقْبَلُكَ مَا قَبَّلْتَكَ » .

فَاسْتَلَامُ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فِي الْحَجَّ لَا يَرْجِعُ إِلَى تَقْدِيسِ الْحَجَرِ ذَاتِهِ ، إِنَّهَا يَرْجِعُ إِلَى اعْتِبَارِ رَمْزِيِّ تَارِيْخِيِّ .

- ٣ -

« وَكَانَ مِنْ دَوَاعِي الْفَخْرِ عِنْدَ الْعَرَبِ تَزْيِينُ الْكَعْبَةِ الَّتِي كَانَ الْيَهُودُ شَدِيدِي التَّعْظِيمُ لَهَا أَيْضًا » ، [صَفَحة١٢٤] ^(٧) .

لَانْدْرِي مِنْ أَيِّ الْمَصَادِرِ اقْتَبَسَ مُؤْرِخُنَا (غُوْسْتَافُ لُوبُونْ) خَبْرَ تَعْظِيمِ الْيَهُودِ لِلْكَعْبَةِ ، وَمَا عَرَفْنَا مُطْلَقاً فِي تَارِيخِ الْيَهُودِ . وَفِي تَارِيخِ الْكَعْبَةِ ، أَيْةٌ صَلَةٌ ، أَوْ عَلَاقَةٌ بَيْنَهُما . وَلَمْ يَكُنْ لِلْيَهُودِ عَبْرَ تَارِيخِ دِيَانَتِهِمْ أَيْةٌ عِبَادَةٌ أَوْ تَقْدِيسٌ أَوْ تَعْظِيمٌ لِلْكَعْبَةِ ، حَتَّى تُورَاهُمُ ^(٨) عِنْدَمَا ذَكَرَتْ إِبْرَاهِيمَ وَهَاجَرَ وَإِسْمَاعِيلَ ، لَمْ تَذَكُرْ أَيِّ كَلْمَةٍ عَنِ الْكَعْبَةِ أَوْ تَقْدِيسِهَا .

(٧) وَيُذَكَّرُ فِي هَذِهِ الصَّفَحةِ ذَاتِهَا [١٢٤] ، أَنَّ إِبْرَاهِيمَ ذَبَحَ ابْنَهُ إِسْحَاقَ ، وَالصَّوَابُ : إِسْمَاعِيلَ ، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، الَّذِي ثَبَّتْ عَلَيْنَا أَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ ، أَحْدَاثٌ وَظَواهِرٌ ، حَقِيقَةٌ لَا يَدْنُو مِنْهَا شَكٌّ أَوْ رِيبٌ مُطْلَقاً .

(٨) سَفَرُ التَّكْوِينِ ، الْفَصْلُ ١١ وَمَا بَعْدَهُ .

لقد اقتصر تاريخ الكعبة على علاقة بينها وبين إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقْبِلُ مِنَ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ☆ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسَلِّمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرَيْتَنَا أُمَّةً مُسَلِّمَةً لَكَ وَأَرَنَا مَنَاسِكَنَا
وَتَبْعِثْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ☆ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتَلوُ عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَزَّكِيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، [البرقة] ١٢٧/٢ .

ثم جدد هذه العلاقة القائمة على عبادة الله وتوحيده ، النبي محمد عليه السلام ، وليس لليهود أية حيلة من قريب أو من بعيد بالکعبه .

أما إن كان لم يوبون يشير بقوله : « التي كان اليهود شديدي التعظيم لها أيضاً » ، إلى جميع من رجالاتهم ، منهم سيدهم حبيبي بن أخطب النضري ، وعظيمهم سلام بن مشكم ، ورئيسهم كنانة بن أبي الحقير ، وهؤذنة بن قيس الوائي .. حين قدموا مكة على قريش ، يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله عليه السلام ، وقالوا : إننا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

قال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحب الناس إلينا من أغاننا على عداوة محمد ، وقال : لكن لأنتم إلا إن سجتم لأهتنا حتى نطمئن إليكم ، ففعلوا ^(٩) .

إذا كان لم يوبون يشير إلى هذه الحادثة ، فقد أخطأ الدلالة ، فالحادثة تدل على سجود وفد اليهود - وهذا يخالف عقيدتهم كلياً - للأصنام ، لاعتقاداً بها ، ولا تعظيمًا للكعبة حيث هذه الأصنام ، بل حقداً على الإسلام وأهله ، ورجاء أن يحققوا ما جاؤوا من أجله ، ألا وهو تأليب قريش والقبائل العربية على النبي عليه السلام ، والسير إلى المدينة المنورة لاستصاله كما زعموا .

(٩) كانت هذه الحادثة عندما جاء اليهود يحرضون قريشاً على قتال النبي عليه السلام ، ونجحوا في جمع القبائل (الأحزاب) سنة ٥ هـ التي أطبقت على المدينة المنورة تريد استصالح الإسلام والمسلمين .

« والحق أن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حان ، وهذا ما عرفه محمد ، وفي الوجه الذي عرفه فيه سر قوته . وهو الذي لم يفکر قط في إقامة دين جديد خلافاً لما يقال أحياناً ، وهو الذي أنشأ الناس بأن الإله الواحد هو إله باني الكعبة ، أي إله إبراهيم ، الذي كان العرب يجلونه ويعظّمونه .

وعلام اتجاه العرب أيام ظهور محمد إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة ، فما حدث من الثور بالآوثان في عهد قياصرة الرومان . حدث مثله في بلاد العرب ، حيث ضفت المعتقدات القديمة ، وفقدت الأصنام نفوذها . ودب الهرم في آهلتها ، والآلة مما يجب أن يهرم » ، [صفحة ١٢٤] .

إن سر قوّة محمد عليه السلام ليس في معرفته بأن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حان . وإنما سر قوته في إيمانه بصدق ما أوحى إليه مستمدًا تلك القوّة من الله ، الذي امتلأ قلب محمد عليه السلام إيماناً به ، وتسلیماً لإرادته ، وتنفیذاً لتعالیه .

وإن الدين الجديد لم يفکر محمد - عليه السلام - بإقامته أو إقامة غيره ، بل ما فکر أثناء تحنته في غار حراء إلا بأن تلك الآوثان والأصنام ، ماهي إلا حجارة لا تضر ولا تنفع ، لا تضر إن تركت ، ولا تنفع إن عُبَدَت ، في غار حراء « كان محمد - عليه السلام - في حالة بُحران » . فكان ينشد السُّكون في تلك الجبال التي كان يذهب فيخلو فيها بنفسه متأملاً في السماء ذات الكواكب ، مُنصلتاً إلى ما كان يسمعه من أعمق أعمق قلبه ، وهو الرجل الأمي الفطري الصادق ، وذلك الصوت هو صوت الحقيقة الأبدية ، الخارج من قلب الأشياء نفسها ، إنه كان يرى تلك الأشياء في عصره على غير استقامة . وقد كان هو لا يطيق غير الحق ، والحق الذي لا جدال فيه ، وكان لا يقدر أن يعيش إلا في علم الحقيقة . وكان يرى أن كل محاوله من الأحوال لم يكن بحق ، فالحياة التي عليها قريش لم تكن حياة صحيحة : متّولين

يعيشون بقوافل للتجارة ، ويرجحون أرباحاً فاحشة ، وبوايد يشنون الغارات ، ولا يعرفون إلا الفوضى ، وأفاقون يفعلون كل ما يخطر ببالهم ، وكل هؤلاء لا يحيون حياة صحيحة ، وينسون أن الأصنام المصفوفة في الكعبة ، ليست إلا معبودات باطلة ، وإن المُبْلِل ذاللّعية الكبيرة لم يكن إلا باطلأ»^(١٠) ، ثم جاءه عَزِيزُهُ الْوَحْيُ يحمل إليه رسالة الله الواحد ، تلك العقيدة التي كان قد دعا إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

أما ما يذكره لوبون ، من أن العرب اتجهوا قبل ظهور محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى وحدة سياسية ودينية ، وثورة منهم على الأوثان ، وأن الأصنام فقدت نفوذها ، فربما كان العكس هو الأصح ، فقد كان العرب في حال من التجزئة السياسية والقبلية يندر مثيلها ، كما كانت الكثرة منهم على قسمٍ بأصنامهم وأوثانهم ، ومن كان على شيء من الوعي قال عنها : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحُكُّ بَيْنَهُمْ فِيهِ يَخْتِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر] ٢٣٩ .

فأين لمس لوبون بوادر الوحدة السياسية والدينية ؟

وأين رأى أوقرأ بوادر الكفر بالأصنام والأوثان لدى عامة عرب الجزيرة ، وقد قامت قريش - والقبائل معها - تقاتل محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ بكل قواها ، وبكل ما يمكن من تعثّره وحشده ، لأن سُفْهَ أحلامهم التي تعبد أصناماً ، وتركع أمام أنصاب ، وتذبح لأوثان ؟

لقد وصل الأمر ببعض قبائلهم إلى الإيمان بنبوة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ودعوته الجديدة ، على أن يترك لهم صنماً يعبدونه ، أو وثنًا يقدسونه .

(١٠) حاضر العالم الإسلامي ٤٧/١

- ٥ -

« وتقول القصة إنَّ مُحَمَّداً سافر مرَّة مع عَمِّه إلى سورِيَّة ، فتعرَّف في بُصْرِي
براهمي نسطوري في دير نصريني ، فتلقَّى منه علم التُّورَاة » ، [صفحة ١٣٠] .

« وتهيأ له - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ - بذلك السَّفَر إلى سورِيَّة والاجماع مرَّة ثانية بالرَّاهب
الَّذِي أطْلَعَه سَابِقًا على علم التُّورَاة ... » ، [صفحة ١٣٠] أيضًا .

ليت الكاتب الكبير غوستاف لوبيون ، لم ينزلق إلى مهاوي المستشرقين الذين
لم يحكمُوا المنطق والعقل والتاريخ عندما أَفْلَغُوا - أو لفَقُوا - هذه الشُّبهة ، ليته
تحرَّى الحقيقة قبل أن يسجِّل تلك العبارات التي تقول بأنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ تعرَّف في
بُصْرِي على راهب نصريني ، وتلقَّى منه علم التُّورَاة .

ونحن نتفَّقُ له ذلك ليبقى في مستوى علَيْهِ رفع ، ولكي لا يحيط إلى
مستوى المستشرقين المبشَّرين الذين لم يتجرَّدوا عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم
المختلفة ، ولم يتخلُّوا عن الأفكار المسبقة ، والذين أصيَّبُوا - عن قصد وتصميم -
بداء الأحكام المسبقة ، هذا الدَّاء الذي استعصى شفاوه على كبار النُّطاسين
الحكماء ، رغم جهودهم العلميَّة المضنية .

فلو تحرَّى (لوبون) الحقيقة ، لعرف أنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ حين رافق عَمِّه
أبا طالب ، كان ولدًا صغيرًا لا تسمح سِنُّه بتلقي كتاب ساوي كبير هو التُّورَاة ،
ولم يكن هذا اللقاء إلا لقاءً عابرًا ، والقصة كانت بين الرَّاهب بحيري
وأبي طالب ، وبوجود رجال القافلة القرشيين « وما دام (لوبون) يتحدَّث عن
القصة ويقرُّ بها ، فعليه أن يؤمن بنبوة مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ - لأنَّ تلك الرواية تقول إن الرَّاهب بحيري عرف في ذلك الولد الصَّغير
- مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ - علامات النُّبوَّة ، وحدَّرَ عَمِّه من كيد يهود ، فهل نأخذ جزءًا من
الرواية ، ونترك جزءًا آخر ؟

وتقول القصة هنا : إنَّه - عليه السلام - تلقى منه علم التَّوراة ، فلماذا لم يتلقَّ منه الإنجيل ، خصوصاً وأنَّ الرَّاهب نَصْراني نسطوري^(١١) ؟ فلماذا قصرت الرواية قولهما على التَّوراة ؟

والأمر الآخر ، لوأنَّه عليه السلام تلقى علم التَّوراة من بَحِيرَى في بُصْرى ، جاء في القرآن الكريم الكثير الكثير مما يخالف العلم الحديث ، كَمَا هي الحال بالنسبة للتَّوراة ، حسب الدراسات الحديثة المستفيضة ، ومنها ما نجده في كتاب الدكتور موريس بوكاي : (دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة) ، علماً بأنَّ الكشوف العلمية الحديثة تكشف كلَّ فترة وأخرى عن صحة اللُّفَقَات العلمية الكونية والطَّبَّية .. الَّتِي وردت في القرآن الكريم ، كُلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ القرآن الكريم كتاب الله المُنْزَل على محمد عليه السلام . وليس من عند بَشَرٍ .

(فلتلقى منه علم التَّوراة) ، تزييف يدلُّ على ما كان لليهود من يدٍ في اختلاقه ، وصياغته . بالشكل الذي يناسب مصالحهم ، ويحقق أغراضهم ، ويظهر هذا التَّزييف اليهودي أكثر في اللُّعب بروايات التاريخ في العبارة التالية ، التي أوردها (لوبون) في الصفحة ذاتها ، والَّتِي تقول : إنَّ مُحَمَّداً عليه تهیأ له لقاء الرَّاهب مَرْءَةً أخرى في سفره إلى سوريا ، وهذه دسيسة أخرى ، حيث تجمع روايات التاريخ الَّتي جاءت على ذكر تفاصيل سيرة محمد عليه السلام ، على أنَّه لم يقم بزيارة إلى بلاد الشَّام بعد زيارته الأولى وهو صغير مع عمِّه ، إلا بزيارة واحدة فقط ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، بتجارة للسيدة خديجة بنت خويلد ، وكان يرافقه فيها (ميسرة) أحد غلمانها ، ولم يذكر في هذه الرَّحلة الَّتي

(١١) النَّاطِرة : ينسبون إلى نسطور Nestorius [نحو ٢٨٠ - ٤٥١ م] ، بطريرك القسطنطينية سنة ٤٢٨ م ، قال بأقوالهن في السيد المسيح ، وأنكر على مريم لقب أم الله ، حرمه بجمع أفسوس سنة ٤٣١ م ، يقيم الناطرة في العراق ومنهم طائفة تقيم في الهند وإيران ، [محاضرات في النصرانية ، ص ١٥٦] .

استغرقت أَيَّاماً ، أَيَّ شِيءٍ عن لقاء جديد مع هذا الرَّاهب ، لَأَنَّهُ لقى وجه رَبِّه
منذ سنوات ، وأضحت عظامه في الشَّرِّي رميًّا .

ولنفرض جدلاً - لا حقيقة - أَنَّهُ لقيه لساعات ، فهل أَعْطاه خلالها رسالة
أَكْثَرَ مَا عَنْهُ ؟ وهل بقيت تلك الرِّسالَة ، أو العلوم ، كامنة خمسة عشر عاماً ،
لتظهر بعد ذلك على شكل رسالَة جديدة ، تختلف اختلافاً كبيراً بتشريعاتها
الدِّينيَّة والاجتِماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة ، عن تلك الَّتِي كان يدعُوها ذلك
الرَّاهب النَّسْطوري وأمثاله ؟

وأين نجد اللقاء بين ما كان عند تجحيرِي وأمثاله من خلافات حول طبيعة
المسيح عليه السَّلام ، وبين ما جاء في رسالَة محمد ﷺ عن المسيح عليه السَّلام ،
وعن كونه عبد الله ورسوله ؟ وأين هي تعاليم الإسلام وتشريعاته في جوانب
الحياة المختلفة مما كان عند أصحاب التوراة والإنجيل ؟

يقول (كارادوفو)⁽¹²⁾ عن قصة تجحيرِي الرَّاهب : خرافة ، وكيف لا تكون
خرافة القصَّةُ الْتِي تجعل تجحيرِي الرَّاهب الأَعجميَّ ينطق بثل القرآن - الكريم -
الذِّي عجزت عنه مصاقع⁽¹³⁾ خطباء العرب ، وفحول شعرائهم أَفْصَح وأَلْبَغ
ما كانوا .

وما يثبت خرافة : فتلقى محمد ﷺ من تجحيرِي الرَّاهب علم التوراة ، النَّقاط
المختصرة التالية⁽¹⁴⁾ :

(12) مفكرو الإسلام ، [حاضر العالم الإسلامي] ٤٠/١ .

(13) المِصْقَعُ : البلاغ الماهر في خطبته ، والصَّقْعُ : البلاغة في الكلام والوقوع على المعاني ، [اللسان : صفع] .

(14) لأنَّا عالجنا الأمر بشكل مفصل في كتاب : (الإسلام في قفص الاتهام) .

- ١ - لماذا لم يجمع بحيري قومه الروم من حوله ، بعد أن يدعى هذه العلوم التي قدّمها محمد عليه السلام ، فيغلب من سواهم ؟
- ٢ - وهل بحيري رئيس أكاديمية لتخريج أنبياء ، وكتب معجزة ؟
- ٣ - ولماذا لم يخرج عشرات الأنبياء ، واكتفى بواحد فقط ؟
- ٤ - زمن الزيارة قصير جداً ، وحجم القرآن الكريم كبير ، فلو اختار بحيري شاباً قارئاً متعلماً لتسهل المهمة المزعومة !!
- ٥ - وما العلاقة بين محمد عليه السلام وبحيري ؟ مانوعها ؟ ومتى بدأت ؟ ولم اختار بحيري غلاماً من مكة ؟
- ٦ - لقد كان رجالات القافلة القرشيون خلال اللقاء ، فلوا عطاه (علم التوراة) ، لقالوا ذلك لقريش خاصة ، والعرب عامة ، عندما أعلن عليه نبوته !!
- ٧ - وأحداث ما بعد المجرة ، هذا السيل المزدحم من الأحداث ، أين بحيري منها ؟
- ٨ - والإعجاز الغيبي والعلمي الذي نراه في القرآن الكريم ، فوق طاقة البشر وقدرتهم .
- ٩ - ومن أين للأعمامي كبحيري هذا الإعجاز اللغوي ؟
- ١٠ - والتحدي قائم لكل البشر ، وفي كل زمان ومكان ، والباحث عن (هوية النص القرآني) ، علمياً وفكرياً ، ويتجرّد موضوعياً ، بعيداً عن : (داء الأحكام المسبقة) ، يجد نفسه أمام نصٍّ موحى ، إلهيٌّ ساواويٌّ ، نزل على قلب المصطفى محمد بن عبد الله عليه السلام .

ويجد الباحث في هذه القصة ، أن بحيرى هو المستفيد الأول والأخير من لقائه بمحمد عليه السلام ، فلولا هذا اللقاء ، لاندثر اسمه كا اندرست أسماء ألف الرهبان من قبله ، ومن بعده .

هذا ... وإرجاع القرآن الكريم إلى عناصر يهودية أو نصرانية أمر قديم جديد ، قاله كثيرون من المستشرقين ، ورددَه كلُّ البشرَين .

قاله جولدتسهير : « فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخبًا من معارف وأراء دينية » عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثيراً عميقاً .. ^(١٥)

وتکلم بلاشير عن التشابه مع القصص اليهودي والمسيحي ^(١٦) .

وقرره فيليب أرنجي : كان محمد في المدينة تلميذاً لليهود ، وهم الذين كونوه ^(١٧) ..

وقاله يوليوس فلهاؤزن ، والاب لامانس ، والدكتور بروز أستاذ الفقه الإنجيلي في جامعة بيل ، وسيديو : « أللهم محمد المبادئ اليهودية والنصرانية فأقام ديناً بعيداً عن الخوارق .. ^(١٨) » .

أما شاخت في كتابه : (أصول الشريعة الحمدية) The Origins of Muhammadan Jurisprudence فقد صاغ نظرية عن أصول الشريعة (الحمدية) ، حاول خلاله أن يقتلع جذور الشريعة الإسلامية ، ويقضي على تاريخ التشريع الإسلامي قضاءً تاماً ، وظن المستشرقون أن شاخت جاء

(١٥) مناهج المستشرقين ٢١/١

(١٦) المرجع السابق ٢١/١ أيضاً .

(١٧) المرجع السابق ٢٢/١

(١٨) تاريخ العرب ٥٨ ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٩ م .

بالا يأتيه الباطل ، وأنه قدّم نظرية غير قابلة للدّحض في إطارها الواسع^(١٩) ، حتى إنّهم لم يسمحوا لطالب في جامعة لندن ، ولا في جامعة كبردج ، اللّتين ترفعان لواء الحرية والتجدد في البحث العلمي ، أن يجعل موضوع أطروحته دراسة نقدية لكتاب شاخت : (أصول الشريعة الحمدية)^{(٢٠) !!}

ومن المضحكات في هذا الصدد :

اكتشاف كليان هوار^(٢١) مصدراً جديداً للقرآن الكريم ، إنّه شعر أميّة بن أبي الصّلت^{(٢٢) !!} الذي عاش في صدر الإسلام ، وتوفي بعد الهجرة متأثراً بما سمع من القرآن الكريم .

وتصور كتاب عن جامعة كبردج ، تحت عنوان : (الماجيريّة ، وتكوين العالم الإسلامي) : [Hagariem , The Making of the Islamic World] ، بقلم باطريشيا كرون ، وميكيل كول ، وما جاء فيه :

(١٩) وصف (جوزيف شاخت) علماء المسلمين كافة في كتابه المذكور ، خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، بأنّهم كانوا كذابين ملتفقين غير أمناء .

(٢٠) مناهج المستشرقين ٦٨/١

(٢١) المرجع السابق ٢٢/١

(٢٢) أميّة بن عبد الله أبي الصّلت بن أبي ربيعة بن عوف الثّقفي [ت ٥ هـ = ٦٢٦ م] شاعر جاهلي حكيم ، من أهل الطائف ، كان مطلاً على الكتب القدّيمة ، يلبس المسوح تعبداً ، وهو من حرموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية ، ورحل إلى البحرین فآقام ثمانين سنين ظهر في أثنائها الإسلام ، وعاد إلى الطائف ، فسأل عن خبر محمد بن عبد الله عليهما السلام فقيل له : يزعم أنه نبي ، فخرج حتى قدم عليه بحكة وسمع منه آيات من القرآن الكريم ، وانصرف عنه ، فتبعته قريش تسأله عن رأيه فيه ، فقال : أشهد أنّه على الحق ، قالوا : فهل تتبعه ؟ فقال : حتى أنظر في أمره ، وخرج إلى الشام ، وهاجر رسول الله عليهما السلام إلى المدينة ، وحدثت وقعة بدر الكبرى ، وعاد أميّة من الشام ي يريد الإسلام ، فعلم بقتل أهل بدر وفيهم ابنا خال له ، فامتنع ، وأقام في الطائف إلى أن مات .

وهو أول من جعل في أول الكتب : باسم الله ، فكتبتها قريش ، [الأعلام ٢٢/٢] .

الإسلام دين وضعى ، أَسْسَتْ قواعده في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان^(٢٣) ، أمّا ما كان قبل ذلك ، فقد كان شيئاً اسمه (المهاجرية) ، المهاجرية هي عبارة عن كلام كتبه ذيروس (!) يقول فيه إنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدَ بْشَرَ بْدِين يَعْدُ استكمالاً للدِّيانة المهاجرية ، وأنَّ هذا الاسم ينسب إلى السَّيِّدة هاجر زوجة إبراهيم ، وأُمِّ إسماعيل .

ويصل التَّضليل والافتراء ، بل والكذب والدُّجل ، بالكتابتين إلى حد التَّشكِيك بلا سندٍ أو دليل ، في حدوث الهجرة النَّبوَّية ، ويقولان : إنَّ اسْمَ هاجر هذا تمَّ تحريره بعد ذلك ، في القرن الثَّامن الميلادي . ليعطي معنى الهجرة من مكَّة إلى المدينة ، وهي واقعة يُشَكِّكُ فيها الباحثان (العظيمان) . ومحاولان الادَّعاء بأنَّ الهجرة النَّبوَّية إلى يثرب لم تحدث قط .

ويقولان : إنَّ مصادرنا ليست مصادر يهودية . وهذا النَّفي وحده يكفيانا ، يكاد المريب أن يقول خذوني ، ويقولان : مصادرنا قِبْطِيَّة وأرمنيَّة وسُرْيانيَّة مجهلة ، أهلها المؤرخون .

وليس أدلُّ على ضلال هذه الوجهة وكذبها ، من أنَّ هذه المصادر لو كانت موجودة فعلاً ، لنشروا ما هو أتفه منها ، ألم نقل إنها من المضحكات !!

إنَّ حديث المستشرقين عن إسلام مسيحي أو يهودي ، أمر ينقضه البحث المجرد ، ويردُّه الَّذِينَ أسلمو من الطَّرفين ، فلولم يَرَ هؤلاء أنَّ الإسلام دين

(٢٣) عبد الملك بن مروان [٢٦ - ٨٦ = ٦٤٦ - ٧٠٥ م] ، انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ ، فكان شديداً على معانديه ، قويَّاً لهيبة ، تُقْتَلَتْ في أيَّامه الدُّواوين من الفارسية والرُّومية إلى العربية ، وضُبِطَت الحروف بالقطاط والحركات ، وهو أول من صَكَ الدُّنانير في الإسلام ، [الأعلام ١٦٥٤] .

جديد ، نظرته إلى الكون والحياة والإنسان تختلف عن نظرة المسيحية واليهودية لما اعتنقوه^(٢٤) ، وهم من الذين شهد لهم الناس برجاحة عقولهم ، وعمق فلسفتهم .

فلئن كان هدف موسى عليه السلام حرّيّة قوم ، دون الالتفات إلى البشرية^(٢٥) .

وهدف عيسى عليه السلام إلقاء الموعظ في المحبة .

فإنَّ هدف مُحَمَّد ﷺ شيء آخر ، لاستقيم الحرّيّة بدونه ، ولا تتمُّ المحبة ، ولا أي خلق كريم آخر من غيره ، لقد كان هدف المصطفى ﷺ إطلاق العقل من عقاله ، وتنمية سلطانه ، حتّى يبلغ حدَّ الكمال في حُبِّ للحقيقة ، وفي مجده عنها ، وفي اتباعه لها ، وفي نشره إياها ، بما يحقق السعادة والطمأنينة للإنسانية جماء ، وإنْ فتَّشَ الإسلام عن قاضٍ ليحكم بصدره الإلهي ، فإلى العقل مرجه ، وإذا حاجَ فبحكم العقل ، وإذا سخط فعلَ معطلي العقل ، وإذا رضي فعن أولي العقل .

- ٦ -

« لم يخبرنا التاريخ عن مسيرة محمد في السنوات الخمس عشرة ، التي انقضت بعد زواجه بخديجة ، ويفترض ، وإن لم يقم دليل على ذلك أنه كان يفكّر في أثائقها في مبادئ دينه الذي سيكون زعيمه ، ولم يثبت منه في تلك السنوات أيُّ نفور من عبادات العرب مع ذلك ، كما أنه لم يقع فيها ما يدلُّ على تفكيره في قلب تلك العبادات رأساً على عقب » ، [صفحة ١٣١] .

(٢٤) الحوادث التاريخية يجب أن تكون خطوطها الرئيسة مشابهة ، كخلق آدم ، وخروجبني إسرائيل ..

(٢٥) حتّى لهم (يهود) إله محلي خاص باليهود فقط ، وهم الصنفة ، والعالم كله مسخر لهم .

إنَّ تناقضًاً واضحًا وقع به (لوبون) في المقطع السَّابق ، حيث يقول : إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كان يفكِّر في أثنائهما ، أثناء السنُّوات الخمس عشرة التي انتهت بعد زواجه من خديجة ، في مبادئ دينه الذي سيكون زعيمه ، ثمَّ يقول : إنَّه لم يقم فيها ما يدلُّ على تفكير في قلب تلك العبادات رأساً على عقب .

فإنْ افترضنا قبول ما يقول ، فكيف يفكِّر مُحَمَّد ﷺ في إقامة دين على أساس الوحدانية ، وعدم الشرك بالله تعالى ، ثمَّ تقبل أنَّ هذا التَّفكير لا يقلب عبادات مجتمعه رأساً على عقب ، فالوحدةانية لله الخالق العظيم ، لا تتفق أبداً مع عبادة الأصنام والأوثان ، التي كان عليها عرب ما قبل الإسلام .

وليس صحيحاً أنَّ الأخبار عن سيرة مُحَمَّد ﷺ في السنُّوات الخمس عشرة التي انتهت بعد زواجه من خديجة غير متوفَّرة ، فلو عاد (لوبون) إلى المصادر التي أخذ منها أخبار مُحَمَّد ﷺ قبل هذه الفترة وبعدها ، لوجد فيها أخباره ﷺ دون انقطاع . وكان على (لوبون) ألا ينسى أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بعد زواجه من خديجة ، تهاجأ من مالها ما جعله أكثر تفرُّغاً للتحنُّث في غار حراء ، بعيداً عن صخب مكة ، هذه المدينة الصَّاخبة دينياً وتجاريًّا . وفي غار حراء كانت العناية الإلهيَّة تهيئ مُحَمَّداً ﷺ لحمل رسالته السَّماء إلى النَّاس كافة ، كما حمل قبله موسى عليه السَّلام رسالَة السَّماء إلى قومه ، وكما حمل عيسى عليه السَّلام أيضاً رسالَة السَّماء إلى قومه ، فهل تقول إنَّ العناية والقدرة الإلهيَّة تحجلت لموسى وعيسى عليهما السَّلام ، ونؤمن بذلك ، ثمَّ نرفض ما يشبه ذلك لـ مُحَمَّد ﷺ ؟

ألا يكفي دليلاً على تفكير مُحَمَّد ﷺ بخطأ عبادات قومه ، وإنكاره لها ، أنَّه ماسجد قبل بعثته لضمِّ أو وثن ؟

لقد اتفقت الأخبار على أنَّ مُحَمَّداً ﷺ كان في الدَّرْجَة العُلَيَا من شرف النَّفْس ، وكان يلقب (بالآمين) ، أي الرَّجُل الثَّقة المعتمد عليه إلى أقصى درجات الثَّقة ، أي إنَّه المثل الأعلى في الاستقامة .

وفي مَكَّةَ استمرَ الأمين عليهما اللهم بتجارتِه مع شركاء منهم السَّائبُ بن أبي السَّائبِ (٢٦) .

ولم ينقطع عليهما اللهم عن قومه في أعمالهم الجماعية ، وكان يحضر دار النَّدوة ، جاء وفد من اليمن ، ورأى فيه كبارهم - بدار النَّدوة - نظرات قوية أحياناً ، وهادئة مستبشرة أحياناً أخرى ، فقال أحدهم : مالي أرى هذا الغلام تارة ينظر إليكم يعني لبؤة ، وأخرى يعني عذراء خفرة (٢٧) ، والله لو أنَّ نظرته الأولى كانت سهاماً لانظمت فأئدتك فرؤاداً فرؤاداً ، ولو أنَّ نظرته الثانية كانت نسيماً لأنشرت أمواتكم .

لقد عاش عليهما اللهم أحداث قومه وبئته كلها ، ولم يكن (الأمين) نكرة في مجتمعه الذي ولد وشب فيه ، وأخباره في كتب السيرة متوفرة للباحث عنها ، وما درست سيرة رجل في العالم كا درست سيرته عليهما اللهم ، حتى في دقائق الأمور وتفاصيلها ، من الولادة إلى الوفاة .

- ٧ -

« كان محمد يقابل ضروب الأذى والتعذيب بالصبر وسعة الصدر ، وكان يجتذب بيلاعاته في كل يوم أصحاباً آخرين » ، [صفحة ١٣٣] .

لم يكن محمد عليهما اللهم يجتذب بيلاعاته الناس ، بل كان يجتذب بيلاعنة القرآن الكريم ، وسحر بيان القرآن الكريم ، وفصاحة آيات القرآن الكريم ، وروعتها .

(٢٦) السَّائبُ بن أبي السَّائبِ ، شريكُ النَّبِيِّ عليهما اللهم قبل المبعث بيَكَةَ ، قال عنه عليهما اللهم : « نعم الشريك ، كان لا يشاري ولا يماري » ، أسلم وحسن إسلامه ، [أسد الغابة ٣٥/٢] ، والمشاراة : اللجاج والجادلة بالباطل .

(٢٧) الخفر : شدة الحياة ، [اللسان : خفر] .

ولو كان الأمر « اجتذاب ببلاغة بَشَرٍ » لقدر عليه الكثير من فصحاء العرب وخطبائهم ، لكن التَّحْدِي جاء من قبل من لا يستطيع أحد من خلقاته أن يقف أمام تحديه ، إِنَّه اللَّهُ قَيْوَمُ السَّوَاتِ وَالْأَرْضِ ، الَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً بِالْحَقِّ ، وأنطقة بيآيات القرآن الكريم ، فكان وما يزال ، العجزة الحالدة لنبوة محمد بن عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شَهَادَاتِكُمْ مِنْ ذُوْنِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا - وَلَنْ تَفْعَلُوا - فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة - ٢٤] .

﴿ أُمُّ يَقُولُونَ تَقَوْلَةٌ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فَلَيَأْتُوا بِخَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطُّور - ٣٤ / ٥٢] .

وأين بلاغته عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل البعثة ؟ ولماذا لم يجتذب بها أهل مكة ؟

إنَّه اجتذب العربَ بالقرآنِ الكريمِ ، ولو كان القرآنَ من كلامِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لكانُ أسلوبُه وأسلوبُ الأحاديثِ سواء ، ومن المُسْلَمُ به لدى أهل البصر الأدبي ، والباعُ الطُّويلُ في اللُّغَةِ ، أَنَّه من المتعذرُ على الشَّخْصِ الواحدِ أَنْ يكونَ له في بيانِ أسلوبِه يختلفُ أحدهما عن الآخر اختلافاً جذرياً .

وكان كباء قريش يجذبهم القرآنِ الكريمِ لاستئصاله « وإن لم يؤمنوا ، لقد سمعه الوليد بن المغيرة^(٢٨) » . فقال لقريش في وصفه : إنَّ له لحلوة ، وإنَّ عليه

(٢٨) الوليد بن المغيرة [٩٥ ق . هـ - ١ - ٦٢٢ م] : من قضاة العرب في الجاهلية ، ومن زعماء قريش . يقال له (العدل) لأنَّه كان عدل قريش كلها ، كانت قريش تكسو البيت جميعها ، والوليد يكسوه وحده ، وكان من حرم الخنزير في الجاهلية ، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم ، فعاده وقاوم دعوته ، قال ابن الأثير : وهو الذي جمع قريشاً وقال : إنَّ الناس يأتونكم أيامَ الحجَّ ، فيسألونكم عن مُحَمَّدٍ ، فتختلف أقوالكم فيه ، فيقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : =

لطلاوة ، وإنْ أعلاه لمثر ، وإنْ أسفله لمدق^(٢٩) ، وإنْ يعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بَشَرٌ ، وهو الَّذِي جمع قريشاً وقال : إنَّ النَّاسَ يأتونكُمْ أَيَّامَ الْحَجَّ ، فَيُسأَلُونَكُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ ، فَتَخْتَلِفُ أَقْوَالُكُمْ فِيهِ ، فَيَقُولُ هَذَا : كَاهنٌ ، وَيَقُولُ هَذَا : شاعرٌ ، وَيَقُولُ هَذَا : مجنونٌ ، وَلَيْسَ يُشَبِّهُ واحِدًا مَا يَقُولُونَ ، وَلَكِنْ أَصْلَحَ مَا قَاتَلَ فِيهِ : « ساحرٌ » ، لَأَنَّهُ يَفْرُقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ ، وَالزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ^(٣٠) .

لقد نفى الوليد بن المغيرة أن يكون القرآن شعراً ، ودفعته حاجته في الإنكار إلى أن يقول إنه سحر ، وإن لم يرض بذلك الوصف للقرآن ابتداءً .

وضِمَادُ بْنُ ثَعْلَبَةَ الْأَزْدِيِّ . كَانَ رَجُلًا يَتَطَبَّبُ وَيَرْقِي ، سَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ : إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ ، فَقَالَ : لَوْرَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعِلَّ اللَّهُ أَنْ يَشْفِيَهُ عَلَى يَدِيِّي ، فَلَقِيَهُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدًا ، إِنِّي أَرَقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِيَ عَلَى يَدِيِّي مِنْ شَاءَ ، فَهَلْ لَكَ ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ الْمَدَّ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلٌّ لَّهُ ، وَمَنْ يُضْلِلُ فَلَا هَادِيٌ لَّهُ ، وَأَشَهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَمَا بَعْدُ .. فَقَالَ : أَعِدُّ عَلَيَّ كَلِمَاتَكَ هُؤُلَاءِ ، فَأَعْوَادُهُنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا ، فَقَالَ ضِمَادٌ : وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهْنَةِ ، وَسَمِعْتُ قَوْلَ السَّحْرَةِ ، وَسَمِعْتُ قَوْلَ الشُّعُّرَاءِ ، فَإِنَّمَا سَمِعْتُ مِثْلَ هُؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ بَلَغْتُ

= شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحداً مَا يقولون ، ولكن أصلح ما قاتل فيه : « ساحر » ، لأنَّه يَفْرُقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ ، وَالزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ ، مات بعد المجرة بثلاثة أشهر ، ودفن بالحجون ، وهو والد سيف الله خالد بن الوليد .

(٢٩) بَغْدَقٌ : الْغَدَقُ : الْمَطْرُ الْكَثِيرُ الْعَامُ ، وَغَدَقَتِ الْأَرْضُ غَدَقًا وَأَغْدَقَتْ : أَخْصَبَتْ ، [الْأَسَانُ : غَدَقٌ] .

(٣٠) ابن الأثير ٢٦٧٢ ، العقوبي ٢١٥/١

فَاعْوَسٌ^(٢١) الْبَحْرُ ، فَمَدَ يَدَكَ أَبَايِعَكَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَمَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ فِي بَيْعِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَعَلَى قَوْمِكَ ؟ فَقَالَ : وَعَلَى قَوْمِي^(٢٢) .

لقد كان ضِمَاد بن ثعلبة الأَزدي يعرِف مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَسَعَ مِنْهُ الْكَثِيرُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ : « فَمَدَ يَدَكَ أَبَايِعَكَ » ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا ضَمَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِهِ لِضِمَادِ جَزءاً مِنْ آيَةِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ : هُوَ وَمَنْ يَهْدِي اللَّهَ فَهُوَ الْمُهَشَّدُ وَمَنْ يُضْلِلُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولَيَاءَ مِنْ دُونِهِ ... هُوَ ، [الإِسْرَاءُ ٩٧/١٧] ، قَالَ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَمَدَ يَدَكَ أَبَايِعَكَ عَلَى إِسْلَامِكَ » ، وَهُوَ الَّذِي سَمِعَ قَوْلَ الْكَهْنَةِ ، وَسَعَ قَوْلَ السَّحْرَةِ ، وَسَعَ قَوْلَ الشُّعْرَاءِ .

لقد سمع ضِمَاد بِلَاغَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَإِعْجَازَهُ الْلُّغُويِّ الْفَرِيدِ .

- ٨ -

« اغْتَمْ مُحَمَّدَ مَوْسِمَ الْحِجَّةِ فَدَعَا إِلَى دِينِهِ أَنَاسًا مِنَ الْيَمَنِ ، كَانُوا يَنْظَرُونَ إِلَى مَكَّةَ بَعْنَ الْغَيْرِةِ ، فَيَنْتَظِرُونَ ، كَمَا كَانَ شَائِعًا بَيْنَهُمْ ، ظَهُورُ النَّبِيِّ ، فَاسْتَهْوَاهُمْ حَدِيثُ النَّبِيِّ فَاعْتَقَدُوا هُوَ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ ، فَحَدَّثُوا بِذَلِكَ أَهْلَ يَثْرَبَ الَّتِي كَانَتْ تَأْكِلُهَا الْغَيْرَةُ مِنْ مَكَّةَ أَيْضًا ... » ، [صَفَحةُ ١٣٤]

نعم كَانَ مُحَمَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَغْتَمِ مَوَاسِمَ الْحِجَّةِ ، لِدُعَوَةِ النَّاسِ إِلَى دِينِهِ ، وَإِلَيْهِ يَنْبُوَتُهُ ، وَالْتَّسْلِيمُ بِوُجُودِ إِلَهٍ وَاحِدٍ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَكَانَ يَدْعُونَ إِلَى ذَلِكَ كُلُّ مَنْ يَصادِفُهُ مِنْ حَجَّاجِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، الَّذِينَ يَقْصُدُونَ مَكَّةَ ، مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، لَكِنَّ الَّذِينَ لَقِيَهُمْ فَاسْتَهْوَاهُمْ حَدِيثُهُ لَمْ يَكُونُوا أَنَاسًا مِنَ الْيَمَنِ ، إِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرَبَ ، الَّذِينَ تَعُودُ أَصْوَلُهُمُ الْبَعِيْدَةَ إِلَى الْيَمَنِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي تِلْكَ الْفَتَرَةِ مِنْ قَبَائِلِ يَثْرَبَ ، أَيِّ مِنَ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَاجِ .

(٢١) فَاعْوَسُ الْبَحْرُ : وَسْطَهُ .

(٢٢) أَسْدُ الْغَابَةِ ٥٦/٣

نعم لقد وقف صلوات الله عليه على منازل العرب في موسم الحج ودعاهم إلى الإسلام ، وعرض نفسه لكل قادم إلى مكة . يتصدى له ، ويدعوه إلى الله تعالى .

وتساءل : لماذا لم يجد (لوبون) سبباً لإقبال أهل يثرب على اعتناق الإسلام ، إلا غيرتهم من مكة ؟ ! لا يمكن أن يردد عليه : بأنَّ هذا السبب وحده كان يومئذ كافياً لعدم إيمانهم بمحمد صلوات الله عليه . لما كان للعصبية القبلية من آثار عميقة في نفوسهم ، فكيف يقبلون أن يزعموا ويلكوا عليهم رجالاً من قبيلة يحددون عليها ، ويغارون منها ؟

ولو بحثنا عن الأسباب الحقيقية ، والتي دعت أهل يثرب إلى بيعة العقبة الأولى والثانية ، وإلى الإيمان بنبوة محمد صلوات الله عليه وصدق دعوته ، لوجدنا أنهم أبناء مدينة سمعوا فيها الكثير عن ديانات ساوية ، وعن الله الذي يبعثُ الأنبياء ورسلاً هداية الناس ، بل وسمعوا من أصحاب تلك الديانات وكتبها عن قرب ظهور نبي آخر الزمان .

لقد كان أهل يثرب أهل شرك ، وكان اليهود معهم في بلادهم أهل كتاب ، وكان اليهود يقولون لأهل المدينة إذا كان بينهم شيء : إنَّ نبياً مبعوث الآن ، قد أظلَ زمانه ، فنتبئ به فنقتلهم معه قتل عاد وإرم^(٣٣) ، فلما كُلِّم صلوات الله عليه أهل يثرب ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون والله إنَّه النبيُّ الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقونكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأنَّ صدقوا ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام .

كما وجد أهل يثرب ، فيما دعاهم إليه محمد صلوات الله عليه ، ما يوحّد صفوهم ، وينهي خلافاً طويلاً بينهم ، وغير ذلك من عوامل المداية والإيمان .

(٣٣) عيون الأثر ١٥٥/٢ ، ابن هشام ٥٤/٢ ، الكامل في التاريخ ٦٧/٢ ، الطبرى ٣٥٥/٢

وبالمناسبة : أرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصعب بن عمير إلى يثرب ، نتيجة لبيعة العقبة الأولى^(٢٤) ، فجمع الأوس والخزرج بنفسه ، فكانت العقبة الثانية^(٢٥) في الموسم التالي لبيعة العقبة الأولى ، وهي أخطر بيعة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، لقد فاجأت قريشاً ، فعلمت أنَّ الأمر أفلت من يدها ، بعد أن بايع الأنصار النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسلم من سالمتم » .

فَلِمَ كَانَتْ هَذِهِ الْاسْتِجَابَةُ الرَّائِعَةُ وَالسَّرِيعَةُ مِنْ أَهْلِ يَثْرَبِ؟

وَلِمَ أَسْلَمَ فِي يَثْرَبِ خَلَالِ عَامَيْنِ أَكْثَرَ مَا أَسْلَمَ فِي مَكَّةَ خَلَالِ ثَلَاثَ عَشَرَةَ سَنَةً؟

١ - اختلاف البيئة والمناخ بين مكة ويثرب ، تركا أثراً كبيراً واضحاً .
ـ آنذاك - على طبائع السُّكَانِ في كلتَيِ المدينتين ، فعُرِفَ أهْلُ مَكَّةَ بالشدة والصلابة في طبائعهم ، وبالقسوة والجفاف في معاملاتهم ، في حين عُرِفَ أهْلُ يثرب بلين الجانب ؛ وحسن المعاملة .

كما أنَّ قريشاً جنت فوائد مالية ومعنوية عظيمة ، بسبب وجود أصنام العرب حول الكعبة ، فظنَّت أن مكانتها ستزول إن زالت الأصنام وحلَّ التَّوْحِيدُ في ربوع مكة وما حولها .

٢ - وعقلية الأوس والخزرج كانت مهيأة لظهور نبِيٍ آخر الزمان .

٣ - ووجد الأوس والخزرج في شخص محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغيتهم المنشودة في القضاء على التنازع فيما بينهم ، خصوصاً وأمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بني النجار أحد بطون الخزرج .

(٢٤) وهي بيعة النساء ، كان فيها ١٢ رجلاً ، سميت ببيعة النساء لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي أول امرأة بايعت .

(٢٥) وهي بيعة الحرب ، كان فيها ٧٢ رجلاً وأمراتان : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدي .

- ٩ -

« تواللت الوقائع بين محمد وجيرانه ، وكانت كل مصيبة تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب ، وكان يبدو رابط الجيش إذا ماهزَم ، ومعتدلاً إذا مانَصِر ، وهو لم يقْسُ على أعدائه إلاّ مرّة واحدة ، حين أمر بأن تُضَرب رقاب سبع مئة يهودي خانوه » ، [صفحة ١٣٥] .

من أين أتى (لوبون) بهذا الحكم : « وكانت كل مصيبة تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب » ؟ فهل كانت الأمور مرتبة إلى هذا الحد ؟

لقد عدت بذاكري إلى أحداث السيرة الشريفة ، فلم أجد أثراً لهذا الحكم الذي يشوه الحقائق ، ولا يسيء ، إن صحيحاً ، إلى الرسول الكريم ﷺ .

ولا نجد غير هزيمة المسلمين في غزوة أحد ، إذا اعتبرناها هزيمة^(٢٦) ، مصيبة أو هزيمة ، وكل ما عادها نجاح وانتصار ، نتيجة لسياسة كان محمد ﷺ يشرف على وضع خطوطها ، وتنفيذ مراحلها ، ترافقه عناء إلهية توّكّد صدق نبوته ، وقوّة إيمانه .

ولو استعرضنا غزوات الرسول ﷺ ، وموافقه المهمة ابتداءً من غزوة بدر الكبرى ، حتّى غزوة تبوك ، لما وجدنا إلاّ سلسلة من الانتصارات تتلاحم ، لم يرافقها لدى أصحابها ﷺ أي غرور .

أمّا قول (لوبون) بأنَّ مُحَمَّداً ﷺ لم يقسَ على أعدائه إلاّ مرّة واحدة حين أمر بقتل سبع مئة من اليهود خانوه ، ويقصد بهم يهودبني قريظة ، فهو قول مرفوض ، فرسول الله ﷺ لم يكن قاسياً حتّى في موقفه هذا .

(٢٦) لم تتحقّق قريش ما أرادت في أحد ، لم تفتح طريق تجارتها إلى الشام ، ولم تنبه دعوة الإسلام ، إلاّ أنها ثارت لقتلاها في بدر .

غزوَة بني قريظة قصاص عادل لخيانة علَيْهِ ، مع نقض معااهدة موقعة
تعهَّدوا بموجبها دعم المسلمين ، إذا داهمهم عدو : « وإنَّ بينَمَا النَّصْرُ عَلَى مَنْ حَارَبَ
أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ، وَإِنَّ بَيْنَمَا النُّصْحُ وَالنَّصِيحَةِ ، وَالبَرِّ دُونَ الْإِثْمِ .. »^(٣٧) ،
فانحازوا إلى جانب العدو ، عندما رأوا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة المنورة ،
فظنُّوا أنَّ الْأَمْرَ قَدْ انتَهَى ، واستؤصل المسلمون عن آخرِهِ .

قصاص بني قريظة ، يتناسب مع ضخامة الجُرم ، وعندما حاصرهم عليهِ
في صياصيهم^(٣٨) ، وحَكَمَ فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه لم يسأل بني قريظة
رسول الله وال المسلمين : لماذا هذا الحصار ؟ ولماذا هذه الحرب ؟ وبالتالي : لماذا هذا
القصاص ، وهذا العقاب ؟

والجواب على هذا التساؤل في عبارة واحدة موجزة قصيرة : إنَّمَا أدرى بما
صنعوا^(٣٩) ! ؟ فائيُّ قسوة يتحدَّث عنها (لوبون) ؟ !

- ١٠ -

« عَظِيمُ شَأنَّ مُحَمَّدَ فِي عَدَّةِ سَنَوَاتٍ ، وَأَصْبَحَ لَابْدَ لِهِ مِنْ فَتْحِ مَكَّةَ حَتَّى يَعْمَمَ
نَفْوذَهُ ، فَرَأَى أَنَّ يَفَاضُ قَبْلَ امْتِشاقِ الْحَسَامِ وَصُولًا إِلَى هَذَا الْغَرْبَ » فجاءَ إِلَى
الْبَلْدَ الْمَقْدَسَ وَمَعَهُ أَلْفٌ وَأَرْبَعُ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ دُخُولُهُ » ،
[صفحة ١٢٥] .

(٣٧) ابن هشام ١٠٧/٢

(٣٨) الحصون وكلُّ شيء امتنع به ، وتحصَّن به فهو صيحة ، [الأنسان : صاص] .

(٣٩) ونحن هنا لن نعود إلى حكم التوراة (العجب) عندما يمتلك اليهود مدينة أو قوماً ، ولكن على
سبيل المثال ، جاء في سفر التثنية ١٥/١٣ و ١٦ : « .. فَضَرِبَ تَضْرِيبَ سَكَانِ تَلْكَ الْمَدِينَةِ بِجَهَدِ
السَّيْفِ ، وَتَحْرَقُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ هَيَاهَا بِجَهَدِ السَّيْفِ ، تَجْمَعُ كُلُّ أَمْتَعَتْهَا إِلَى وَسْطِ سَاحَتِهَا
وَتُحرقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةُ وَكُلُّ أَمْتَعَتْهَا كَامِلَةً لِلرُّبُّ إِلَّا كَمَا تَكُونُ تَلَأً إِلَى الْأَبْدَ لَا يَبْقَى بَعْدَ .. » .

النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يُسْعِي إِلَى مَدْ نَفْوَهُ ، وَلِيُسْعِي غَرْضَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَفْوَهٌ
شَخْصِي .

وَلَوْ عَدْنَا إِلَى الْحَوَادِثِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي سَبَقَتْ فَتْحَ مَكَّةَ ، لَتَأْكُدَ لَنَا ذَلِكَ
بِوُضُوحٍ . فَالْفَتْحُ بِالْقُوَّةِ ، وَاسْتِعْمَالُ السَّلَاحِ . كَانَ آخِرُ مَا يَلْجَأُ إِلَيْهِ
رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَعُوْدَةُ بَنَى إِلَى صَلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ . وَدِرَاسَةُ بَنَودِهِ ، تَوْضُّحُ لَنَا
ذَلِكَ ، كَمَا تَبَثَّ لَنَا حَكْمَةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَنَخْاجُ سِيَاسَتِهِ الْقَائِمَةُ عَلَى فَتْحِ الْقُلُوبِ ،
قَبْلَ فَتْحِ الْخُصُونَ وَالْأَسْوَارِ وَالْمَدِينَ .

فِي جَوَّ الْحَرُوبِ ، وَسَقْطِ الْضَّحَايَا ، لَا تَنْتَشِرُ الْمَبَادِئُ ، لَتَنَافِرُ الْقُلُوبُ ،
وَتَعْصُّ الْفُؤُوسُ ، وَتَشْنَجُهَا ، أَمَامُ هَذَا الْوَاقِعِ ، سَعَى عَلَيْهِ إِلَى تَهْيَةِ الْجَوَّ
الْمَنَاسِبُ لِنَشْرِ الْإِسْلَامِ ، فَمَدَّ يَدَهُ عَلَيْهِ إِلَى قَرِيشٍ مَظْهَرًا مِنْتَهِيَ الْخَنَّكَةِ السِّيَاسِيَّةِ ،
مَعَ مِنْتَهِيِ الْمَرْوَةِ وَالْتَّسَامِحِ ، وَكَسْبِ عَلَيْهِ الرَّأْيِ الْعَامِ ، عِنْدَمَا خَرَجَ بِاتِّجَاهِ
مَكَّةَ ، وَقَدْ سَاقَ الْمَهْدِيَّ ، لِيُثَبِّتَ لِلْعَرَبِ كَافَّةً تَعْظِيمَهُ لِلبيتِ الْحَرَامِ ، مُؤَكِّدًا لَهُمْ أَنَّ
مَكَّةَ سَبَقَتْ عَلَى مَكَانَتِهِ الَّتِي نَالَتِهَا مِنْ وُجُودِ الْكَعْبَةِ الْمَشْرُفَةِ فِيهَا .

لَقَدْ سَارَ عَلَيْهِ وَمَنْ مَعَهُ يَرِيدُ مَكَّةَ لِلْعُمْرَةِ . وَقَرِيشٌ هُنَا أَمَامُ خِيَارِيْنَ
لَاثَالِثٌ لَهُمَا : إِمَّا أَنْ تَعْنَىْهُمْ ، وَإِمَّا أَنْ تَسْمِحَ لَهُمْ بِدُخُولِ مَكَّةَ ، فَإِنْ مَنَعَ قَرِيشُ
رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ ، كَشَفَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ مَوْقِفُهَا الْعَدَائِيُّ ، مَثَبِّتًا أَنَّ
جَوَّ الْحَرْبِ لَيْسَ مِنْ صُنْعِهِ عَلَيْهِ ، بَلْ هُوَ مِنْ صُنْعِ قَرِيشٍ وَمَنْ مَعَهَا .

وَإِنْ دَخَلُوهَا عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ سَيَلْتَقِي بِأَهْلِ مَكَّةَ ، وَسِيَحَادِثُهُمُ الْمُسْلِمُونَ
الْمُعْتَمِرُونَ ، مَا سَيَبْنِدُ جَوَّ التَّوْتُرِ وَيُزِيلُهُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَدُخُولُ مَكَّةَ يَعْنِي أَيْضًا
تَحْقِيقَ انتِصَارِ سِيَاسِيٍّ كَبِيرٍ ، فَدُخُولُهِ عَلَيْهِ مَكَّةَ يَعْنِي عُودَتِهِ إِلَى حِلْتِ أُخْرَاجِهِ عَلَى
الرَّغْمِ مِنْ قَرِيشٍ .

وَفِي كُلِّ الْحَالَيْنِ ، سَيَكْسِبُ عَلَيْهِ الْجُولَةَ عَلَى قَرِيشٍ . فَلَا بُدَّ مِنَ الْخِيلَوَلَةِ

يبينه وبين دخول مكة برأي ثن ، ولو كانت الحرب في الأشهر الحرم^(٤٠) ، ولو تحرّج موقفها أمام القبائل بصدقها عن البيت العتيق من جاءه معظّماً محترماً .

أرسلت قريش سهيل بن عمرو رئيساً لوفدتها المفاوض ، وكانت تعليماتها إليه واضحة : أئتم محمدًا وصالحة ، يرجع عنّا عامه هذا ، وإنّه إذا كان عام قابل ، خرجنا منها ، ودخلها بأصحابه ثلاثة أيام مع سلاح الرّاكب .

وافتقد الطرفان على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ، ويكتف بعضهم عن بعض ، وشرطوا الله من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

ولما انتهى تحرير الصلح ، دخلت خزاعة في عقد رسول الله عليه السلام ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم .

■ إنَّ وضوح الرؤيا في الابتداء ، حُقُّ المدفَّ في الانتهاء » ، فصلاح الحديبية اعتراف رسمي موقّع من قريش ، بأنَّ رسول الله عليه السلام ومن معه ، قوّة مستقلّة متّيزة ، ونظير قريش زعيمة القبائل ، وهذا يعني أيضاً ، أمّام كلّ قوى جزيرة العرب ، أنَّ قريشاً قد اعترفت رسميّاً بنّ كانت تريد استئصاله ، مما جعل القبائل العربيّة تعيد حساباتها .

وأثر صلح الحديبية بأسرع ما كان متوقعاً ، وبأعجب مما كان يتصرّر به إنسان^(٤١) ، لذلك خرقت قريش بنود الصلح عندما حرضت بكرأ على خزاعة ،

(٤٠) الأخذية في ذي القعدة ٦ هـ .

(٤١) قال أبو بكر رضي الله عنه : « ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية » ، وقال محمد بن سعد الزهرى في صلح الحديبية : « فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب ، وأمين الناس بعضهم بعضًا ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يتكلّم أحد بالإسلام يفعل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر » ، [ابن هشام ٢٠٦٣ ، البداية والنهاية ١٧٠٤ ، الطبرى ٧٩٧٢] .

فأصبح لابد من فتح مكة لينهي أكبر معلم من معلمات «الوثنية» ، وليعيد البيت الحرام كما كان عند تأسيسه ، رمزاً للتوحيد كبناء إبراهيم وإسماعيل ، وكأراده الله الواحد الأحد .

- ١١ -

«رأى محمد بعد ذلك الإخفاق^(٤٢) أن يرُوّح أصحابه ، فخفّ بهم إلى مدينة خير المصننة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي ، والبعيدة منها مسيرة خمسة أيام ، والتي كان يقطن فيها قبائل يهودية ، والتي كانت مقرّ تجارة اليهود ، ففتحها عنوة» ، [صفحة ١٣٦] .

ما كنا نظن أن الدكتور غوستاف لوبيون يعالج دراسة الحوادث التاريخية بمثل هذه البساطة ، ومجانية الحق .

أولاً : نريد أن نسأل (لوبون) : ماذا تعني بجملة «ورأى محمد بعد ذلك الإخفاق ..» ، أي إخفاق تقصد ؟ فهو عودته من الحديبية مع أصحابه دون تأدبة العمرة ؟

لقد عقد عَلَيْهِ صلحًا مع مشركي مكة ، وهو صلح الحديبية ، وهناك إجماع من كل مؤرخ ودارس وباحث في هذا الصلح ، على أنه كان انتصاراً لمحمد عَلَيْهِ ، أثبت فيه بعده نظره «وصواب سياسته» ، ورجاحة عقله ، حتى اعتبر لدى أصحابه المؤمنين نصراً وفتحاً مبيناً ، لما تحققت من ورائه وبسببه نتائج عظيمة ، كانت أعظم من انتصارات المعارك ، فهل يعتبر ذلك إخفاقاً ؟

ولست قريش نتائج الصلح الإيجابية التي جاءت إلى جانب المسلمين .

(٤٢) يعني عدم دخول مكة بعد توقيع صلح الحديبية .

فسعت إلى نقضه بعد عامين اثنين فقط ، فلو كان صلح الحديبية إخفاقاً
لمحمد عليه السلام ، ونجاحاً لقريش والشركين ، فلماذا نقضته ؟

ويعتبر لوبيون غزو اليهود في خير نزهة أراد بها محمد عليه السلام أن يرُوح بها عن
 أصحابه ، فأين غاب الإنصاف عنه في هذه المسألة ، وهل كان الرسول
العظيم عليه السلام يتسلّى مع أصحابه في جزيرة العرب ، ويغزو ليروح عن أصحابه ؟

هل تناسى (لوبيون) مواقف اليهود في الحجاز من النبي عليه ودعوته ؟

وهل غاب عنه مواقفهم بعد بدر الكبri وأحد والخندق ؟ أما جعل وفد
اليهود برئاسة حبيبي بن أخطب لغطfan ، تحريضاً على الخروج . نصفَ قر خير
كلَّ عام ؟ فجمع اليهود الأحزاب حول المدينة لاستئصال الإسلام وأهله ؟ وبعد
الخندق ، أقاموا تحالفاً يهودياً برئاسة خير ضمّ يهود تياء وفدى ووادي القرى ،
مع غطfan . تحت زعامة سلام بن مشك ، هدفه غزو المدينة ، فهل غاب هذا كله
عن الدكتور لوبيون . وخفى عليه خطورهم الذي تمثل بمواقفهم الكثيرة في الدسّ
والتأمر والكيد . وتأليب القبائل ضدَّ الدولة العريمة الإسلامية الفتية ، وهل
نسمّي حربهم ، وردَّ خطورهم ، وإنهاء تأمرهم ، ترويجاً عن النفس ؟

- ١٢ -

« ولما أحسنَ محمدَ نفو سلطانه ، عزم على فتح مكّة ، فألَّفَ جيشاً من
عشرة آلاف حارب ، مما لم يسبق له أن جمع مثله ، فبلغ أسوارها ، ففتح به مكّة
من غير قتال بقوَّة مائَة من النُّفوذ » ، [صفة ١٣٧] .

عاد (لوبيون) إلى استعمال عباره : « ولما أحسنَ محمدَ نفو سلطانه ، عزم على
فتح مكّة » ، ولم يذكر سبب فتح مكّة الحقيقي ، لقد خرقت قريش بنود
الحديبية ، وانتهكت أهْمَّ بند فيه : « وضع الحرب عن النَّاسِ عشر سنين يأْمن فيها
النَّاسُ ، ويكتفُّ بعضُهم عن بعض » ، لما سبق ، سار زعيم قريش أبو سفيان بن

- ٩٠ -

حرب » وملكتها غير المتوج ، إلى المدينة المنورة » عَلَّه يصلاح ما أفسده هو وقومه ، فعاد فاشلاً خائباً .

واستطاع رسول الله ﷺ أن يمحشد أعظم جيش عرفته جزيرة العرب ، ليتحرّك وهو في أرقى مستوى من التعبئة والسلاح والطاعة ، وقد جعل نصب عينيه فتح مكة المكرمة » بأقل دماء وخسائر ممكنة .

وهل يتصور مؤرخ منصف - منها كانت عقيدته - أن تنتهي قريش بنود صلح الحديبية » ويتركها ﷺ على تطاولها وغورها ؟

ونعود إلى مقاله (لوبون) لنقول : ما كان النبي ﷺ أرسله الله بالهدى ودين الحقّ أن يدّ نفوذه أو سلطانه ، أو ما يشبه ذلك من السيطرة الشخصية ، أو الزّعامة الدينويّة ، إنّ مُحَمَّداً ﷺ يريد ولا شكّ أن يقضي على الوثنية أينا وجدت ، فكيف وهي في بيت الله الحرام ، فمن الطبيعي أن يفكّر مُحَمَّداً ﷺ بفتح قلوب القرشيين بالإسلام ، لا لدّ نفوذه وسلطانه الشخصي ، بل لتعظيم أكبر معقل من معاقل الوثنية في جزيرة العرب ، وليعيد إلى البيت العتيق كلمة التّوحيد عاليّة لاتشوّها عبادة الأصنام والأوثان .

وصورة فتح مكة لاتسمح بكلمي : « سلطانه » و « نفوذه » ، فـ « اذهبوا فأتمّ الطلاق » التي قالها ﷺ لمن صادر أملاك المسلمين وباعها ، ولن جمع قواته وسار إلى أحد ، ولن جاء إلى الخندق مع اليهود وغطفان ليستأصل المسلمين وينهي وجودهم ، فأيّ خلق تحلى به مُحَمَّداً ﷺ ، وأيّ درس في العفو والأخوة والمحبة لقنه لقريش ؟ ! لقد فتح القلوب وامتلكها ، فهي التي جبّلت على حبّ من أحسن إليها .

وهذا موقف فريد على مرّ التاريخ ، فيه سمو لا يضاهيه سمو ، ورفعة لا يدانيها رفعة ، وعظمة لاتشبّه بها عظمة .

إِنَّهُ موقفٌ لَا يقفهٔ ملِكٌ ، أَوْ زعيمٌ ، أَوْ قائدٌ .. لَا يقفهٔ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، رَحْمَتُهُ
مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَحُكْمَتُهُ مِنْ حُكْمَةِ اللَّهِ ، وَعَفْوُهُ مِنْ عَفْوِ اللَّهِ .

ولو أَنَّ مُحَمَّداً - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَرَادَ النُّفُوذَ وَالسُّلْطَانَ ، لَتَحَقَّقَ لَهُ مَا أَرَادَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ
بِسَنَوَاتٍ ، عِنْدَمَا قَدِمَ إِلَيْهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ قَبْلِ زُعْمَاءِ قَرِيشٍ ، فَرَضَهُ ، وَرَفَضَ الْجَاهَ
وَالْمَالَ ، لَأَنَّهُ يَصْدُعُ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَيَحْمِلُ رِسَالَتَهُ إِلَى النَّاسِ .

أَمَّا عِبَارَةٌ : « فَبَلَغَ أَسْوَارَهَا » ، فَنَعْتَقِدُ أَنَّ جَمِيعَ الْمُؤْرِخِينَ يَعْلَمُونَ بِأَنَّ مَكَّةَ
لَا تَحْمِلُ أَسْوَارَهَا .

- ١٣ -

بعد فتح مَكَّةَ ، جَعَلَ مُحَمَّدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : « الْكَعْبَةَ مَعْبُدًا إِسْلَامِيًّا » ،
[صفحة ١٣٧].

كَانَ الصَّوَابُ أَنْ يَقُولُ (لوبون) : أَعَادَ مُحَمَّدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْكَعْبَةَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ إِلَى
مَا كَانَتْ عَلَيْهِ حِينَ أَقَامَ بِنِيَانِهَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، أَيْ رِمْزاً لِلْعِبَادَةِ
اللَّهِ الْوَاحِدِ ، يَطْوِفُ النَّاسُ بِهَا ، لَا عِبَادَةَ لَهَا ، بَلْ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَالْكَعْبَةُ
لَيْسَ مَعْبُدًا ، وَإِنَّمَا هِيَ بَنَاءً أَقِيمَ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، قَبْلَةً يَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا النَّاسُ .

لَقَدْ دَعَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ : ﴿فَاجْعِلْ أَقْبَادَهُ مِنَ النَّاسِ تَهُوِي
إِلَيْهِمْ﴾ [إِبْرَاهِيمٌ ٢٧/١٤] ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ، وَجَعَلَ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَحْجَةً
وَمَكَانَ التَّقَاءِ تَهُوي إِلَيْهِ أَقْبَادُ الْبَشَرِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغارِهَا .

وَالتَّوْجُّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ ، فِي الصَّلَاةِ أَوْ فِي الْحَجَّ ، رِمْزٌ لِتَوْحِيدِ الْعِقِيدَةِ ، فَكِرْأً
وَقَلْبًا ، وَدَلِيلٌ ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قدْ يَبِينُ لَنَا بِأَنَّ الْقَبْلَةَ هِيَ وَجْهُ اللَّهِ وَحْدَهُ :
﴿فَإِنَّمَا تُولُوا قَبْلَةً وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الْبَقْرَةُ ١١٥/٢] .

فَالْقَدِيسَيَّةُ لِلْأَمْرِ الإِلَهِيِّ وَحْدَهُ : ﴿قَدْ نَرَى تَقْلُبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ،

- ٩٢ -

فَلَمْ يُؤْتِنَاكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرَهُ ﴿٤٢﴾ ، [البقرة ١٤٤] ، والاتجاه إلى الكعبة إنما يتم بالجسد وحده ، وأمام القلب والروح ، فإلى الله اتجاهها ، وبه تعلقها : ﴿إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ، [الأنعام ٧٩/٦] .

لذلك ، يلهج لسان الحاج وقلبه خلال الطواف بالبيت ، بقوله : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك .. » ، فالتألية استجابة لأمر الله ، وليس للкуبة ، وما سمعنا طائفًا يقول : لبيك يا كعبة لبيك .

فبعد فتح مكة ، حطم عليه السلام الأصنام ، وهو يقول : ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ، [الإسراء ٨١/١٧] . ونادي مناديه عليه السلام بـ مكة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنعاً إلا كسره » ^(٤٣) .

لقد ظهر عليه السلام البيت الحرام ، وأعاده رمزاً للتوحيد الخالص ، ولم يجعل الكعبة معبدًا إسلامياً .

- ١٤ -

« ولم يكتفي كسرى بتزييق كتاب محمد ، بل بعث إلى عامله في الين : (أن أبعث إلى هذا الرجل الذي يزعزع في المجاز أنه نبي) ، ولكن كسرى قتل ابنه قبل أن يقوم عامل الين بتنفيذ ذلك الأمر الصعب » ، [صفحة ١٢٨] .

صحيح ، لقد مزق كسرى (أبرويز) كتاب رسول الله عليه السلام ، والذي جمله عبد الله بن حذافة السهمي ^(٤٤) ، وصحيح أنه بعث إلى عامله في الين أن يبعث

(٤٣) طبقات ابن سعد ١٢٧/٢ ، السيرة الخلبية ١١٨/٣

(٤٤) عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي [ت نحو ٢٣ هـ = نحو ٦٥٣ م] ، صاحي أسلم قد يأ ، وبعثه النبي عليه السلام إلى كسرى ، أسره الروم في أيام عمر ثم أطلقوه ، وشهد فتح مصر ، وتوفي بها في أيام عثمان ، [الأعلام ٧٨/٤] .

- ٩٣ -

إِلَيْهِ بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَصَحِيحٌ أَنْ شِرْوِيهَ قَتَلَ أَبَاهُ أَبْرُوِيزَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ صَحِيحًا : « قَبْلَ أَنْ يَقُومَ عَامِلُ الْيَنِ بِتَنْفِيذِ ذَلِكَ الْأَمْرِ الصَّعِبِ » ، وَصَوَابُهُ : وَقَدْ فَشَلَ (بَاذَانَ) فِي إِحْضَارِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لَقَدْ نَفَذَ أَمْرَ كَسْرَى أَبْرُوِيزَ ، وَلَكِنْهُ فَشَلَ ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ التَّارِيخِيَّةُ :

بَعْدَ صَلْحِ الْحَدِيبِيَّةِ ، كَتَبَ عَلَيْهِ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ وَالْأَمْرَاءُ يَدْعُونَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ : وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ كَسْرَى أَبْرُوِيزَ^(٤٥) ، الَّذِي مَرَّقَ الْكِتَابَ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهُ ، لَأَنَّ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَأَ بِاسْمِهِ قَبْلَ اسْمِ كَسْرَى ، وَغَضَبَ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ بَاذَانَ عَامِلِهِ عَلَيْهِ الْيَنِ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِذَا جَاءَكَ كَتَابِيُّهُ هَذَا . فَابْعَثَ مِنْ قَبْلِكَ أَمْيَزَيْنِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَجِدُهُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَابْعُثْهُ إِلَيْهِ فِي جَامِعَةِ^(٤٦) .

وَبَعْثَ بَاذَانَ رَسُولَيْنِ جَلِيلَيْنِ^(٤٧) ، هُمَا : بَابُوِيهُ وَخَرْخَسِرُهُ ، يَحْمَلُانِ كِتَابًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، يَأْمُرُهُ فِيهِ أَنْ يَنْصُرِفَ مَعَهُ إِلَيْهِ ، فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا الطَّائِفَ ، فَوَجَدَا رِجَالًا مِنْ قَرِيشٍ ، فَسَأَلَاهُمْ عَنِ الرَّسُولِ ، فَقَالُوا : هُوَ بِالْمَدِينَةِ ، وَاسْتَبَشَ الْقَرْشِيُّونَ الْمُشْرِكُونَ بِذَلِكَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : أَبْشِرُوكُمْ ، فَقَدْ نَصَبَ لَهُ كَسْرَى مَلِكَ الْمُلُوكِ ، كَفِيْتُمُ الرَّجُلِ .

فَخَرَجَ الرَّجُلُانِ حَتَّى قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ . فَقَالَا : إِنَّ كَسْرَى قَدْ

(٤٥) وَكَانَ مَقْرًأً مِلْكَهُ طَيْسَفُونَ (الْمَدِينَةِ) . قَرْبُ مَوْقِعِ بَغْدَادِ حَالِيًّا ، جَاءَ فِي مَعْجمِ الْبَلْدَانِ : ٥٥/٤

« هِيَ مَدِينَةُ كَسْرَى الَّتِي فِيهَا الْإِيَّوَانُ ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَغْدَادَ ثَلَاثَةُ فَرَاسِخٍ [الفراسخ = ٥٥٤٤ م] ، دَخَلَهَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصَ بَعْدَ الْقَادِسِيَّةِ فَاتَّحَى سَنَةُ ١٦ هـ وَهُوَ يَقْرَأُ قُولَهُ تَعَالَى : ﴿كُمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَغَيْرِهِنَّ بِهِ قَرْرُوعٌ وَقَعْدَمٌ كَرِيمٌ ﴾ وَتَعْتَمِيَ كَانُوا فِيهَا فَاكِيْنَ ☆ كَذِيلَهُ كَذِيلَهُ وَأَوْرَثَهَا قَوْمًا آخَرَيْنَ ☆ ، [الدُّخَانُ ٢٥/٤٤ - ٢٨] .

(٤٦) الْجَامِعَةُ : الْفَلُّ ، لَا تَنْهَا تَجْمِعُ الْيَدَيْنِ إِلَى الْعَنْقِ ، [اللِّسَانُ : جِعْ] .

(٤٧) جَلِيلَانِ : قَوْيَانُ ، ذُوَا عَزِيْةَ ، وَمَا قَالَهُ لَهُمَا : اذْهَبَا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ ، فَانظَرَا مَا هُوَ ، فَإِنْ كَانَ كاذِبًا فَخَذَاهُ فِي جَامِعَةِ حَتَّى تَذَهَّبَا بِهِ إِلَى كَسْرَى ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَارْجِعَا إِلَيْهِ فَأَخْبَرَايِيْ . مَا هُوَ حَتَّى أَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ .

بعثنا إليك لتنطلق معنا ، فصرفها الرَّسُول ﷺ على أن يعودا إليه في الغد ، وخلال إقامتها في المدينة المنورة رأيا رسول الله ﷺ على أرشد الأحوال وخيرها عقلاً وحكمة ونبوة صادقة . ثم قال لهم ﷺ بعد أن جاءه الخبر من الله تعالى : « إنَّ اللَّهَ قَدْ سَلَطَ عَلَى كُسْرَى ابْنِهِ شِيْرُوْيِهِ فَقْتَلَهُ ، إِنْ دِينِي وَسُلْطَانِي سَيْبُلُغُ مَلْكَ كُسْرَى ، وَقَوْلَا لِبَادَنَ : أَسْلَمْ ، فَإِنْ أَسْلَمَ أَقْرُهُ عَلَى مَا تَحْتَ يَدِهِ ، وَأَمْلَكَهُ عَلَى قَوْمِهِ » ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : إِنَّا قَدْ نَقْمَنَا عَلَيْكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ هَذَا ، أَفْنَكْتَ بَهْذَا عَنْكَ وَنَخْبِرْهُ الْمَلَكَ ، قَالَ ﷺ : أَخْبَرَاهُ ذَلِكَ عَنِّي ، وَقَوْلَا لَهُ : إِنَّ دِينِي وَسُلْطَانِي سَيْبُلُغُ مَا بَلَغَ مَلْكَ كُسْرَى ... » ، فَأَرَّخَا ذَلِكَ عَنْهُمَا ، ثُمَّ رَجَعَا سَرِيعًا إِلَى الْيَمِنِ ، فَقَصَّا عَلَى بَادَنَ مَا تَبَنَّبَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ . فَقَالَ بَادَنَ : وَاللَّهِ مَا هَذَا بِكَلَامِ مَلِيكٍ ، إِنِّي لَأَرَى الرَّجُلَ نَبِيًّا كَمَا يَقُولُ ، احْصُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ^(٤٨) ، فَإِنْ ظَهَرَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ فَهُوَ نَبِيٌّ مَرْسُلٌ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَسَرِي فِيهِ رَأْيِنَا .

فلم يلبث بادان أن قدم عليه كتاب شIROYIه : أمّا بعد ، فإنّي قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما استحلّ من قتل أشرافهم . فإذا جاءك كتابي هذا ، فخذ لي الطاعة من قبلك ، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك - يعني رسول الله ﷺ - فلا تنهه وأكرمه حتى يأتيك أمرني فيه .

فَلَمَّا انتهى كتاب شIROYIه إلى بادان ، قال : إن هذا الرجل لرسول ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد الين^(٤٩) .

وبعد هذا ، هل عبارة : « ولكن كسرى قتل ابنه قبل أن يقوم عامل الين بتنفيذ ذلك الأمر الصعب » صحيحة ؟ أمْ قام عامل الين بتنفيذ ذلك الأمر الصعب ، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل كيد كسرى أبرويز في نحره ؟ !؟

(٤٨) التي تبأّها ﷺ بقتل أبرويز ، وهي يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة سنة ٧ هـ ، وذلك بعد فتح خير بثلاثة أشهر تقريباً .

(٤٩) الطبرى ٦٥٥/٢ . الكامل في التاريخ ١٤٥/٢

- ١٥ -

«ويقال إنَّ مُحَمَّداً كان قليل التَّعْلِيم ونرجح ذلك ، وإنَّ وجدتَ في تأليف القرآن ترتيباً أكثر مما فيه ، ونرجح أيضاً أنَّ مُحَمَّداً لو كان عالماً ما أقام ديناً جديداً ، فالآمِيون وحدهم هُم الَّذين يعرفون كيف يُدْرَكُ أَمْرُ الْأَمِينِ» ،

[صفحة ١٤١]

وتساءل : متى كان الأنبياء يؤلفون الكتب ، ويرتبون الآيات ؟
وهل فعل الأنبياء قبل محمد ﷺ ذلك ، حتى يقول (لوبون) مثل هذا
القول ؟

ومadam مفَكِّر كبير ، وفيلسوف عظيم مثل (لوبون) يرجح أنَّ مُحَمَّداً ﷺ
قليل التَّعْلِيم ، فهل يأتي زجل قليل العلم بكتاب فيه من التَّشريعة الأخلاقية
والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ناهيك عن التشريعات الدينية والروحية ،
بمثل ما في القرآن الكريم ؟ ثمَّ تقول : إنَّه من عند مُحَمَّد !! كيف يستطيع أي
رجل ، ولو كان كثير العلم في مثل تلك الظروف ، وفي ذلك الوقت من
التَّاريخ ، أن يأتي بمثل ذلك الكتاب ، الَّذِي ما يزال معجزة الإسلام الباقية حتى
اليوم ؟

وهل أصبح المؤرخون الحكَم في أمر ترتيب كتاب الله ، حتى يحكموا على
دقَّة ترتيبه أو عدم ذلك ، وهل يصح قول (لوبون) بأنَّ مُحَمَّداً لو كان عالماً ما أقام
ديناً جديداً ؟ فهل إقامته للدين الجديد تعود إلى علمه أو عدمه ؟ محمد ﷺ
أخيه المسيح عليه السَّلام ، وكبَقَيَّة الأنبياء والرَّسُل الكرام ، جاء برسالة الله
يحملها إلى النَّاس ، ويبلغها لهم كما بلغَ إياها الوحي الأمين ، فلماذا نعرف بأنَّ
يحمل السَّيِّد المسيح رسالة الله إلى البشر ، علماً بأنَّ المسيح عليه السَّلام رافق

- ٩٦ -

بعثته أمورٌ يرفضها العقل ويقبلها التسليم ، أقول : لماذا نؤمن هناك وننكر هنا .

نعم ، إنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ أَمِيٌّ ، لكنه جاء بما يُعجِّزُ العُلَمَاءَ ، وبما يفتح أمام عقول العُلَمَاءَ آفاقَ البحث والتَّفْكِيرِ . فكان بما جاء به معجزة خالدة أبد الدَّهْرِ ، لانقضى بموت صاحبها ، فليس شأنها شأن المعجزات والخوارق الَّتِي أمست تاريناً ليس غير .

يقول سبحانه في حكم التَّنْزيل : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّا إِلَيْهِ أَنَّا نَنْذِرُ مَبْيِنًا ☆ أَوَلَمْ يَكُفِّهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ يَتَلَقَّى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرْحَمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، [العنكبوت ٥٠/٢٩ و ٥١] .

- ١٦ -

« وضعف محمد الوحد هو حبه للنساء ، فقد قال : « حبّه إلى من دنياكم ثلاثة : الطيب والنساء ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة » .

ولم يبالِ مُحَمَّد بسنِ المرأة التي كان يتزوجها ، فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنوات ، وتزوج ميمونة وهي في السنة الحادية والخمسين من عمرها .

وأطلق محمد العنان لذلك الحب ، حتى إنَّه رأى اتفاقاً زوجة ابنه بالتبنّي وهي عارية ، فوقع في قلبه منها شيء فسرّحها بعلها ذلك ليتزوجها محمد ، فاغتمَ المسلمين ، فأوحى إلى محمد ، بواسطة جبريل الذي كان يتصل به يومياً ، آياتٌ تُسَوِّغ ذلك ، فانقلب الانتقاد إلى سكتوت » ، [صفحة ١٤٢] .

ومع أنَّ العلامة لوبيون يقول في الصفحة ذاتها [صفحة ١٤٢] : « الشرقيون لا يرون إفراطاً في ذلك » ، وقع في أغلاط كثيرة في عباراته وأرائه السابقة ،

غوستاف لوبيون (٧)

- ٩٧ -

ولو أنصف لقام بدراسة موضوعية لمحمد عليه السلام ، فيما يتعلّق بالنساء ، ولو أنصف لتحدّث عن عفته عليه السلام في شبابه ، وقبل زواجه ، وقد أشار فيها كتب إلى اقتصاره عليه السلام على زوجة واحدة حتّى بلغ التمسين من عمره ، أليس في هذه الأقوال مؤشر عن محمد عليه السلام وعن علاقته بالنساء ؟! أليس في هذه الأقوال ما يدعو إلى دراسة ما ورد عن زواجه عليه السلام من عدد النساء ليس في معظمها ما يغري بالزواج منها ؟!

عوده إلى دراسة ظروف زواجه عليه السلام من كلّ منها ، وعلى ضوء البيئة التي كان يعيش فيها ، والمجتمع وعاداته وتقاليد آنذاك ، وما رافق زواجه عليه السلام من أمور تاريخية وشرعية . تتوضّح للدارس أمور غير مانظر في بال وخطر الإلحاد العادي .

أولاً : إننا أمام نبيٍّ كريم ، فتحت له ميادين المتع كلّها ، فعفّ عنها .

ثانياً : المسلم مقيد في حواره مع المستشرقين والمبشرين الصليبيين بعقيدة في صلبها احترام أنبياء الله جميعاً ، من آدم إلى عيسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام . ولكن في حوار طريف مع مستشرق حاقد قال : المسيح عاش بتولاً ، ورفع بتولاً ، وهذا غاية الكمال الذي تفرد به المسيح ، وليس في ذلك أيّ نوع من العجز الجنسي أو نحوه . فقيل لهذا المستشرق (الظريف) : وهذه هي عقيدة كلّ مسلم متزم بإسلامه ، تابع المستشرق طاعناً : أمّا محمد فقد تزوج تسعة زوجات ، وهذا دليل على فرط الميل الجنسي عنده ، فأجيب بما يلي : إنك ترفض أن يوصف السيد المسيح عليه السلام بالعجز الجنسي لأنّه لم يتزوج قط ، مع أنّ الزواج في عصره كان يتمّ في سنٍ مبكرة عند الشباب الطبيعيين جميعاً . وبناء على هذا ، ينبغي لك ألا تصف محمداً عليه السلام بأنه مفرط بالجنسية لأنّه جمع بين تسعة نساء ، بل عليك أن تتحرّى لماذا ومتى تزوجهنّ ، وهل هو الوحيد في زمنه ، أم جميع

الرجال آنذاك ، ليكون حكمك سليماً منصفاً ، بعيداً عن التّعصب والمحقد والطّعن والتحيُّز !!

ثالثاً : أباح الإسلام تعدد الزوجات ، ولم يفرضه ، وشتان بين أباح وبين فرض ، وأباح بشرط العدل ، وجعل مجرد خوف الجور أو الظلم سبباً كافياً لمنعه ، علماً أن العرب قبل الإسلام أكثروا من التّعدد ، وبلا قيود .

وبعد هذا ، لنستعرض سريعاً زوجاته عليه عليه السلام ، وكيف عقد عليهنـ ^(٥٠) :

١ - خديجة بنت خوئيلد : تزوجها عليه عليه السلام وكان عمره خمساً وعشرين سنة ، وهي في الأربعين من عمرها ، ولم يتزوج غيرها حتى توفيت ، وكان عليه عليه السلام عندها في الخمسين من عمره ، ومع أنه عليه عليه السلام كان في عنفوان شبابه بين ٤٠ - ٢٥ لم يتزوج غيرها ، وكان يقول كلما ذكرت : « والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي حين كفر الناس » وصدقني إذ كذبني الناس ، واستمني بالهمـا إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء ^(٥١) .

٢ - سودة بنت زمعة : كانت أمياً ، مات عنها زوجها عقب رجوعه من الحبشة ^(٥٢) ، وهي المسامة التي خالفت بني عمها وأقاربها ، تزوجها عليه عليه السلام تعويضاً ورحمة وحماية ، تعويضاً خيراً مما فقدت ، ورحمة بها بعد موت زوجها ولا حامي لها دون أقاربها وقد أسلمت رغم أنوثهم ، وحماية لها من أن تصلك إليها يد الأذى ، لقد مدّ عليه عليه السلام يده الرحيمـ إليها ، يسند شيخوختها فكان زواجهما أكبر سلوان لها ، فهل تزوجها عليه عليه السلام لحبه الطارئ للنساء ، أم لأنـه أطلق العنان لشهوته ؟ !

(٥٠) (سريعاً) ، لأننا عرضنا الموضوع منصلاً في الإسلام في قفص الاتهام ، المجلة السادسة عشرة ، (زوجات محمد) ، ص ٢٤٩ في الطبعة الخامسة ١٩٨٢ م .

(٥١) قال عنها عليه عليه السلام : « ما أبدلني الله خيراً منها » ، [أسد الغابة ٨٥/٧ ، الاستيعاب ١٨٢٣/٤ - ١٨٢٤] .

(٥٢) وهو ابن عمها : السكران بن عمرو ، [أسد الغابة ١٥٧/٧] .

علمًا أنَّ كُلَّ أُمِّيْمَ من نسَاء الصَّحَابَةِ ، كَانَتْ تُضْمَنُ إِلَى أُسْرَةِ إِسْلَامِيَّةٍ ، فَتَخَطَّبَ فَوْرَ اِنْتِهَاءِ عَدَّهَا ، لِحَمَائِتِهَا ، وَحِمَائِتِهَا أَبْنَائِهَا ، وَبِالْتَّالِي حِيَاةُ الْجَمَعِ وَسَلَامَتِهِ ، وَهَذَا يَفْسُرُ مَا نَجَدَهُ فِي تِرَاجُهِنَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ ، أَنَّ فَلَانَةَ تَزَوَّجَتْ فَلَانًا ، ثُمَّ مَاتَ عَنْهَا فَتَزَوَّجَتْ فَلَانًا ، ثُمَّ مَاتَ عَنْهَا فَتَزَوَّجَتْ فَلَانًا ... وَمَثَالُ ذَلِكَ :

أُسَمَّاءُ بُنْتُ عَمَيْسٍ ، زَوْجُهَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَلَمَّا اسْتَشَهَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَزَوَّجَهَا أَبُو بَكْرُ الصَّدِيقُ ، ثُمَّ مَاتَ عَنْهَا فَتَزَوَّجَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٥٣) .
أُمَّامَةُ بُنْتُ أَبِي الْعَاصِ ، تَزَوَّجَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ فَاطِمَةَ ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا الْمُغَيْرَةُ بْنُ نُوفَلٍ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ اسْتَشَهَادِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥٤) .

جَيْلَةُ بُنْتُ عَبْدِ اللَّهِ ، تَزَوَّجَهَا حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ (غَسِيلُ الْمَلَائِكَةِ) ، فُقْتَلَ عَنْهَا يَوْمٌ أَحَدٌ ، ثُمَّ خَلَفَ عَلَيْهَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ بْنُ شَمَاسٍ ، فَمَاتَ عَنْهَا ، ثُمَّ خَلَفَ عَلَيْهَا مَالِكُ بْنُ الدُّخْنِ ، ثُمَّ خَلَفَ عَلَيْهَا حَبِيبُ بْنُ يَسَافٍ^(٥٥) .

حَمْنَةُ بُنْتُ جَحْشٍ ، كَانَتْ زَوْجَ مَصْبَعِ بْنِ عَمِيرٍ ، فُقْتَلَ عَنْهَا يَوْمٌ أَحَدٌ ، فَتَزَوَّجَهَا طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ^(٥٦) .

سَلَمَى بُنْتُ عَمَيْسٍ زَوْجُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ ، خَلَفَ عَلَيْهَا بَعْدَهُ شَدَّادُ بْنُ أَسَمَّةِ الْلَّيْثِيِّ بَعْدَ اسْتَشَهَادِ حَمْزَةِ فِي أَحَدٍ^(٥٧) .

فَاطِمَةُ بُنْتُ الْوَلِيدِ بْنِ عَتَّبَةَ ، امْرَأَةُ سَالمِ مَولَى أَبِي حَدِيفَةَ ، لَمَّا اسْتَشَهَدَ عَنْهَا سَالمُ يَوْمَ الْيَامَةِ تَزَوَّجَهَا بَعْدَهُ الْحَارِثُ بْنُ هَشَامَ بْنُ الْمُغَيْرَةِ الْمَخْرُومِيِّ^(٥٨) .

(٥٣) أَسْدُ الْفَابِةِ ١٤/٧

(٥٤) الْمَرْجَعُ السَّابِقُ ٢٢/٧

(٥٥) الْمَرْجَعُ السَّابِقُ ٥٤/٧

(٥٦) الْمَرْجَعُ السَّابِقُ ٦٩/٧

(٥٧) الْمَرْجَعُ السَّابِقُ ١٤٨/٧

(٥٨) الْمَرْجَعُ السَّابِقُ ٢٣١/٧

أم حكيم بنت الحارث ، لما استشهد عنها عكرمة ، تزوجها خالد بن
 (٥٩) سعيد .

٣ - عائشة بنت أبي بكر : كانت عائشة مخطوبة لجبير بن المطعم بن عدي ، وهي ناضجة من حيث الأنوثة ، وتزوج عليه السلام عائشة ، « ولم تدهش مكّة حين أعلن نبأ المصاورة بين أعزّ أصحابي ، وأوفي صديقين ، بل استقبلته كاستقباله أمراً طبيعياً مقرراً » ولم يجد فيها أيّ رجل من أعداء الرسول أنفسهم موضعاً لمقابل ، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألدّاء أن يتّخذ من زواج محمد - عليه السلام - من عائشة مطعناً أو منفذًا للتّجريح والاتهام ، وهم الذين لم يترکوا سبيلاً للطّعن عليه إلّا سلكوه ، ولو كان عبثاً وہتاناً «^(٦٠) .

ولم تكن عائشة أول صبيّة تُزف إلى رجل أكبر منها بكثير ، ولن تكون كذلك أخراهن في بيئة الحجاز آنذاك . فيجب الانتباه إلى نضوج الفتاة في المناطق الحارّة بسن مبكرة جدّاً ، وهو من الثّامنة ، وتتأخر الفتاة في المناطق الباردة إلى سن الواحدة والعشرين .

٤ - أم حبيبة ، رملة بنت أبي سفيان : تزوجها عليه السلام وهي بالحبشة^(٦١) ، تعويضاً لها عما قاسته من الصاعب والأهوال ، بعد أن تنصر زوجها في الحبشة ، لقد اختارها عليه السلام لنفسه لماتتها في قومها ، ولو أنها زُوّجت بغير كفء لاتّخذ بنو

(٥٩) المرجع السابق ٣٢١/٧

(٦٠) نساء الْيَهُودِ ص ٦٤

(٦١) قالت أم حبيبة : ماشررت إلّا برسول النّجاشي جاريّة يقال لها أبرهة .. تقول : إنّ الملك يقول لك إنّ رسول الله عليه السلام كتب إليّ أن أزوجكه ، فقلت : بشرك الله بخيّر ، قالت : ويقول لك الملك وَكَلِي من يزوجك ، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص بن أمية فوَكَلتَه ، وأعطيت أبرهة سواريْن من فضة كانت علىِ ، وخواتيم كانت في أصبعي ، سروراً بما بشرتني به .. [أسد الفتى] ٢١٥/٧ .

أمّيَة ذلك شبهة يوغرُون بها صدور بيوتاتهم ، ويحرشونهم بال المسلمين في مكّة على
قتلهم وضففهم .

لقد جمع ﷺ شملها ، وأنس وحشتها ، وفتح باب مودة بينه وبين ألد
أعدائه ، فهو زواج سياسي ، أراد منه أن يجلب زعيم مكّة إلى الودّ بالصاهرة ،
لذلك قال أبو سفيان عندما سمع بهذا الزواج : « وهذا الفحل لا يمْدِع أنفه ».
وكانت أم حبيبة عندما تزوجها ﷺ في الأربعين من عمرها أو أكثر ، فأين
أطلق العنان لشهواته ؟ !

٥ - جويرية بنت الحارث : كان زواجه ﷺ منها لأغراض سياسية ، لقد
أراد ﷺ الانتفاع بالصاهرة ، واتّخذها وسيلة لاجتذاب قلوب القبائل .

أسرت جويرية في غزوة بنى المصطلق^(٦٢) ، فلاذت هي برسول الله ﷺ ،
وغمّرها فرحة عامرة عندما عرض عليها الزواج ، فما من امرأة أعظم على قومها
بركة منها ، لقد قال المسلمون : « أصهار رسول الله » ، فأعْتَقت بزواجهما من
رسول الله ﷺ أهل مئّة بيت من بني المصطلق ، وأسلم والدها عندما
حدّثته عن مكارم أخلاق رسول الله ، وصاح بصوت جهير بالشهادتين :أشهد أن
لإله إلا الله ، وأنّك محمد رسول الله .

وجويرية لم تكن بكرًا عند زواجهما من رسول الله ﷺ ، لقد كانت متزوجة
من قبل ، فأين أطلق العنان لشهواته بعد هذا الزواج السياسي المبارك .

٦ - صفية بنت حبيبي : عقيلة بني النمير ، يهوديّة من سبي خيبر ، أسلمت
وحسن إسلامها .

(٦٢) بنو المصطلق : وهم بنو جذية بن كعب من خزاعة ، وجذية هو المصطلق « من الصّلق وهو رفع الصوت ، انظر : الرّوض الأنف ١٧٤ ، ابن هشام ١٨٢٣ ، البداية والنهاية ١٥٦٤

من المعروف أنَّ التَّارِيْخُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ ، حاول الأنبياء نسخه من قبل فلم يفلحوا ، فالثَّارِيْخُ اُمْرٌ راسخٌ في نفوس العرب ، وأشربته قلوبهم ، فجاءت عقود رسول الله ﷺ لربط كثير من القبائل بعضها إلى بعض ، وأطْفَأَ سورة ما في صدورها من العلَّ وَالضَّائِقَ .

وكانَتْ صَفَيَّةً قد تزَوَّجَتْ سَابِقًا مَرْتَيْنِ ، مِنْ سَلَامَ بْنَ مَشْكُمْ ، ثُمَّ خَلَفَ عَلَيْهَا كَنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ ، فَأَيْنَ أَطْلَقَ الْعَنَانَ لِشَهَوَاتِهِ .

٧ - حَفْصَةُ بْنَ عَمْرٍ : الصَّوَامِةُ الْقَوَامَةُ ، تَوَفَّتْ عَنْهَا زَوْجُهَا خَنَّيسُ بْنُ حَذَافِهِ السَّهْمِيِّ . فَأَرَادَ عَمْرٌ أَنْ يَزْوِجَهَا أَبِي بَكْرَ الصَّدِيقَ ، أَوْ مِنْ عَمَّانَ ، فَعَرَضَهَا عَلَيْهَا فَلَمْ يَقْبِلَا ، فَقَالَ عَمْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ مَا لَقِيَ مِنْ إِعْرَاضِهِما ، فَابْتَسَمَ ﷺ وَقَالَ : « يَتَزَوَّجُ حَفْصَةً مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ عَمَّانَ » ^(٦٣) .

وَبَارَكَتْ الْمَدِينَةُ الْمُنْوَرَةُ الْيَدَ الْيَتِيمَةَ امْتَدَتْ لِتَأْسُو جَرْحَ حَفْصَةَ ، وَلِتَجْعَلْ عَمْرَ يَفْتَحُ وَيَتَبَاهِي بِتَطْبِيبِ خَاطِرِهِ ، فَأَيْنَ أَطْلَقَ الْعَنَانَ لِشَهَوَاتِهِ ؟

٨ - أُمُّ سَلَمَةَ ، هَنْدُ بْنَتِ أَبِي أُمِيَّةَ بْنِ الْمَغِيرَةِ : هَاجَرَتْ إِلَى الْحِشَّةِ ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى مَكَّةَ ، وَهَمَّتْ بِالْهِجَرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلَكِنَّ الْمُشَرِّكُونَ مِنْ بَنِي الْمَغِيرَةِ مَنْعَوْهَا مِنَ الْهِجَرَةِ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهَا سَلَمَةَ وَهُمْ يَتَنَاهُونَهُ مِنْ حَجَرِهَا ، وَبَعْدَ عَامٍ قَضَاهُ بِالْبَكَاءِ ، فَابْنَاهَا فِي جَانِبِهِ ، وَهِيَ فِي جَانِبِ آخَرِهِ ، وَزَوْجُهَا فِي الْمَدِينَةِ ، رَقَوْا لَهَا ، وَانْطَلَقَتْ إِلَى زَوْجِهَا بِالْمَدِينَةِ ، وَلَيْسَ مَعَهَا أَحَدٌ مِنَ الْخُلُقِ ، ثُمَّ تَوَفَّتْ عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ أُمٌّ لِأَوْلَادٍ ، فَطَلَبَهَا الصَّدِيقُ فَرَفَضَتْ ، وَتَلَاهُ عَرْفَأُبْتَ ، ثُمَّ خَطَبَهَا ﷺ وَهِيَ مُسِنَّةٌ ذَاتِ عِيَالٍ ، فَرَعَاهَا وَرَعَاهَا عِيَالُهَا ، وَبَلَغَ فِي إِعْزَازِهَا وَإِعْزَازِ عِيَالِهَا ، أَنَّهُ اخْتَارَ لِدَهَا سَلَمَةَ زَوْجًا لِابْنَةِ عَمِّهِ حَمْزَةَ سَيِّدَ الشَّهَادَةِ ، فَأَيْنَ أَطْلَقَ الْعَنَانَ لِشَهَوَاتِهِ ؟

٦٣) أَلْدَ النَّابَةُ

٩ - زينب بنت جحش : « حتى إن رأى زوجة ابنه بالتبني وهي عارية ، فوقع في قلبه منها شيء فسرّها بعلها ذلك ليتزوجها محمد .. » ، هذا ما قاله (لوبون) عن زواج النبي عليهما السلام بزينب ، والقصة مرفوضة عقلاً وشرعياً ، للأسباب التالية :

١ - زينب بنت عمّه ، رُبّت تحت نظره ، وعملها برعايته ، وكان يعرفها ويراها ، ولا يخفى عليه شيء من محسنها الظاهرة .

٢ - وهو عليهما السلام الذي اختارها لولاه زيد بن حaritha زوجة ، ولم يبال يابائها ورغبتها عن زيد .

٣ - لو كان للجمال سلطان على قلبه عليهما السلام لكن أقوى سلطان عليه جمال البكر في روائه ونضرة جدّته .

٤ - كيف يتدّ نظره إليها ، ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لولاه ، يرفض العاقل مثل هذا المؤمن عادي ، أن ينظر إلى زوجة جاره أو صديقه نظرة بشهوة ، هذا قد يكون في المجتمع الغرباليوم ، أما في المجتمع الإسلام وبئته لا يكون .

فزواج زينب تقرير شرع ، وتنفيذ حكم إلهي ، ذلك أن التصاق الأدعية بالبيوت ، واتصالهم بأنسائهم كان أمراً تدين به العرب ، فكانوا يعطون الدعوي جميع حقوق البن ، ويُجرون عليه وله جميع الأحكام التي يعتبرونها للبن حتى من الميراث ، وحرمة النسب ، فهدمت قاعدة التبني قولًا وفعلاً^(٦٤) .

لقد حافظ عليهما السلام على كرامتها بعد زواجهما من مولى ، وهي ابنة أميمة بنت عبد المطلب ، لقد كانت تقول : « أنا سيدة أبناء عبد شمس » ، وحطّم فوارق الطبقات .

(٦٤) الإسلام دين الفطرة والحرث ، للشيخ عبد العزيز جاويش ، كتاب الملال ، العدد ١٨

فزواج زينب أمر تشرعي في الدّرجة الأولى . وجبر خاطر مكسور عندما أصبحت (أم المؤمنين) من ناحية ثانية .

كما تزوج عليها السلام زينب بنت خزيمة (أم المساكين) ، وهي أرملة شهيد ، استشهد في أحد ، وبقيت عنده ثلاثة أشهر أو ثانية فقط ، ثم ماتت ، وتزوج مارية القبطية ، هدية المقوس عظيم مصر ، وكان لهذا الزواج صلة رحم مع مصر : « استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما » .

وأخيرا .. اتهموا رسول الله عليه السلام بالليل إلى النساء بشهوة جياحة ، مع أنه لم يكن عليه السلام الوحيد في عصره الذي تزوج من عدد من النساء ، إنه العصر وظروفه ، فأبوا بكر تزوج أربع نساء ، وتزوج عمر سبع نساء ، وتزوج عثمان ثالثي نساء ، وتزوج علي ثانى نساء أيضا ^(١٥) .

وإذا أطلعنا على تراجم رجال ذاك العصر ، لرأينا هذا الزواج متعارفاً عليه ، ولم يكن فيه غضاضة ، فهل أطلق العصر كله العينان لشهواته !!

- ١٧ -

« ولم يثبت تماماً وفاء زوجات محمد الكامل له ، ويظهر أنَّ محمد لا ينافيه من المكاره الزوجية ما ينذر وجوده عند الشرقيين » . ويكثر وقوعه لدى الأوروبيين » وكانت عائشة « على الخصوص » موضوع قلق له ، وأصبحت ذات مرأة موضع قالة سوء ، فشهد جبريل « الحبُ للخير على الدِّوام ، بعصتها ، فَدُونَتْ شهادته في هذه المسألة الحساسة في القرآن ، فَخَطَرَ الشَّكُّ » ، [صفحة ١٤٢] .

نستغرب هذا التشكيك بوفاء زوجات الرسول عليه السلام ، خصوصاً وقد صدر عن (لوبون) الذي كان نعتقد بعده عن الأحكام المتعصبة والحاقدة ، البعيدة عن

(٦٥) انظر أسماءهن في : (الإسلام في قفص الاتهام) ، ص ٢٧٥

الحقيقة التّارِيخيَّة ، إذ لم يرد في أيٍّ مصدر من مصادر تاريخ العرب والإسلام ، وكتب السّيَّرة أيضاً مثل هذا القول ، بل ورد الكثير ممّا يتنافي مع هذا القول ويعارضه ، ولا ندري من أين أتى (لوبون) بأخبار المكاره الزُّوجيَّة لمحمد عليه السلام ، وأخباره تذكر أَنَّه كان على أحسن علاقات مع زوجاته ، وكُنْ على مثل ذلك معه .

ولا ندري من أين جاء (لوبون) بموضوع قلق محمد عليه السلام من زوجته عائشة ، وكانت حياته معها تكتنفها السُّعادَة الزُّوجيَّة لها جميعاً ، لكن الجهل ، ونستبعد الحقد والتُّعصُّب ، هو الذي أوصل مؤرخنا الفيلسوف إلى ماوصل إليه في هذا الرأي .

حادثة واحدة حديثة لعائشة ، ويُكَنَّ أن تحدث لأيَّة زوجة أخرى في مثل ذلك الظُّرف ، فبني عليها المفترون مابنوه ، وليس هناك مايسئها في تلك الحادثة إلَّا أقوال السوء التي أشاعها المنافقون بزعامة عبد الله بن أبي بن سلول في مجتمع المدينة المنورة .

خرج ابن أبي بن سلول مع رسول الله عليه وسلم وال المسلمين إلى ماء المريسيع لرَدِّ بني المصطبلق ، فأثار أكثر من مشكلة ، ونطق بكلام دنيء ، حتى جاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله عليه وسلم وقال : إنه قد بلغني أَنَّك ت يريد قتل أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنتَ فاعلاً ، فربني أن أحمل لك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا .

فأجاب عليه السلام : « ما أردت قتله ، ولا أمرت به ، ولنحسن صحبته ما كان بين أظهرنا » ، وقبل الدُّخُول إلى المدينة المنورة ، وقف الابن في وجه أبيه وقال له : والله لا تدخل حتى تقرَّ أَنَّك الذليل وأنَّ رسول الله عليه وسلم العزيز ، وحتى يأذن لك رسول الله عليه وسلم ، ولتعلم أيضاً الأعزَّ من الأذلّ ، أنت

أو رسول الله ﷺ ، فقال له أبوه : أنتَ من بين النّاس ، أشهد أنَّ العِزَّة لِلله ولرسوله وللمُؤمنين ، وصار يقول : لأنَّا أذلُّ من الصّيّان ، حتى قال ﷺ لابنه : خَلْ عن أبيك .

ونتيجةً لقد عبد الله بن أبي بن سلول ، اخترق قصّة الإفك بعد دخوله المدينة المنورَة ، عندما تأخرت عائشة بمجاجتها ، وسقط عقد لها وهي في طريقها ، فرجعت إليه تلقسه ، فأبطرأت عن الرَّكب ، فعادت مع صفوان بن المعطل ، الذي كانت مهمته على السَّاقية وراء الرَّكب يلتقط ما عسى أن يكونوا قد خلقوه من متعة ، ودخل المدينة وضج النَّهار عند الظَّهيرَة ، فلما رأى ابن أبي بن سلول ذلك قال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتَّى أصبحت ، ثمَّ جاء يقودها ، فجرَ بها وربَّ الكعبة ، ما برأته منها وما برىء منها ، والله ما نجت منه ولا نجا منها^(٦١) ، وراح المنافقون يرُوجون الإشاعة .

إنَّ الَّذِي جرَى أمر طبيعِي سَيِّدة فاتحها الرَّكب ، فأدركتها تابع الرَّكب فأجارها حتَّى ردَّها إلى مأْمنها ، أما هاجرت أم سلمة من مَكَّة إلى المدينة ، وليس معها إلَّا ولديها الطَّفل ، فلما رأها عثمان بن طلحة على هذه الحال ، أبَت عليه المروءة - وهو مشرك - أن يتركها وحدها في هذه الصَّحراء ، فاصطحبها في رحلته حتَّى أوصلاها إلى المدينة ثمَّ عاد ، فما تحدث أحدٌ من أهل المدينة في شأنها ، ولا في شأن عثمان بن طلحة ، رغم ما كان من تلك الرَّحلة من سعة الوقت ، وتعدُّد الفرص لمن أراد أن ينتهز فرصة .

الحقد والحسد والضَّغينة أكلت قلب ابن أبي بن سلول ، وملاذه غيظاً على الإسلام ورسوله ، ودفعت به إلى هذا الموقف الدُّنيء ، وهو صاحب المواقف

(٦١) يلاحظ قوله : امرأة نبيكم ، فهو لا علاقة له ، لذلك لم يقل : امرأة نبينا ، مع التوكيد وتكراره لعبارات عديدة ، معناها واحد .

المعروفة مغيبةً مُحْنِقاً ، أصابته مذلةً وهوان حتى من ابنه ، فدخل المدينة ونفسه تفقر من الغيظ على رسول الله ﷺ ، فجعل يتلمس فرصة ينفّس بها عما يعيش في نفسه ، فما كاد يرى عائشة وصفوان عائذين حتى وجدها أحسن فرصة يطلق فيها الوشاية ، ويشعل الفتنة التي عجز عن إشعالها بين المهاجرين والأنصار ، فراح يطلق لسانه بالإفك ليحقق الواقعية بين رسول الله ﷺ وأقرب المؤمنين إليه أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ولتشكيك المسلمين في كرامة نبيهم ، وإثارة فتنة بين المسلمين بشكل عام .

وهذه الفريدة لا تجوز حتى على امرأة ساقطة ، إذ لا يكن لامرأة ، منها يكن من حقها وسفاهتها ، أن تجاهر بأمرها هذه المجاهرة ، وأن تأتي هكذا في وضع النهار ومعها رفيقها ، فتكشف ما خفي من مستور أمرها ، وتعلن على أعيان الناس أنها قد أتت متأتت ، وفعلت مافعلت ، فإن في غريزة المرأة ، منها سقطت ، نزوعاً طبيعياً إلى التجمُّل للناس ، والظهور أمامهم في أكمل مظهر تستطيعه ، حتى لا يزهد الناس فيها ، على الأقل ، إذا هي أعلنت حقيقتها ، فهل يكون من الجائز أن تجاهر بذلك هنا عائشة أم المؤمنين ، المثل الأعلى للمؤمنات ؟

من أجل هذا لم يكتف القرآن الكريم بتکذيب الفريدة ، ونفي التُّهمة عن عائشة ، بل عالج الموقف من نواحيه جميعها ، علاج الحكمة البالغة التي تصون للأعراض الطَّاهرة حرمتها ، وقطع على الألسنة الكاذبة طريقها ، وتحفظ المجتمع الإسلامي سمعته وكرامته^(٦٧) .

ونقول لمؤرخنا الكبير : هل يجوز لإنسان ما أن يفترى على امرأة رآها في ظرف معين مع رجل غريب ، فيتهمنها بشرفها ؟ فكيف إذا كانت هذه المرأة

(٦٧) صور من حياة الرسول ، ص ٤٠٨ وما بعدها .

زوجة لرسول كعائشة ، أو أُمّا لنبِيٍّ كريم ، إِنَّ عائشة بِرَأْهَا ربُّ السَّمَاء ، وليس جبريل ، كَا بِرَأْ مريم ربُّ السَّمَاء مَمَّا اتَّهمَها به اليهود .

- ١٨ -

« وَكَانَ مُحَمَّدٌ قَلِيلُ الْمَسَاحَةِ نَحْوَ النِّسَاءِ ، مَعَ ضَعْفِهِ نَخْوَهُنَّ ، وَهُوَ ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ فِي شِدَّتِهِ دَرْجَةَ رِجَالِ التُّورَاةِ ، وَصَفْهُنَّ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُنَّ يَتَشَانُونَ فِي الْحِلْلِيَّةِ ، وَيَخَاصِمُنَّ مِنْ غَيْرِ سَبِبٍ » [صفحَةٌ ١٤٣] .

ما ذَا يَرِيدُ (لوبون) مِنْ قَوْلِهِ بِأَنَّ مُحَمَّداً عَلَيْهِ الْكَفَافُ قَلِيلُ الْمَسَاحَةِ نَحْوَ النِّسَاءِ ؟
هَلْ كَانَ عَلَيْهِ غَيْرُ مُتَسَاهِلٍ مَعْهُنَّ ، وَمُتَسَاهِلٌ مَعَ الرِّجَالِ ، مَعَ ضَعْفِهِ
نَخْوَهُنَّ ؟ !

ما كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الْكَفَافُ مُتَسَاهِلًا أَوْ مُتَشَدِّدًا لَا مَعَ الرِّجَالِ ، وَلَا مَعَ النِّسَاءِ ، إِنَّهُ كَانَ
نَبِيًّا يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَنْفَذُ فِي تَعْمَلِهِ مَعَ هُؤُلَاءِ وَأَوْلَئِكَ إِرَادَةُ اللهِ
وَتَشْرِيعُهُ ، الَّذِي بَعَثَهُ بِهِ لِيَتَمَّ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ .

أُمّا عِبَارَةُ (لوبون) : « مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ فِي شِدَّتِهِ دَرْجَةَ رِجَالِ التُّورَاةِ ... »
فَهِيَ مَرْفُوْضَةٌ قَطْعًا ، فَلَا وَجْهٌ لِلْمَقَارِنَةِ ، أَوْ التَّشَابِهِ هُنَا مَطْلَقًا ، فَالمرأةُ فِي
الْتُّورَاةِ غَيْرُهَا كُلًّيًّا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

عِنْدَ « رِجَالِ التُّورَاةِ » : « وَقَالَ لَآدَمَ لِأَنَّكَ سَعَتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنْ
الشَّجَرَةِ الَّتِي أُوصَيْتُكَ قَائِلًا لَا تَأْكُلُ مِنْهَا مَلْعُونَةُ الْأَرْضِ بِسَبِيلِكَ ، بِالْتَّعْبِ تَأْكُلُ
مِنْهَا كُلًّا أَيَّامَ حِيَاكَ » وَشُوكًا وَحْسَكًا تُبَيِّنُ لَكَ وَتَأْكُلُ عَشَبَ الْحَقْلِ » ، [سُفَرُ
الْتَّكَوِينِ ١٧/٣] .

وَعِنْدَ « رِجَالِ التُّورَاةِ » : « وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ ، وَهُوَ يَسُودُ
عَلَيْكِ » [التَّكَوِينِ ١٦/٣] .

- ١٠٩ -

وعند ■ رجال التّوراة ■ : « دُرْتُ أَنَا وَقْلِي لِأَعْلَمْ وَلَأَجْبَحْ وَلَأَطْلَبْ حَكْمَةً وَعَقْلًا ، وَلَا عِرْفَ الشَّرِّ أَنَّهُ جَهَالَةً ، وَالْمَحَاكَةُ أَنَّهَا جَنُونٌ ، فَوُجِدَتْ أَمْرًا مِنَ الْمَوْتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي هِي شَبَاكٌ ، وَقَلْبُهَا أَشْرَاكٌ ، وَيَدَاهَا قِيَوَادٌ ، الصَّالِحُ قَدَامَ اللَّهِ يَنْجُو مِنْهَا ، أَمَّا الْخَاطِئُ فَيُؤْخَذُ بِهَا .. » ، [الجامعة ٢٥/٧ و ٢٦] .

أمّا في الإِسْلَام ، فَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ، وَفِي الْقُرْآنِ الْمُجِيدِ :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة ٢٢٨/٢] .

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ، [البقرة ١٨٧/٢] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوْدَةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، [الرُّوم ٢١/٣٠] .

ولسنا هنا في معرض تقديم بحثٍ واسعٍ عن الإِسْلَام والمرأة ، ومكانتها عند الشرائع المختلفة مقارنة ، ويكتفينا القول أنها في الإِسْلَام (المُحْصَنَة) ، وليس (أَحْبَلَةُ الشَّيْطَانِ أَوْ بَابِهِ) كَمَا هي في الأديان الأخرى .

لقد رفع الإِسْلَام المرأة من الدُّرُكِ الأسفل إلى مستوى يكافئ مستوى الرجل ، وسما مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها إلى مكان رفيع الدُّرُجِ لم تحل به من قبل ، إلى مكان لا مطمعٍ بعده لمستزيد^(٦٨) ، مع الوصيَّة الدائمة بالنساء خيراً ، كيف لا ، وقد جاء القرآن الكريم يزفُ إليها البشرى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ .. ﴾ ، [الزُّخْرُف ٤٣/٢٠] .

- ١٩ -

« وَلَمْ يَقُلْ مُحَمَّدٌ إِنَّهُ يَأْتِي بِالْحَوْارِقَ مَعَ إِيمَانِهِ بِرِسَالَتِهِ ، وَعَزَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِ »

(٦٨) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص ١٩٢ وما بعدها .

خوارق كثيرة مجازةً للقول الشائع بأن لانبوبة بغير خوارق . وإليك قول مسيو كازميرسكي الوجيز :

انشقَ القمر بطلبه ، ذات مرّة ، فرقتين على مشهد من الملا ، ووقفت الشمس بدعوته على الجبال حتّى يؤدّيَ عليٌ صلاة العصر ، بعد أن أفاق النبيُّ من غفوةٍ ورأسه على رُكْبَتِيْ عَلَيْ ، الذي أخبره بأنَّه لم يؤدّها حرصاً على راحته ، وكان يظهر ، وهو المعتمد القامة ، أطول من كلّ شخص يسير بجانبه ، وكان النور يسطع من وجهه ، ويُشعُّ من بين أصابعه حين يضع يده على وجهه . وكانت الحجارة والأشجار والنباتات تسلّم عليه ، وتنحنى أمامه ، وكانت الحيوانات كالظباء والذئاب والضباب والجديان تتكلّمه ، وكان الجنُّ يخافونه ويؤمنون برسالته لما له من السُلطان المطلق عليهم ، وكان يرى البصر للعميِّ . ويشفي المرضى ، ويجي الموتى ، وأنزل من السماء مائدة لعليٍ وأسرته حين جاعوا ، وأنبأ بأن ذرية فاطمة سينالها جُورٌ وغُدوان ، وبأنَّ ملكَ بني أميّة سي-dom ألف شهر ، فحدث كما أخبر ، إلخ » ، [صفحة ١٤٢] .

غوستاف لوبيون عالم كبير ، وهو يعلم أنَّ الكتابة عن رجل عظيم مثل محمد ﷺ لا تؤخذ من أفواه العامة من الناس ، أكانوا من أتباعه ، أو من غير أتباعه ، وإنما تؤخذ من مصادر تثبت صحتها . ومن روایات صحت بالتواتر والإسناد الصحيح . فإذا كان بعض المسلمين قد عزوا إلى محمد ﷺ الكثير من العجزات والخوارق ، فعليه أن يمحّص القول .

إنَّ معجزة محمد ﷺ باعتباره آخر الأنبياء والرُّسل ، معجزة خالدة أبد الدّهر ، لا تنتهي بوفاته ﷺ ، إنَّ معجزات الأنبياء السابقين ذهبت بذها بهم ، ورأها من عاصرهم . وصدقها دون أن يراها من أتى بعدهم ، أمّا معجزة محمد ﷺ فهي القرآن الكريم ، الكتاب المستر الإعجاز ، ففي كل فترة يرى العلماء فيه إعجازاً جديداً .

أَمَا مَا ذُكِرَ مِنْ خوارق ، فَلَا عَلَاقَةَ لَهَا بِالبَّتَّةِ بِإِيَّانِ الْمُسْلِمِينَ وَعَقِيدَتِهِمْ .
 وَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَقَى بِأَيَّةٍ مَعْجَزَةً خارقةً لِيُثْبِتَ بِهَا صَدَقَ دُعَوَتِهِ وَرِسَالَتِهِ ،
 إِلَّا مَعْجَزَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَمُعْظَمُ مَا ذُكِرَ (لَوْبُونَ) عَلَى لِسَانِ كَازِيَيرِسْكِيِّ .
 فَهِيَ أَمْوَارٌ مِنْ خِيَالِ كَاتِبِهَا . وَلَمْ يَسْعُ بِهَا الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ ، فَسِيرَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِيَةٌ
 مِنْ مُثْلِ هَذِهِ الْخَوَارِقِ ، فَلَمْ تَسْجُدْ لَهُ الْأَشْجَارُ ، وَلَمْ تَكُلْهُ الْحَيَّانَاتُ . وَلَا أَحْيَى
 الْمُوْتَىَ . وَلَا أَنْزَلَ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ .. حَتَّىَ وَلَوْ أَنَّ أَمْوَارًا خارقةً حَدَثَتْ لَهُ فِي
 حَيَاتِهِ ، فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَجْعَلْهَا آيَةً يَتَحَدَّى بِهَا ، وَيَدْعُ إِلَى إِيَّانِ اعْتِدَادِهِ عَلَيْهَا ،
 بَلْ كَانَ جَوَابَهُ لِمَنْ رَبَطَ بَيْنَ وِفَاءِ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ حَادِثَةَ كَسْوَةِ الشَّمْسِ ، الَّتِي
 حَدَثَتْ يَوْمَئِذٍ ، قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ،
 لَا يَنْكِسُفَانِ لَوْتُ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ »^(١٩) ، وَهُوَ بِذَلِكِ يَدْعُ إِيَّانِ بَسْنَةِ اللَّهِ
 وَقَوَانِينِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَيَدْحُضُ اعْتِقَادَاتِ الْعَامَّةِ فِي أَسْبَابِ الْكَسْوَةِ وَغَيْرِهَا ،
 وَبَيْنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الظَّوَاهِرَ الْطَّبِيعِيَّةَ وَالْكُوُنِيَّةَ لَا تَحْدُثُ لَوْتًا أَحَدًا أَوْ لِحَيَاتِهِ . بَلْ إِنَّهَا
 تَسِيرٌ بِحَسْبِ نَظَامٍ أَبْدَعَهُ مُبْدِعُ الْكَائِنَاتِ ، وَهُوَ بِذَلِكِ أَيْضًا يَبْنِي عَقْلَ الْإِنْسَانِ
 عَلَى مَفَاهِيمِ الْمَنْطَقِ السَّلِيمِ ، وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ .

- ٢٠ -

« الْقُرْآنُ هُوَ كِتَابُ الْمُسْلِمِينَ الْمَقْدُسُ ، وَدُسْتُورُهُمُ الدِّينِيُّ وَالْمَدْنِيُّ وَالسِّيَاسِيُّ
 النَّاظِمُ لِسِيرِهِمْ ، وَهُوَ الْكِتَابُ الْمَقْدُسُ قَلِيلُ الْإِرْتِبَاطِ ، مَعَ أَنَّهُ أَنْزَلَ وَحْيًا مِنَ
 اللَّهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَأَسْلَوبُ هَذِهِ الْكِتَابِ ، وَإِنْ كَانَ جَدِيرًا بِالذِّكْرِ أَحِيَانًا ، عَاطِلٌ
 مِنَ التَّرْتِيبِ ، فَاقْدَ السِّيَاقَ كَثِيرًا ، وَيَسْهُلُ تَفْسِيرَ ذَلِكَ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى كِيفِيَّةِ
 تَأْلِيفِهِ ، فَهُوَ قَدْ كَتَبَ بِالْحَقِيقَةِ ، تَبَعًا لِمَقْتضِيَاتِ الزَّمْنِ ، فَإِذَا مَا عَتَرَضَتْ مُحَمَّدًا
 مُعْضَلَةً أَتَاهُ جَبْرِيلُ بُوْحِيِّ جَدِيدًا حَلَّا لَهَا فَدَوْنَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ » .

[صَفَحةُ ١٤٨] .

(١٩) الْحَدِيثُ فِي الْبَخَارِيِّ عَنْ الْمَغْرِيِّ بْنِ شَبَّابٍ .

- ١١٢ -

« ويَعْدُ الْعَرَبُ الْقُرْآنَ أَفْصَحَ كِتَابَ عِرْفِهِ الْإِنْسَانِ ، وَمَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ مِبَالَغَةِ شَرْقِيَّةٍ ، نَعْرَفُ بِأَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ مُوزَوْنَةً رَائِعَةً ، مَا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ كِتَابٌ دِينِيٌّ آخَرٌ » ، [صَفَحَةٌ ١٤٩] .

عبارتان متناقضتان في مقطع واحد : « مَعَ أَنَّهُ أَنْزَلَ وَحْيًا مِنَ اللَّهِ عَلَى مُحَمَّدٍ » ، « وَيَسْهُلُ تَفْسِيرَ ذَلِكَ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى كَيْفِيَّةِ تَأْلِيفِهِ » ، تناقض ، كِتَابٌ دِينِيٌّ آخَرٌ من يقول : « دَائِرَةٌ مَرْبَعَةٌ » !!

وهل أصبح (لوبيون) أحد كبار علماء اللغة العربية ، وأحد أساطير الأدب العربي الذين أتقنوا معرفة أساليب الفصاحة والبلاغة والبيان . حتى يجعل من نفسه حكماً على أسلوب القرآن الكريم ، فيقول إنَّ في قول العرب عن فصاحة القرآن مبالغة أو غير مبالغة ، وإنَّ في آياته آيات موزونة رائعة لم يسبق إلى مثلها كتاب آخر ؟

إنَّ مثل هذا القول يُقبل من علماء العربية وجهابذتها ، ومن عرفوا كنافذ علياً في فقه اللغة وآدابها .

ويقول (لوبيون) : إنَّه كَتَبَ تبعاً لمقتضيات الزَّمْنِ ، ويضيف بأنَّ جبريل يأتي بوحِي ليحلَّ كُلَّ معضلة تواجهه الرَّسُول ﷺ ، إذن كان من الأجرد به أن يقول بأنَّ القرآن الكريم لم يؤلف تأليفاً ، بل نزل به الوحي الأمين - جبريل - على قلب محمد ﷺ ، فكان يتلوه على أصحابه ، فيحفظونه ويكتبونه ، فجاءت آياته حسب تطوير الأحداث وضرورات التشريع ، وأي حرج أو مأخذ في ذلك !؟

« وَلَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ فِي لِسُوفَاً كَبِيرَاً ، أَيُّ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ الْمُبَغِّرِينَ الَّذِينَ يَقَاسُونَ

بؤسسي دين البراهمة أو الديانة البُدَّهِيَّة^(٧٠) ، فهو لم ينكر سبب الأسباب كما أنكر البُدَّهِيُّون . ولم يقل مثلكم بأنَّ الكون موجود بالضرورة ، ذو اخلال وتركيب دائمين ، ولم يتَّصف بنصف ما عند مؤلِّفي كتب البراهمة المقدَّسة من الشك ، ولم يدخل إلى القرآن مثل التأملات الآتية التي تجدها في كتب الوديا - الفيدا - :

مِنْ أَينَ أَتَى هَذَا الْكَوْنُ ؟
أَهُو مَنْ صَنَعَ خَالقَ أَمْ لَا ؟

يعلم ذلك من ينظر من فوق الفلك . وقد لا يعلم » ، [صفحة ١٤٩] .

« لم يكن محمد فيلسوفاً كبيراً » ، بالمعنى التقليدي للكلمة ، إنَّه ﷺ نبي مرسلاً ، تخضع له الفلسفة الكبار ، وتقرُّ له بالفضل ، وتعتنق تعاليمه ، فهم تبع له^(٧١) .

« فهو لم ينكر سبب الأسباب كما أنكره البُدَّهِيُّون » ، إنَّ إنكار مسبب الأسباب ، والقول بأزليَّة الوجود . وجوده بالضرورة ، قول ينقضه العلم الحديث . ولم ولن يقول القرآن الكريم أو محمد ﷺ كلمة واحدة تخالف العلم الحديث ، الذي أثبت مسبب الأسباب ، بالاستناد إلى النتائج التي انتهى إليها أقطاب العلماء والباحثون المعاصرون في مجالات الفيزياء والكونولوجيا^(٧٢) ، ومبحث الأعصاب وجراحة الدِّماغ ، وعلم النفس الإنساني ، « ثبت بما لا يدع مجالاً للشك ، أن المادة ليست أزلية ، آمنوا بعقل أزلي الوجود منتصب وراء هذا الكون . يدبره ويرعى شؤونه .. »^(٧٣) .

(٧٠) مِنَ التَّقْرِيفِ هُنَّا فِي فَصْلٍ مِنْ رَوَاعِيْنَ لَوْبُونَ الْخَاطِيَّةِ الْخَامِسَةِ .

(٧١) ولستنا هنا في صدد استعراض ، أو ذكر جميع كبار الفلسفه الذين أثروا بالفضل ، ولكن نذكر بغوته ، وتولستوي ، وكارليل ، وهيلني ، ودينيه ، وغارودي .. على سبيل المثال .

(٧٢) Comology : علم الكون .

(٧٣) انظر مثلاً : (العلم في منظوره الجديد) د . روبرت أغروين ، د . جورج ستانسو . ترجمة : كمال خلايلي ، سلسلة (عالم المعرفة) ، الكويت ، العدد ١٣٤

« ولم يتصف بنصف ما عند مؤلفي كتب البراهمة المقدسة من الشك .. » ،
 أمّا الشك ، فهو موقف فلوفي أصيل ، ولا يتكون موقف الفكر الأصيل
 إلا بالشك ، والشك المسألة الأساسية التي ارتكزت عليها تأملات الرسول
 الكريم عليه السلام ، الذي كان جاداً في تأمله ، جاداً في شكه بما عليه الحال في
 الجاهلية ، ولكن يقطع الشك باليقين عند صحة القضية ، وبعد نزول الوحي
 بآيات بيّنات تُتلى ، لا موطن للشك ولا مجال له ، لقد جاء القرآن الكريم لينهي
 شك الإنسان الخام ، عندما وضع الحلول للمشكلات الكبرى بشكل شامل دقيق ،
 مما يثبت أنه وحي منزل من لدن عزيز حكيم ^(٧٤) .

« ولم يدخل إلى التأملات الآتية التي تجدها في كتب الودا - القيدا - من
 أين أتى هذا الكون ؟ فهو من صنع خالق أم لا ؟ » ، عجيبة جداً هذه
 العبارات ، عكسها تماماً عين الحقيقة ، فعشرات الآيات توضح بجلاء من أين أتى
 هذا الكون ، وأنه من صنع خالق حكيم : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصُّفْحَ الْجَيِّلَ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 الْخَلَقُ الْعَلِيمُ ﴾ ، [الحجر ٨٥ و ١٥] ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنَ ، مَا خَلَقْنَا هُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ،
 [الدُّخَان ٤٤ و ٣٩] .

(٧٤) ولا يمكن لعقل بشري إذا قام عنده الدليل الصحيح على أمر ما أن يرتاب فيه ، لقد تفتّت إنكار
 الوحي في التوراة والأنجيل من التضارب والتنافر ما لا تقوى العقول على قبوله ، حتى يكون
 الإنكليزي كان يعلن اللاهوتيّة ، ويضرر الإلحاد .
 بينما طابق القرآن الكريم مطالب العقل مطلقاً ، وإذا أراد القرآن قضياً ليحكم بوجه الإلهي
 فإلى العقل مرجعه ، وإذا حاجَ فبحكم العقل ، وإذا سخط فعلى معطلي العقل ، أو رضي عن
 أولي العقل .. (الإسلام دين الفطرة والمرعية) للشيخ عبد العزيز جاويش .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى
الْعَرْشِ يَغْشِي اللَّيلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَتَّى شَمْسَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنَّجْوَمَ مَسْخَرَاتٍ بِإِمْرِهِ
إِلَهُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، [الأعراف ٥٤/٧] .

أمّا الشيدا^(٧٥) التي وجد فيها (لوبون) تأملات رفيعة المستوى ، أقدم آلهة فيها هي قوى الطبيعة ، وعناصرها : السماء والشمس والأرض والنار والضوء والريح والماء والجنس ، قد يُوس إلى السماء ، ثم جعلوا السماء أباً ، وأسموها ثارونا « وجعلوا الأرض أمّاً وأطلقوا عليها اسم بريثيفي ، وكان النبات هو ثمرة التقائهما بواسطة المطر ، وكان المطر هو الإله بارجاينا ، والنار هي آجني ، والريح كانت قايو ، وأمّا إن كانت الريح مهلكة فهي روذرًا » وكانت العاصفة هي إنдра ، والفجر أو شاس ، وجري المحراث في الحقل كان اسمه سيتا ، والشمس مترا ، أو قشنو ، والنبات المقدس المسما سوما ، والذي كان عصيره مقدساً ومسكراً للآلهة والناس معاً ، كان هو نفسه إلهاً يقابل في الهند ما كان يسمى يونيسيوس عند اليونان ، فهو الذي يوحى للإنسان بما دأته المنشة ، أن يفعل الإحسان ، ويهديه إلى الرأي الثاقب ، وإلى المرح ، بل يخلع على الإنسان حياة الخلود .

والشمس التي تولد الحي من الحي أصبحت إلهاً عظيماً هو (براجاباتي) ، أي رب الأحياء جميعاً .

(٧٥) إن كلمة (الشيدا) معناها : كتاب المعرفة ، بقي من القيدات الكثيرة ، التي شهد لها الماضي أربعة أسفار :

- ١ - سفر ريج ، أو معرفة تراثيم الثناء .
- ٢ - سفر ساما ، أو معرفة الأنعام .
- ٣ - سفر باجور ، أو معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين .
- ٤ - سفر أتارثا ، أو معرفة الرق السحرية .. [قصة المحضارة ٢٨٦] .

ولبشت النار ، وهي الإله (أجني) ، حيناً من الدّهر أهـم آلهـة الشـيدا كلـها ، إذ كان هذا الإله هو الشـعلة المقدـسة التي ترفع القـربان إلى السـماء ، وكان هو البرق الذي يـثـبـ في أرجـاء الفـضـاء . وكان لـلـعـالـم حـيـاتـه النـارـيـة ، وروحـه المشـتـعلـة ، غير أنـ (إنـدـرا) الذي يـنـصـرـفـ في الرـعدـ والعـاصـفةـ ، كان أشـيعـ الآـلهـة ذـكـراـ بين النـاسـ ، لأنـهـ هوـ الـذـي يـجـلـبـ لـلـأـريـ الـهـنـديـ الـأـمـطـارـ الـنـفـيـسـةـ التيـ بـدـتـ لـهـ عـنـصـراـ جـوـهـرـيـاـ يـكـادـ يـزـيدـ فـيـ أـهـمـيـتـهـ لـلـحـيـاةـ عـلـىـ الشـمـسـ ذاتـهاـ ، ولـذـاـ فـقـدـ جـعـلـوهـ أـعـظـمـ الآـلهـةـ مـقـاماـ ، يـلـتـسـونـ مـعـونـةـ رـعـودـهـ فـيـ حـوـمـاتـ الـقـتـالـ ، وـصـورـوهـ - بـدـافـعـ الـحـسـدـ لـهـ - فـيـ صـورـةـ الـبـطـلـ الـجـبـارـ الـذـيـ يـأـكـلـ الـعـجـولـ مـئـاتـ مـئـاتـ (٧٦) .

ولـماـ كـثـرـ عـدـدـ الـآـلهـةـ نـشـأـتـ مشـكـلةـ هيـ : أـيـ هـؤـلـاءـ الـآـلهـةـ خـلـقـ الـعـالـمـ ؟

وـتـسـأـلـ بـعـدـ هـذـاـ : لـمـاـ هـذـاـ التـمـجيـدـ الـكـبـيرـ - وـالـمـفـتـعلـ - لـلـشـيدـاـ عـلـىـ حـسابـ الـقـرـآنـ ؟

الـجـوابـ : كـتـبـ الشـيدـاـ بـالـسـنـسـكـرـيـتـيـةـ ، الـتـيـ كـانـ يـكـتبـهاـ الـأـرـيـونـ الـهـنـدـوـ ، وـالـتـيـ تـعـدـ مـنـ أـقـدـمـ مـجـمـوعـاتـ الـلـغـاتـ (الأـورـيـةـ - الـهـنـديـةـ) ، بلـ هيـ أـقـدـمـ أـثـرـ أدـبـيـ فـيـ أـيـةـ لـغـةـ هـنـدـوـ - أـورـيـةـ فـيـ الشـرـقـ وـالـغـربـ ، الـتـيـ - كـاـ يـقـولـ وـلـ دـيـورـانـ (٧٧) - تـنـتـيـ إـلـيـهاـ لـفـتـنـاـ الـتـيـ تـحـدـثـ بـهـاـ ، فـإـنـاـ نـشـعـرـ لـلـحظـةـ مـنـ الـزـمـنـ شـعـورـاـ عـجـيـباـ بـاتـصالـ حـلـقـاتـ الـثـقـافـةـ عـبـرـ هـذـهـ الـأـمـادـ الـفـسـيـحـةـ مـنـ الـزـمـانـ وـالـمـكـانـ ، حـينـ نـلـاحـظـ أـوـجـهـ الشـبـهـ فـيـ السـنـسـكـرـيـتـيـةـ وـالـيـونـانـيـةـ وـالـلـاتـيـنـيـةـ وـالـأـنـجـلـيـزـيـةـ بـيـنـ الـأـلـفـاظـ الـتـيـ تـدـلـ عـلـىـ الـأـعـدـادـ وـعـلـىـ أـنـوـاعـ الـصـلـةـ فـيـ الـأـسـرـةـ ...

هـذـاـ مـنـ نـاحـيـةـ ، وـمـنـ نـاحـيـةـ ثـانـيـةـ ، فالـفـرنـسيـ رـينـانـ Renan ، الـذـيـ كـانـ مـعاـصـرـاـ لـلـوـبـونـ (٧٨) ، رـوـجـ إـلـىـ تـصـنـيفـ الـبـشـرـ إـلـىـ سـامـيـنـ وـأـرـيـنـ . وـتـقـرـيرـ تـفـوقـ

(٧٦) قصة الحضارة ٣٢/٣

(٧٧) قصة الحضارة ٣٦/٣

(٧٨) أـرـنـستـ رـينـانـ Renan [١٨٢٣ - ١٨٩٢] مـ ، كـاتـبـ وـعـالـمـ أـثـرـيـ فـرنـسيـ .

الجنس الآري في مجال الفلسفة ، كاً في مجالات أخرى ، إذ يقول : « ما يكون لنا أن نلتمس عند الجنس السامي دروساً فلسفية ، ومن عجائب القدر أنَّ هذا الجنس الذي استطاع أن يطبع ما باتدعه من الأديان بطابع القوَّة في أسمى درجاتها ، لم يشر أدنى بحث فلسفياً خاص ، وما كانت الفلسفة قط عند السَّامِين إلا اقتباساً صرفاً جديباً وتقليداً للفلسفة اليونانية »^(٧٩) .

وقال رينان أيضاً : « فنذ القدِّم كان الفكر السامي ، بطبيعته ، مضاداً للفلسفة رافضاً للعلم »^(٨٠) .

وهكذا ، إنَّ الرؤية الاستشرافية تصرُّح علينا بالتفوق البيولوجي للأريين ، وتحتاج إلى العقل العربي الإسلامي ، فهي لا ترى إلا الفكر الأوروبي منظوراً إليه فكراً للإنسانية جماء .

- ٤٤ -

« وكان من مقاصد محمد أن يقيم ديناً سهلاً يسقرئه قومه ، فوق ذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم . ولم يفكَّر محمد قط في إبداع دين جديد ، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدِّمه من أنبياء بنى إسرائيل من إبراهيم إلى عيسى قائلاً إن ما أوحى إليهم صحيح ، فالحقُّ أن اليهوديَّة والنصرانيَّة والإسلام فروعٌ ثلاثة لأصل واحد ، وهي ذات قرْبٍ وشيعة » ، [صفحة ١٥٠] .

إنَّ عبارات (لوبون) هذه ، مردودة عليه من الناحية العلميَّة ، بل هو نفسه في أماكن أخرى من كتابات يردُّ على نفسه ، فيقول هنا : إن من مقاصد

(٧٩) مناهج المستشرقين ٢٠٩/١

(٨٠) مناهج المستشرقين ٢٤/٢ ، وأكَّد هذه النَّظرة : أميل برهيه (المرجع ذاته ٣١٦/١) ، وديبور .. ٣٢٣/١ ، وأميل فيلكس قوتبي ٢٢/٢

مُحَمَّد - ﷺ - أَنْ يَقِيمَ دِينًا سَهْلًا يُسْتَرَئُهُ قَوْمٌ ، فَهَلْ كَانَ هَذَا الدِّينُ مِنْ صُنْعِهِ حَتَّى يَقِيمَهُ كَمَا يُشَاءُ ؟ وَهُلْ تَسْمِحُ ثَقَافَتُهُ ﷺ وَعِلْمُهُ وَبَيْئُهُ أَنْ يَفْعُلَ ذَلِكَ ؟

ثُمَّ يَقُولُ : وَأَخْذُ مِنَ الْأَدِيَنَاتِ الْأُخْرَى مَا يَلْأَمُهُمْ ، وَلَمْ يَفْكُرْ مُحَمَّدٌ قَطُّ فِي إِبْدَاعِ دِينِ جَدِيدٍ .

أَيْنَ دَرَسَ مُحَمَّدَ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصَارَائِيَّةَ ، حَتَّى أَخْذَ مِنْهُمَا مَا يُشَاءُ لِصُنْعِ دِينِ جَدِيدٍ ؟ وَنَرْجُو أَلَا يَكُونُ الرَّدُّ ، أَخْذَ ذَلِكَ وَهُوَ طَفْلٌ صَغِيرٌ . وَخَلَالِ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ ، مِنَ الرَّاهِبِ تَحِيرِي ، كَانَ نَرْجُو أَلَا يُقَالُ بَأَنَّهُ اَنْتَلَ سِرًّا مِنْ مَكْكَةَ إِلَى يَثْرَبَ ، فَأَخْذَ مِنْ يَهُودَهَا ، وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لِفَضْحِهِ مُسْتَقْبِلًا حِينَ أَصْبَحُوا أَلْدَهْ خَصُومَهُ .

وَالْأَمْرُ الْآخَرُ ، مَا هِيَ الْأَمْرُ الَّتِي رَأَاهَا (لَوْبُون) فِي الإِسْلَامِ وَهِيَ مُقْتَبِسَةٌ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ أَوَ النَّصَارَائِيَّةِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا الدُّعَوَةُ إِلَى عِبَادَةِ إِلَهٍ وَاحِدٍ ، وَهِيَ قَاعِدَةٌ تَقْوِيمُ عَلَيْهَا كُلُّ دِيَانَةٍ سَماوِيَّةٍ .

أَمَّا التَّشْرِيعُ الْإِسْلَامِيُّ فِي الْعِبَادَةِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَالْإِقْتَصَادِ وَالسِّيَاسَةِ فَلَا وَجْدَ لَهَا مَطْلَقاً فِي النَّصَارَائِيَّةِ ، وَتَخْتَلِفُ كُلُّ الْاِخْتِلَافِ عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْيَهُودِ ، فَكَيْفَ يَصْدِرُ عَنْ (لَوْبُون) حُكْمَهُ بِأَنَّ مُحَمَّداً لَمْ يَفْكُرْ فِي إِبْدَاعِ دِينِ جَدِيدٍ ، إِنَّ مَا يَصْحُّ أَنْ يُقَالُ هُوَ أَنَّ مُحَمَّداً لَمْ يَفْكُرْ فَعْلًا فِي إِبْدَاعِ دِينِ جَدِيدٍ ، لَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ مِنْهُ ، بَلْ هُوَ مِنَ اللَّهِ الَّذِي قَدَرَ وَهَدَى . وَأَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مَا أَوْحَى ، وَهُوَ يُؤْكِدُ عَلَى صَدْقَ نَبْوَةِ مِنْ سَبْقِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ ، دُونَ أَنْ يُؤْكِدَ عَلَى صَحَّةِ مَا بِأَيْدِي النَّاسِ مِنْ كِتَابِ أُولَئِكَ الرُّسُلِ :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّيْتُ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أُوحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ، [الشُّورِي] ١٢/٤٢ .

- ٢٣ -

« وإنني أنقل من القرآن بعض آيات في كلّ موضوع مِهْمَ ، وأرتب ماقلته من آياته بحسب الموضوعات ، نظراً إلى أن ما ورد فيه من الآيات في الموضوع الواحد مبعثر في سُورَة في الغالب » ، [صفحة ١٥٠] ، ثم يقول (لوبون) : قال محمد ، ويذكر آيات من القرآن الكريم ، كا في الصفحات : ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ .. ١٥٥

من أول صفات العالم الصدق في نقل ما ينقل ، فهل قال محمد ﷺ حين كان يتلو آية من القرآن الكريم أنني أنا قلت أو أقول ذلك ؟ لا ، إنّه كان يعيد القول إلى صاحب القول . لقد قال : أوحى الله تعالى إلى ، فوجب على العالم المنصف أن يقول : قال محمد ﷺ بأنّ الوحي نزل عليه بكندا وكذا ، أمّا أن يصدق (لوبون) أو لا يصدق ، فهذا شيء آخر .

مع أن المكابرة بظاهرة الوحي بعد الإعجاز العلمي في القرآن الكريم مكابرة في المحسوس ليس غير .

- ٤٤ -

• وما جاء في القرآن من نصٌّ على خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وخلق آدم ، والجنة ، وهبوط آدم منها ، ويوم الحساب مقتبسٌ من التّوراة » ، [صفحة ١٥٣] .

لماذا يؤكّد (لوبون) على أنّ ما يرد من آيات فيها تشابه ، وقد وردت في القرآن الكريم وفي التّوراة أنّها مقتبسة من التّوراة ؟ إنّ في ذلك مجانية للحقّ ، فلماذا لا يقول : إنّ المصدر الإلهي الواحد أوجد هذا التّشابه في بعض الآيات ؟ وماذا يقول ياترى في الآيات الأخرى العظيمة المختلفة كُلّياً ؟ وماذا يقول بآيات

- ١٢٠ -

القرآن الكريم التي تحدثت عن تاريخ بني إسرائيل مع أنبيائهم ، فهل ورد مثلها في التوراة أو الإنجيل ؟

إن الأمور الأخروية والغيبية المتعلقة بالخلق والجنة والنار والحساب ، وبعض الأحداث التاريخية في خطوطها الرئيسية ، يجب أن تكون متشابهة ، أما الآيات الأخرى ، أو الجزء الكبير منها ، فقد اعتبرها بالنسبة للتوراة تبديل وتحريف كبيران ، حيث كتبت التوراة على أيدي أحبار اليهود في سنوات متأخرة جداً عن عهد نزول التوراة ، أي بعيدة عن عهد موسى عليه السلام ، فكتبها أولئك الأحبار كما أرادوها هم ، وكما أرادوا أن يصوّروا من خلالها تاريخهم ومستقبلهم ، فجاءت كثيرة الأخطاء ، بعيدة عن روح التسامح والمساواة التي عرفت بها الديانات السماوية ، بل وامتلأت بما في نفوسهم من عقد الذنوب والآثام والأحقاد والتّعصب والعنصرية .. مما لا يمكن أن يصدر عن رب السماوات والأرض ، خالق البشرية .

- ٢٥ -

« إذا رجعنا القرآن إلى أصوله ، أمكننا عد الإسلام صورة مختصرة من النّصرانية ، مع ذلك ، في كثير من الأصول ، ولا سيما في التّوحيد الذي هو أصل أساسي ، فالإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهين على كل شيء ، ولا تحفه به الملائكة والقدّيسون وغيرهم من يفرض تقديرهم ، وللإسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين أدخل إلى العالم التّوحيد المغض » ، [صفحة ١٥٨] .

ليس هذا فحسب ، بل مع التّوحيد خاطبة العقل لا العاطفة ، فالإسلام دين ترقّي وتقدم ، وفيه يوزن مداد العلماء بدم الشّهداء ، فيرجح مداد العلماء على دم الشّهداء ، وما كان عليه يبغض شيئاً بغضه لتعطيل العقل وعدم الأخذ

بالأسباب ، وبغضه للشَّرائع والقوانين الجامدة التي تقيد العقل فتقوده صاغراً
أعمى ^(٨١).

وبالعقل ، تأتي الطَّائِنَيْة بما يعتقده المرء ، بلا خطل أو زلل أو ضلال . وللإسلام الفخر ، كل الفخر ، بأنه أول دين أدخل إلى العالم التَّوْحِيد الخالص ، ولكن (لوبون) يشوش ما قال ، عندما عَدَ الإسلام صورة مختصرة من النَّصَارَيْة ، وكم كنا نتمنى أن يعطينا تلك الجوانب التي تجعل من الإسلام صورة مختصرة من المسيحية !!

الإسلام لا يشكّل تلك الصُّورَة المختصرة ، بل تُريد أن نعكس الأمر لقول : إذا كانت النَّصَارَيْة تدعو إلى وحدانية الله ، فهي بهذا الأساس - الذي شوهته عقائد وثنية دخيلة - تلتقي مع الإسلام ، ومع كل ديانة ساوية أخرى من عهد إبراهيم أبي الأنبياء ، إلى محمد ﷺ خاتمهم . ذلك أنَّ من الطبيعي أن يكون التَّوْحِيد هو جوهر كل دين ساوي . لكن النَّصَارَيْة لم تعرف التَّشريعات التي تقوم عليها حياة البشر ، لهذا اعتمدت القول : « دع ما القيس لقيس ، وما لله لله » ، وهذا ما لا نجد في الإسلام ، حيث كل شيء لله ، وهو الذي أرسل محمداً ﷺ ليبيان التَّشريعات التي تضمن سعادة البشر في دنياه وأخراهم ، وحين احتاجت النَّصَارَيْة بعض تشعرياتها ، أخذتها من توراة اليهود وتشريعاتهم ، بعد أن كان أئّبادهم قد غيروا فيها . وبدلوا ماشاء لهم أن يبدلوا ويفجروا ، ومن هنا دخلت الأفكار التَّوراتية إلى العقلية النَّصَارَيْة لتلعب دورها عن طريق الإيمان والتَّسليم بما أوردته التَّوراة ، مما أصبح يعتقد وكأنه من الله ، وما هو منه في شيء .

- ٢٦ -

« وكانت دولة الرُّوم ، التي نهكتها حرباتها لدولة الفُرس ، والتي كانت تعاني عوامل الأخلاقيات الكثيرة ، في دور الانخراط ، فلم تكن غير هيكلٍ نَحِيرٍ يكفي لتداعيه أقلً صدمة » ، [صفحة ١٦٦] .

« ولو كانت أركان العالم متداعية كالدولة الإغريقية الرومانية ، والدولة الفارسية في زمن ظهور محمد ، فقد كانت تلك الدولتان مرهوبتين ، مع ما كان يبدو من وهنها ، فكان لا بدًّ للأمة التي تريد محاربتها من أن تكون ذات صفات حربية عظيمة ، فضلاً عن معتقداتها التي توجه جهودها إلى غرض واحد ، ولم يحتاج العرب إلى ما يتطلبه مثل ذلك العمل الجليل من الشجاعة وحب القتال ما ورثها العرب أباً عن جدّ ، مضافاً ذلك إلى مانشأ عن إيمان العرب الجديد من حرصهم على الشهادة حبًّا للجنة التي وُعدوا بها » ، [صفحة ١٦٨] .

« ولدَ مُحَمَّد في أحسن الأوقات ، فقد رأينا أن العالم المُسِينَ كان متصدعاً فيه من كل جانب ، فلم يتوجّب على أتباع مُحَمَّد إلا أن يهُزُّوه ليتساقط » ، « بيد أن القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة » ، [صفحة ٧١٥] .

الحروب تضعف الأمم أحياناً ، ولكنها لاتسوقها كأتصور عبارة (لوبون) إلى الأخلاقيات والأنهيار ، إن دولة الرُّوم لم تكن هيكلًا نَحِيرًا يكفي لتداعيه أقلً صدمة ، إنها دولة ذات إمكانات جبارة ، ومساحات واسعة ، وثروات عظيمة ، استطاع قيادتها الجديد (هرقل) بعد هزيمتها أمام الفرس أن يوحّدها ويعيد إليها قوّتها ، وأن يستعيد مجدها العسكري ، وأن ينتصر على دولة الفرس السّاسانية ، وأن يستعيد منها ما أخذته من ولاياتها كبلاد مصر والشام .

وكذلك دولة الفُرس ، فهي دولة عسكرية قوية ، فمنذ سنوات قليلة قبل

- ١٢٣ -

فتح العرب المسلمين ، كانت قد أحرزت انتصارات عظيمة على الروم . وانتزعت منهم الشّام ومصر ، لكن بعض المؤرّخين يريدون أن يصوّروا هاتين الامبراطوريّتين بتلك الصّورة من الضعف والانحلال ليقلّلوا من قيمة الفتوحات العربيّة الإسلاميّة ، التي كان لها النّصر المبين على الدّولتين العظيمتين في وقت واحد ، وهذا ما يدلُّ عليه قول (لوبون) في العبارة التي تلت : « فقد كانت تانك الدّولتان مرهوبتين مع ما كان يبدو من وهنها ، فكان لا بدّ للأمة التي تريد محاربتها من أن تكون ذات صفات حربّيّة عظيمة ، فضلاً عن معتقداتها التي توجّه جهودها إلى غرض واحد ، ولم يحتاج العرب إلى ما يتطلّبه مثل ذلك العمل الجليل من الشّجاعة وحبّ القتال ما ورثها العرب أباً عن جدّ ، مضافاً بذلك إلى مانشأ عن إيان العرب الجديد من حرصهم على الشّهادة حبّاً للجنة التي وعدها بها » ، ولكن الغريب في الأمر أنّ (لوبون) الذي أكد في عبارته السابقة على عظمة دور العرب المسلمين في النّصر على دولتي الروم والفرس بما ملکوه من تقاليد الشّجاعة وحبّ القتال ، وما أوجده فيهم الدين الجديد من حبّ للشهادة . ودخول الجنة .. يعود (لوبون) ليقول : بأنّ العالم كان متصدّعاً من كلّ جانب . فلم يتوجّب على أتباع محمد ، إلاّ أن يهزوه ليتساقط ..

إنّها الصّورة الأولى التي تقلّل من أهميّة الدولة العربيّة الإسلاميّة وجهودها في تحقيق الانتصار ، وكان الأمر كمن يهز شجرة النّخيل ليتساقط ثمرها بين يديه ، لقد بذلت دولة الإسلام من الجهد واظهرت من الإمكانيات والبطولات في مجالات الفكر السياسي ، والتخطيط العسكري ، ما يرفعها إلى أعلى درجات المجد . و يجعل عدداً من خلفائها وقادتها رجالاً أفتاداً في تاريخ العالم .

و (لوبون) يتبّه - بحقّ - إلى أنّ القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة .

صحيح إنَّ العرب المسلمين قضوا على الدُّولة السَّاسانية ، وحطّموا بيزنطية في بلاد الشَّام ومصر .. لكن الأهم من هذا وذاك أنَّهم أقاموا على أرض دولتهم الواسعة الجديدة ، وعلى أنقاض الدُّول المهزومة أمامهم ، حضارة مازال علماء العالم حتَّى اليوم يتحدثون عن مدى تقدُّمها في العلوم المختلفة . وكثرة علمائها واحترازاتهم واكتشافاتهم واتساع أفق تفكيرهم ، وانتفاعهم من منابع العلوم والحضارة أينما وُجِدَت ، ومتابعة السَّير في طريق العلم . ورائدتهم في ذلك سلوك طريق البحث العلمي القائم على الملاحظة والتجربة ، يأخذون العلم من آية جهة جاءهم منها ، ولكن يعمّلُون به عقولهم نقداً وبحثاً ودراسة وتقدُّماً .

إنَّ مقوله : « لقد كان ظفر الإسلام محتَّماً ، وفتحه سهلاً محققاً » ، لأنَّه صادف أمَّة خامرها الفساد في أخلاقها - كا هي الأُمَّة البيزنطية والفارسية - « فليس بقادح فيها ثبت للعرب الفاتحين حينئذٍ من البساطة الفائقة ، والمحاسة المدهشة ، وجميع الفضائل العسكرية من إخلاص وصبر وقناعة وعلو نفس . وبعد هُمّة ، وبصيرة بالحرب »^(٨٢) .

وفي ختام هذه الفقرة تقدُّم الملاحظات التالية^(٨٣) :

- ١ - انتصار المسلمين في الجزيرة العربية ، وهم قِلَّة ، على إخوانهم وأبناء عمومتهم وهم كثرة ، كما انتصروا في حروبهم ضدَّ المتنبَّئين أيام أبي بكر الصَّدِيق رضي الله عنه ، على كثريهم الساحقة وقلة عدد المسلمين أيضاً .
- ٢ - وإنْصار المسلمين على الرُّوم والفرس ، انتصار على أضعاف عددهم ، ألا يكفي الرُّوم في بلاد الشَّام ، أنَّ مئَة ألف عربي متنصر كانوا معهم في اليرموك ؟ وترتيبات الفُرس والرُّوم عريقة ، وإمداداتهم وعتادهم عظيمان ، وما

(٨٢) حاضر العالم الإسلامي ١٨٣/١

(٨٣) آراء يهدِّمها الإسلام - (انتصار واهن) - ص ٦٢

يماربان في أراضيهم ، وضمن ديارها ، ولا يقارن عتاد المسلمين وقوتهم بالدى الفرس والروم .

٣ - لم يحارب المسلمون الروم ثم الفرس ، بل فتحوا جبهتين في آن واحد ، كل منها أعني منهم رجالاً ومالاً وخبرة ومراساً ، فعندما خرج المسلمون فاتحين من جزيرتهم ، كان الروم يستصغرون شأنهم ، وكان الفرس يحتقرون قدراتهم ، ويسمونهم الجياع .

٤ - النصر العسكري ، شيء عظيم ، والأعظم منه انتصار العقيدة ، لقد استرط حروب الفرس والروم فيما بينهما أربع مئة سنة ، دون حسم ، ولما جاء الإسلام فلت العقيدة كل سلاح ، لقد تبع النصر العسكري ، نصر في مجال العقيدة ، وهنا يمكن جانب عظيم من عظمة الإسلام ، عندما نقل الشعوب إلى الإسلام ، فكان النصر الحقيقي ، انتصار العقيدة ، لانتصار الجسد وعضلاته .

٥ - وحارب المسلمون البربر ، وهم أبناء شدة ، وبيئة قاسية ، وانتصروا عليهم عسكرياً ، ولكنهم نقلوهم إلى الإسلام ، فقاموا معهم ليبلغوا العالم الرسالة الإسلامية .

كما حارب المسلمون الترك في ما وراء النهر ، وتم للمسلمين النصر على الترك ، وهم أبناء صحراء ، وأبناء بيئة قاسية صقتهم ، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام ، وأصبحوا جنده الأوفياء .

ومع هذه الانتصارات ، إن الحروب الأولى لل المسلمين ، لم تكن هدفاً بذاتها ، لقد كانت وسيلة للوصول إلى الشعوب لتبلیغ رسالة الله سبحانه وتعالى .

« ولكن العرب كانوا يجهلون فن الحرب جهلاً تاماً ، ولا تقوم الشجاعة مقام

هذا الفن ، وكان اقتتال العرب فيما بينهم من نوع اقتتال البرابرة الذين كانوا ينقضون على أعدائهم بدون نظام ، ولا يحارب كلُّ واحد إلاً من أجل نفسه ، وكان غير ذلك أمر الفرس والروم ، الذين كانت معرفتهم لفنِّ الحرب عظيمة جداً ، كما ظهر في اشتباكهم الأول بالعرب ، والعرب لم يلتبوا أنْ علِمُوا من المزامِ التي أصابتهم في سوريَّة ، ما كان يعوزهم ، فاقتبسوا من قاهرِيهِم بسرعة الشيءِ الكثير من شؤون الحرب .. » ، [صفحة ١٦٩] .

إن قول (لوبون) : « .. الفُرس والرُّوم ، الذين كانت معرفتهم لفنِّ الحرب عظيمة جداً » ، يناقض مقالة سابقاً : « فلم تكن غير هيكل نغِي يكفي لتداعيه أقلُّ صدمة » .

صحيح أنَّ العرب اقتبسوا من قاهرِيهِم بسرعة الشيءِ الكثير من شؤون الحرب ، لكن الأصح والأدق من ذلك أن تقول : إنَّ العرب بعد أن وحدُهم الإسلام ، وأخرجهم من ظلام عصبياتِهم الجاهليَّة ، ودفعهم إلى طريق العلم والبحث والاقتباس ، تعلَّموا الكثير منذ أيامِهم الأولى ، وقبل أن يصلوا إلى بلاد الشام ، وإلى العراق وفارس .

ففي غزوة بدر الكبرى استخدم المسلمين بقيادة الرَّسول الْكَرِيم ﷺ ، نظام الصَّف في القتال ، بدلاً من الكُر والفر .

وفي غزوة الأحزاب ، استخدم المسلمين الخندق ، حفروه وتحصَّنوا وراءه .

وفي حصار الطائف نصبوا المنجنيق ..

وفي معاركهم في حروب الرِّدَّة ، وفي بداية حروبهم في العراق والشام ، استخدموا عنصر المباغلة ، وإضعاف معنويات العدو ، وطرق التَّجمُّع بعد تبديد قوات العدو ، وطرق تقسيم الجيش إلى كراديس ، كلُّ ذلك يكُنَّان من القول لم يكن تعلم المسلمين وفقاً على ما أخذوه من الرُّوم في سوريَّة .

أمّا كلمة (قاهريهم) ، فلنا اعتراضٌ عليها ، متى قهرهم الروم حتّى نعطيهم لقب (قاهريهم) ؟ المعركة الوحيدة التي كانت غير متكافئة ، وانسحب العرب المسلمين في بدايات لقائهم مع الروم هي معركة مؤتة ، وكانت خسائرهم فيها محدودة جداً ، وكان انسحابهم انتصاراً كما رأه الكثيرون ، ثم توالت بعد ذلك انتصاراتهم على أيدي قادة الفتوح في بلاد الشام .

- ٢٨ -

« وبعد أن ملك السلاجقيون جميع الولايات المجاورة لبغداد ، جعلوا مقرّهم أمّام القسطنطينيّة^(٨٤) ، واستولوا على سوريا وأحلّوا التّعصب محلّ تسامح العرب ، فنهوا النّصارى عن القيام بشعائر دينهم ، وجاروا على حجيجهم فاضطربت أوربة لذلك وثارت ، بعد أن كانت تخشى تقدّم المسلمين منذ زمن طوويل » ، [صفحـة ١٨٠] .

ليست هذه أسباب الحروب الصليبيّة ، إنّها مغالطة نّايف لتصدوها من علّامة كبير ، كالفيلسوف (لوبيون) .

الحروب الصليبيّة التي بدأت الدّعوة لها سنة ١٠٩٥ م ليست إلاً استرارةً لحركة الحجّ الجماعي إلى بيت المقدس ، مع حدوث تطور في الأسلوب ، وهو أنّ الحجّ الجماعي صار حرّيّاً ، بعد أن كان سليّماً ، فالحجّاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ م مع رئيس أساقفة مينز ، بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم أسلحة للدفاع . كما يدعون - عن أرواحهم في الطريق ، فهل هناك فارق بين ذلك الموكب ، وأيّة حملة صليبيّة تالية ، سوى في الأسلوب الذي اتبّعه كُلُّ فريق في بلاد الشام ؟

أمّا ذلك التّطوير في الأسلوب ، فمرجعه تلك الأخبار التي أخذت تصل إلى الغرب الأوروبي عن سوء معاملة الحجّاج بعد امتداد السلاجقة إلى بيت المقدس سنة

(٨٤) قونية : عاصمة سلطنة الروم السلاجقية ، من سنة ١٠٨١ ، و حتى ١٣٠٢ م .

١٠٧١ م ، ثم إلى أنطاكية سنة ١٠٨٥ م وطرد البيزنطيين منها ، مما جعل الغرب يؤمن بأنه لا بد من استخدام القوة لتأمين عملية الحج إلى الشام .

إن المبالغة في سوء أحوال المسيحيين في البلاد الإسلامية في العصور الوسطى ، وما تعرضوا له من اضطهاد ، وكيف أن كنائسهم خربت ، وأديرتهم أغلقت ، وطقوسهم عطلت .. مدخل مضلل بعيد عن الحقيقة والتاريخ ، ودخول من باب وهي يصرف عن المدخل الحقيقي إلى أسباب الحروب الصليبية .

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم في غرب أوربة عن طريق المناداة بأنّ أحوال المسيحيين في آسية الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، فإنّ هناك أكثر من مؤرخ أوربي مسيحي منصف قرروا في صراحة تامة ، أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين في الشرق ، وأنّ المسيحيين الذين خضعوا لسلطان السلاجقة ، صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الامبراطورية البيزنطية ذاتها ، يقول ثومبسون Thompson : « وإنّ ما اعتبرى المسيحيين في الشام وآسية الصغرى من متاعب في ذلك العصر ، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين ، لأنّه لا يوجد أي دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم »^(٨٥) .

إن غالبية الصليبيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية تركوا بلادهم ، إما بدافع الفضول ، أو لتحقيق أطماع سياسية ، وإما للخلاص من حياة الفقر التي كانوا يعيشونها في بلادهم في ظلّ النظام الإقطاعي ، وإما للهرب من ديونهم الثقيلة ، أو محاولة تأجيل سدادها .. وإنّا لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في بلاد الشرق ، وأيّ وازع ديني كان عند ألف الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الذين اتجهوا نحو القدسية ، وهي البلد المسيحي الكبير ، ليذهبوا

(٨٥) الحركة الصليبية ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، ط١ ، ١٩٦٣ م ، مطبعة لجنة البيان العربي .

كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ، ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب ، وهم جيعاً إخوانهم في الدين ؟

فن أراد أن يعرف الأسباب الحقيقة للحركة الصليبية ، فعليه بالبحث في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في غرب أوربة في القرن الحادى عشر ، لافي أحوال الحاج النصارى الذين عاثوا في طريقهم آينا حلوا فساداً ، أو في أحوال النصارى في شرقنا العربي المسلم الذي عرف التسامح مذ كان ، ولكن التسامح شيء ، واستغلال التسامح شيء آخر ، التسامح شيء بديع جيل ، على ألا يستغل لانتهاك حرمات المسلمين ، وحرمات ديارهم .

إن حرية المعتقد أمر مسلم به في الإسلام .

لذلك حارب المسلمون المستبد الظالم ، ولم يحاربوا المسيحية ديناً ومعتقداً .
لقد أنهى المسلمون الحکومات ، وأبقوا على الشعوب حرّة في معتقدها ، وحفظ الإسلام الأرواح ، والمتلكات والمعابد ، بوثائق حرص كلّ الحرص على تنفيذ مضامونها بدقة .

فالتسامح سمة العرب المسلمين الحالية^(٨٦) ، ولكن هذا التسامح لا يعني الغباء والسذاجة والضعف ، فعندما استغلّ الحجّ الجماعي المسلح هذا التسامح ، قام السلاسلقة بما يجب أن تقوم به أيّ دولة في العالم ، مرتّ بمثل ظروفهم ..

- ٤٩ -

« استولى فرديناند في سنة ١٤٩٢ م على عاصمة العرب الأخيرة غرناطة ، وأخذ يعن في قتلهم وتشريدهم جماعاتٍ جماعاتٍ ، وسار خلفاؤه على سنته ، فقتلَ

(٨٦) انظر (من رواي لوبون) في هذا الكتاب ، الفقرات رقم ٢ و ٦ و ٧ ، حيث الإقرار الواضح بتسامح الإسلام في فتوحاته .

وَشَرِّدَ مِنَ الْعَرَبِ ثَلَاثَةً مَلَيْنَ نَفْسٍ ، فَخَبَتْ إِلَى الأَبْدِ شَعْلَةً حِضَارَةُ الْعَرَبِ الَّتِي
كَانَتْ تُنَيِّرُ أُورَبَيَا مِنْذَ ثَمَانِيَّةِ قَرْوَنْ » ، [صَفَحَةٌ ١٨٢] .

« ثَقَلَتْ قَرْوَنْ عَلَى أَعْفَارِ الْعَرَبِ ، وَدَخَلَتْ حِضَارَتِهِمْ فِي ذِيَّةِ التَّارِيخِ مِنْذَ
زَمْنٍ طَوِيلٍ ، وَلَا نَقُولُ ، مَعَ ذَلِكَ ، إِنَّهُمْ مَاتُوا قَاماً » فَنَرَى الْآنَ دِيَانَتِهِمْ وَلَغْتُهُمْ
الَّتِيْنَ أَدْخَلُوهُمَا إِلَى الْعَالَمِ أَكْثَرَ اِنْتَشَاراً مَا كَانَتَا عَلَيْهِ فِي أَنْضُرِ أَدْوَارِهِمْ ، فَالْعَرَبِيَّةُ
هِيَ الْلُّغَةُ الْعَامَّةُ مِنْ مَرَاكِشٍ إِلَى الْمَهْنَدِ ، وَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ جَادِّاً فِي تَقْدِيمِهِ » ،
[صَفَحَةٌ ٧٣٤] .

مِنَ الْجَيْلِ أَنْ يَسْمَعَ إِلَيْهِ اِنْسَانٌ كَلْمَةُ الْحَقِّ وَالْإِنْصَافِ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ ، مِنْ
مَؤْرِخٍ أَوْ عَالَمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْغَربِ ، فَقُتِلَ إِسْبَانٌ لِلْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتُشَرِّيدُهُمْ لَهُمْ
بُوْحُشِيَّةٌ ، إِبْيَانٌ مَا يُدْعِي بِهِ بُحْرَبِ الْأَسْتَرْدَادِ ، وَكِيفَ سَارَ فَرْدِيَنَانْدُ - وَإِيزَابِيلَا -
عَلَى سُتُّهُ فِي قَتْلِ الْعَرَبِ وَتُشَرِّيدِهِمْ بِأَحْكَامِ صَادِرَةٍ عَنْ حَامِكِ الْفَتْيِيشِ^(٨٧) .

أَمَّا عِبَارَةُ : « فَخَبَتْ إِلَى الأَبْدِ شَعْلَةً حِضَارَةُ الْعَرَبِ .. » .

وَعِبَارَةُ : « وَدَخَلَتْ حِضَارَتِهِمْ فِي ذِيَّةِ التَّارِيخِ مِنْذَ زَمْنٍ طَوِيلٍ .. » ، رَأَيَ
وَاحِدٌ خَاطِئٌ ، فَكَمَا يَقُولُ مَالِكُ بْنُ نَبِيٍّ : الْحِضَارَةُ تَسِيرُ كَاسِرَ الشَّمْسِ ، فَكَانَهَا
تَدُورُ حَوْلَ الْأَرْضِ مُشَرِّقَةً فِي أَفْقِ هَذَا الشَّعْبِ ، ثُمَّ مُتَحَوِّلَةً إِلَى أَفْقِ شَعْبٍ آخَرَ .
فَالْحِضَارَةُ لَا تَمُوتُ . وَالْحِضَارَةُ إِلَيْهِ بِسَاطَ نَسْجَتِهِ وَتَنْسَجِهِ أَيْدِيُّ أَمْمٍ
كَثِيرَةٍ .

وَ(لَوْبُونْ) فِي خَتَامِ الْفَقْرَةِ الثَّانِيَةِ ، يَعْرَفُ أَنَّ الْإِسْلَامَ - لَا يَزَالُ - جَادِّاً فِي
تَقْدِيمِهِ ، بَلْ هُوَ أَكْثَرُ أَدِيَانِ الْعَالَمِ الْيَوْمِ كَسْبًاً لِلأَتْبَاعِ .

(٨٧) وَالَّتِيْنَ مِنْ قَوْانِينِهَا : (خِيرُ أَنْ يَقْتَلَ مِئَةً أَبْرِيَاءً مِنْ أَنْ يَلْجَدَ فَرْدٌ وَاحِدٌ) ، وَتَطْبِيقًاً لَهَذِهِ
الْقَاعِدَةِ ، صَارُوا يَقْتَلُونَ وَيَحْرُقُونَ النَّاسَ ، لِأَقْلَلُ شَبَهَةً ، وَلَمْ يَكُنْ لَأَحَدٍ حَقُّ الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ ،
وَلَا كَانَ لِحَكْمَةٍ أَنْ تَقْبِلَ فِي حَالٍ مَا شَاهَدَتْ فَتْيِيَّةً .

إنَّ جانباً من الحضارة يمثُّل بالتقديم العلمي ٠ وهذا الجانب لا شكَّ أنَّه أوربة ، وأضاء لها سبل نهضتها الحديثة ، أمَّا الجانب الفكري ٠ والروحي ، والاجتماعي ، والعقائدي بشكل عام ، ما زال موجوداً ، وينتشر في أرجاء أوربة اليوم ٠ وسيستمر في انتشاره غداً - بإذن الله - لأنَّ حضارتهم الأوربية الماديه لم توصلهم إلى سعادة الطفانية ، وهناءَ الأمان ، وهم يفتّشون عن الجانب الروحي ، العقلاني العلمي السليم ، كي تتواءن حضارتهم ٠ فتستقر النُّفوس وتسعد وتهنأ .

- ٣٠ -

« ومما يكن الأمر ، فإنَّ مملا ريب فيه ، أنَّ مباني الدُّور الإسلامي الأول ، لم تكن من صنع العرب ، وأنَّ عمالَ البلاد التي دانت لهم هم الذين غيروا معالم الكنائس ، لتكون موافقة لعبادة المسلمين ، وأنَّهم أقاموا مبانيَ العرب بأنقاض الكنائس » ، [صفة ١٩٣] .

لو كانت هذه العبارة صحيحة ، لما كنا نرى الكنائس - والقدية منها خاصة - قائمة في شتى أنحاء بلاد العرب والمسلمين حتى يومنا الحاضر ، فكيف يصبح أن تقول بأنَّ العرب أقاموا مبانيهم على أنقاض الكنائس ، ألم يكن في وصية أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه للمجاهدين الفاتحين : « .. وسوف ترون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوههم وما فرغوا أنفسهم له .. »^(٨٨) .

ألا يكفيانا - كي لانطيل الأدلة على خطأ ما أورده (لوبون) في الفقرة السابقة - صلح عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل (إيلياه) بيت المقدس ، ودولة الإسلام في قمة الفتوح ، وأوج قوتها وعزيتها ؟

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا مَا أَعْطَى عِبْدَ اللَّهِ عَمَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ

(٨٨) الكامل في التاريخ ٢٢٧/٢ ، الطبرى ٢٢٦٣

إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكن أئسهم وصلبائهم ، وسقيها وبرئتها وسائر ملتها ، آنَّه لَا تُسْكَن كنائسهم ولا تُهْدم ، ولا ينتقص منها ولا من حِرْبِها ، ولا من صليبيهم ، ولا من شيءٍ من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضار أحدٌ منهم .. ^(٨٩)

إنَّ بنود هذه المعاهدة نموذجٌ لمعظم المعاهدات التي أبرمتها المسلمين الفاتحون مع البلدان التي فتحت ، وما عرفوا مطلقاً أنَّهم نكثوا عهودهم . وهذا هي الكنائس القائمة قبل الفتح ماتزال في بلاد الشَّام ومصر ، حيث بقي عددٌ من أبناء هذه البلاد على ديانتهم النَّصرانية تتبع بقاءها دون أن تَمَسَّ بسوء .

- ٣١ -

« المسجد الأقصى : بُني المسجد الأقصى في الحرم القدسيّ ، وهو قديمٌ أيضاً ، فأصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جوستينيان تمجيلاً للعذراء ، فحوّلها العرب إلى مسجد بأمر الخليفة عمر ، ثم هدم الزلزال المسجد الأقصى فجُدد بناؤه في سنة ٧٨٥ م » . [صفحة ٢٠٠] .

لوعاد (لوبون) إلى تاريخ القدس . وتاريخ المسجد الأقصى لعرف أموراً غير ماسجله في كتابه ، من أنَّ أصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جوستينيان .

إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يحول ، ولم يأمر بتحويل كنيسة في القدس إلى مسجد^(٩٠) ، بل على العكس ، فقد روي عنه آنَّه رفض تأدية صلاة حان وقتها ، وهو في زيارة لأحد بطارقة القدس ، خشية أن يتَّخذ المسلمين

(٨٩) الطُّبُري ٦٠٩/٢

(٩٠) وهذا يخالف بنود الصُّلح الموقع مع أهل إيلياء (بيت المقدس) الذي أورده في الفقرة ٢٠ السابقة .

مكان صلاته مسجداً لهم ، مما يؤذى المسيحيين ، فخرج من مكانه ، وأدى صلاته خارجها ، فبني في المكان الجديد مسجد يعرف حتى اليوم بمسجد عمر .

ومكان المسجد الأقصى يعرف منذ أقدم العصور على أنه معبد ، ويعتقد المسلمون أنه ثانٍ لمعبد بعد المسجد الحرام ، وزاد تقديسه عند المسلمين بعد اتخاذه قبلة لهم قبل أن تكون الكعبة قبليتهم ، ثم ازداد تقديسه بعد حادثة الإسراء إليه برسول الله ﷺ . حيث أُسري به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

أمّا بناء المسجد المعروف اليوم ، فكان في عهد عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد .

- ٣٢ -

« بلغت بغداد ذرْوَة الرِّخَاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد الشهير (٧٨٦ - ٨٠٩ م) » ، [صفحة ٢١٥] .

ويسجل (لوبون) صفحة ٥٤٣ رأياً آخر : « ورواية ألف ليلة وليلة الباهرة هي - لا ريب - أكثر القصص العربية شهرة ، وقد اختلفت كثيراً في مصدرها ، ويظهر من الثابتاليوم أنها مجموعة قطع وضعت في أدوار مختلفة جداً ، فوضع بعضها قبل القرن العاشر من الميلاد لذكرها في كتاب مروج الذهب الذي ألفه المسعودي في ذلك الزَّمن ، وتجد في تلك الرواية يقصاصاً من أصل هندي وفارسي ، ولكن أكثرها ألفه عرب مصر فيها بين القرن الثالث عشر ، والقرن الخامس عشر من الميلاد » .

كان من الواجب أن يشير الباحث إلى أنَّ هارون الرشيد ، الخليفة العُباسي الشهير ، والذي بلغت بغداد والدولة العربية الإسلامية في عهده ذرْوَة الرِّخَاء ، لا علاقة بينه وبين ما يرد عنه في كتاب أسطوري خيالي . يُعرف بقصص ألف ليلة وليلة .

- ١٣٤ -

وشتان ما بين شخصية الرشيد الحقيقية التي تمثل العلم والتقدم والجهاد ، وعزّة الدولة ورفعتها ، وبين شخصية الرشيد في قصص ألف ليلة وليلة حيث الغانيات والثمور والمكائد والغامرات الخيالية .

« الرشيد بطل رواية ألف ليلة » ، مع أنَّ ألف ليلة وليلة مجموعة منوعة من القصص الشعبي ، نص ابن النديم في (الفهرست) أنها مترجمة من أصل فارسي اسمه (المزار أفسان) ، أي ألف الخرافات ، ويسمىها الإفرنج (الليالي العربية) ، لأنَّها ترجمت عن العربية ، لفقد الأصل الفارسي ، وهي منتشرة بين أمم الأرض ، لما فيها من قصص تلذ للناس مطالعتها ، فهم يرون فيها أجمل الغرائب . ويرون تنوع الأخبار التي تخاطب الطبع البشري الذي يميل إلى مطالعة المصادفات ، والاتفاقات المدهشة ، والأعمال الدالة على الشجاعة والبطش ، مع أنَّ فيه من السفاهة والفساد ما يجعله كتاباً خطراً جداً على الفتيان والفتيات .

فن الثابت أنَّ مادة ألف ليلة وليلة أخذها العرب من الفرس والمنود^(٩١) ، ولقد شوهدت ألف ليلة وليلة كذباً وخياراً سيرة الرشيد ، إذ أنه أصبح منذ وقت بعيد ، رمزاً للعصر الذهبي العابر ، تفعل فيه الأعاجيب ، وتحاك حوله الأساطير .

لقد ظنَّ الأوربيون أن الرفاه في قصر الرشيد ، لا يمكن أن يكون إلاً كما كان في قصر معاصره شارلaman من شراب وفسق وفجور ، فجعلوا الرشيد بطلًا لروايات ألف ليلة وليلة ، وبصورة تشبه ما يجري في قصورهم ، مع أنَّ الرشيد لم يسمع بآلف ليلة وليلة ، لأنَّها ترجمت إلى العربية في القرن الثالث المجري ، وهو عاش في القرن الثاني المجري ، وتدلُّ قصص ألف ليلة وليلة على أنها مؤلفة من قبل عديدين ، أضافوا عليها حتى العصر المملوكي^(٩٢) .

(٩١) دائرة المعارف الإسلامية ١٨٧٢ ، دائرة المعارف البستاني ٢٦١/٤

(٩٢) هارون الرشيد : أمير الحلفاء وأجل ملوك الدنيا ، ص ١٢٤ وما بعدها .

وذكر (لوبون) المسعودي وكتابه مروج الذهب . ليته أورد جزءاً يسيراً مما جاء فيه عن الرشيد . وعندها يحذف عبارته الظالمة « الرشيد بطل روایة ألف ليلة وليلة » .

قال المسعودي تحت عنوان : « وصف الرشيد » : « كان مواطباً على الحجّ ، متابعاً للغزو ، واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة ، وأظهر ذلك بها وبنى وعرفات ، ومدينة النبي ﷺ ، فعمَّ الناس إحسانه ، مع ما قرنه به من عدله ، ثمَّ بنى التغور ، ومدَّن المدن ، وحصن فيها المضون ، مثل طرسوس وأذنة . وعمَّ المصيصة ومرعش . وأحكم بناء الحرب ، وغير ذلك من دور السبيل والموضع للمرابطين ، ولأبيه عماله ، وسلكوا طريقته ، وفترة رعيته مقتدية بعمله ، مُستندة بِإمامته ، فقمع الباطل ، وأظهر الحقّ ، وأنار الأعلام ، وبرز على سائر الأمم .. » إلى أن يقول المسعودي : « فسمى الناس أيامه ، لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها ، أيام العروس »^(٩٣)

- ٣٣ -

« ولم يمنع عمرو بن العاص من عادات المصريين ، سوى عادة اختطاف إحدى العذارى من أبوها في كلّ سنة ، وقدفها في النيل . لكي يمْنَ إله النيل على مصر بما تحتاج إليه من الماء وقت الفيضان . فاستبدل عمرو بن العاص بتلك العادة العادة التي لا تزال موجودة إلى يومنا ، وهي قذف ثقال خزفي يُدعى بالعروض في النيل في يوم معين من كلّ سنة .. » ، [صفحة ٢٦٨] .

وهذا كلام مرفوض . وصوابه كما جاء في : (التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) :

« لما ولي عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر ، أتاه أهلها حين دخل بئونة ٢١٦/٤ مروج الذهب ^(٩٤) »

من أشهر القبط المذكورة^(٩٤) ، فقالوا له أينها الأمير ، إن نيلنا عادة أو سنة لا يجري إلا بها ، فقال لهم : وماذاك ؟ قالوا : إنه إذا كان في اثنى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر (يعني بئونته) عمدنا إلى جارية بكر من عند أبوها وأرضينا أبوها وأخذناها ، وجعلنا عليها من الخل والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل فيجري ، فقال لهم عمرو بن العاص : إن هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله^(٩٥) ، فأقاموا بئونته وأبيب ومسري لا يجري النيل قليلاً ولا كثيراً حتى همّوا بالجلاء ، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فكتب إليه عمر بن الخطّاب : قد أصبحت ، إن الإسلام يهدم ما قبله ، وقد أرسلنا إليك بطاقة ترميمها في داخل النيل إذا أتاك كتابي .

فلما قدم الكتاب على عمرو بن العاص رضي الله عنه ، فتح البطاقة فإذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أمّا بعد ، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار الذي يُجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك ». .

فعرفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة ، ثم ألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم عيد الصليب بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها ، لأنّه لا يقيم بصالحهم فيها إلا النيل ، فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجراه الله

(٩٤) وهو شهر حزيران ، والأشهر القبطية هي : أبيب (توز) ، مسري (أب) ، توت (أيلول) ، بابه (تشنين الأول) ، هاتور (تشنين الثاني) ، كهيك (كانون الأول) ، طوبة (كانون الثاني) ، أمشير (شباط) ، برويات (آذار) ، برمودة (نيسان) ، بشنس (أيار) ، وبئونته (حزيران) ، [التّلجمون الراهنة ٢٤/١ و ٣٥] .

(٩٥) من عادات وثنية لا يقرّها التّوحيد ، أو العقل الموضوعي .

ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطع تلك السنة القبيحة عن أهل مصر ببركة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(٩٦) .

- ٣٤ -

▪ واستغاث عرب إسبانية ببرير مراكش في سنة ١٠٨٥ م ليحولوا دون تواли انتصارات ملك قشتالة وليون الأذفونش السادس .. » ، [صفحة ٣٢٢] .

عبارة تحتاج إلى الدقة والموضوعية ، وصوتها : « واستغاث مسلمو الأندلس بسمي مراكش .. » ، فدولة المرابطين (المثمرين) : [٤٤٠ - ٥٤٢] ، مقامت باسم البربر ، وإن كانت أصولهم من صنهاجة الصحراء الكبرى ^(٩٧) ، التي يرجع ابن خلدون أصلها إلى الجزيرة العربية ، منها نزحت إلى المغرب واستقرت على شواطئ الأطلسي ^(٩٨) .

نشأت دولتهم باسم الإسلام ، فهم المرابطون في التغور لدفع العدو ونشر الدعوة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَبِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، [آل عمران ٢٠٠/٣] ، هؤلاء كان الإسلام لهم - كا هو دائمًا في أتباعه الخالص - كيياء سحرية ، فأحياناً بعد موته ، وعلمه بعد جهله ، وجمعهم بعد فرقه ، فقاموا للفتح فتوسعوا في المغرب الأقصى ، وحوض النيل .

وما هو جدير بالذكر أن المرابطين حافظوا على الوحدة الإسلامية ، فلم يتخلدوا لقب الخلافة ، واستمدوا الشرعية من اعتراف الخليفة العباسية بدولتهم ، فقد أرسل يوسف بن تاشفين سفارته إلى الخليفة المستظاهر مكونة من عبد الله

^(٩٦) النجوم الزاهية ٢٥/١ و ٣٦ ، وهذا ما أورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ١٠٠/٧ من قبائل المثمرين : جزولة ، ولطة ، وجدة ، ومسوفة ، ودكالة ، وهسکورة ، ولتونة ، وكانت الرئاسة في المثمرين للتونة .

^(٩٧) ابن خلدون (العبر) ١٨٤/٥

المغافري الإشبيلي وولده أبي بكر ، وطلب منه أن يعقد ليوسف على المغرب
والأندلس ففعل^(٩٩) .

وكان أشياخ المرابطين وأعيانهم يملكون إلى تسمية يوسف بن تاشفين
بأمير المؤمنين . ولكن يوسف رفض بتاتاً وقال : حاشا الله أن تسمى بهذا
الاسم ، إنما يتسمى به خلفاء بنى العباس ، لكونهم من تلك السُّلالة الكريمة ،
لأنَّهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم^(١٠٠) .

لقد وصف الأنديسيون ابن تاشفين « بعقد الآمال ، وأن الله قد اصطفاه
لإنقاذ الإسلام »^(١٠١) ، وحقق ابن تاشفين انتصار الزَّلقة العظيم : [الجمعة
١٢ رجب ٤٧٩ هـ ، ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٨٦ م] ، الذي اهتزت له
نقوس المسلمين في كلّ بقاع العالم الإسلامي ، وعف عن المقام ، وعاد إلى
مراكش ، فعاد ملوك الطوائف إلى التناحر وتوطيد سلطانهم على حساب الإسلام
ذاته . ولم يتورّع بعضهم عن التحالف سرّاً مع ألفونسو السادس ، فعاد ابن تاشفين
بتطلب من القضاة والفقهاء ، كأنَّ أبي حامد الغزالي ، وأبا بكر الطُّرطوشى في
الشرق الإسلامي ، أرسل لاين تاشفين خطاباً يحيثنه فيه على خدمة الإسلام ،
ويفتیانه في ملوك الطوائف .

لقد أنقذ المرابطون الأندلس من انهايارٍ محقٍّ ، وضبطوها بعزم وحزم ، بعد
فوضي وضياع ، كما وضعوا حدّاً لمهزلة ملوك الطوائف ، وأمدوا بقاء المسلمين في
الأندلس أربعة قرون من الزَّمن ، وعلى ما سبق :

استغاث مسلمو الأندلس بسلمي مراكش .

(٩٩) ابن خلدون ٢٨٦٦

(١٠٠) الحلل الملوثية ١٨

(١٠١) ابن خلگان ٤٨٢/٢

« ولم يكبد عبد الرحمن^(١٠٢) يَقْبِض على زمام الحكم في إسبانيا حتى أخذ يسعى في حمل العرب على اتخاذ إسبانيا وطنًا لهم ، فأنشأ جامع قرطبة الشهير الذي هو من عجائب الدنيا لتحويل أنظار العرب عن مكة » ، [صفحة ٣٣٨] .

أخطاء كثيرة يقع فيها المؤلفون الغربيون نتيجة جهلهم بالإسلام ، وجعلهم أحياناً بأسباب الحوادث التي يتعرضون لبحثها ، والكتابة عنها ، فحين يكتب (لوبون) وغيره عن عبد الرحمن الأموي ، سليل خلفاء بني أمية في الشام ، والذي حمل في التاريخ لقب عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) ، لأنّه استطاع أن ينجو بنفسه من أيدي العباسيين بعد نجاحهم بثورتهم وإحاطتهم بالحكم الأموي^(١٠٣) ، واستيلائهم على السلطة والحكم ، أقول بعد نجاح عبد الرحمن بالوصول إلى الشمال الإفريقي ، ودخوله أرض الأندلس ، حيث كانت جزءاً من الدولة العربية الإسلامية في عهد الخلافة الأموية ، ونجح بحكم الأندلس ، وانفصل بها عن الدولة العباسية ، واستقلّ بالأندلس ، فأسس أسرة حاكمة أبوية في الأندلس ، لم تعرف بالخلافة العباسية . وحين أنشأ جامع قرطبة الشهير مأراً أن ينافس به العباسيين في مساجدهم وقصورهم . بل أراده جامعاً يليق بإمارته الجديدة . يتناسب وحاضرة إمارته قرطبة ، وما أراد أبداً ، ولا خطر له ببال أن يوجه أنظار العرب عن مكة . فهو لا يجرؤ على ذلك أولاً ، وهو يعلم ثانياً أن مكة المكرمة تأخذ شهرتها من كعبتها المشرفة ، التي هي قبلة المسلمين منها اختلت أمصارهم ودولهم وتبعاً دعت أصقاعهم . ومما كانت الخلافات بينهم ،

(١٠٢) عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) : [١١٣ - ١٧٢ - ٧٨٨ = ٧٣١ م] ، دخل قرطبة وبنى فيها القصر وعدة مساجد .
 (١٠٣) سنة ١٣٢ هـ .

فَكُلُّهُمْ يَتَجَهُونَ بِصَلَاتِهِمْ نَحْوَ مَكَّةَ ، أَيْ نَحْوَ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ ، فَلَا يَسْتَطِعُ أَمِيرٌ ،
أَوْ خَلِيفَةٌ تَحْوِيلَ أَنْظَارَ الْعَرَبِ عَنْ قَبْلَتِهِمْ ، عَنِ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ .

- ٣٦ -

« استطاع عبد الرَّحْمَنُ الْغَافِقِيُّ أَنْ يَسِيرَ ، إِذْنَ ، مُنْتَصِراً غَيْرَ هَيَابٍ إِلَى
الْأَمَامِ ، وَأَنْ يَخْرُبَ الْحَقُولَ الْخَصْبَةَ الْوَاقِعَةَ بَيْنَ مَدِينَةَ بُورْدُوْ وَمَدِينَةَ تُورْ ، وَأَنْ
يَأْخُذَ غَنَامَ كَثِيرَةً مِنَ الْمَدِنِ ، وَنَحْنُ إِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنْ
يَنْهَا الْبَلْدَانُ الَّتِي يَرْغَبُونَ فِي اسْتِيَاطَانَا ، كَمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ غَيْرَ مَرْءَةً ، رَأَيْنَا أَنَّ
سُلُوكَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ يَدْلُلُ عَلَى أَنَّهُ بِدُخُولِهِ فَرْنَسَةَ لَمْ يَفْكُرْ فِي غَيْرِ
الْغَنَامِ .. » ، [صَفَحةُ ٢٨٥] .

سَاعَرِفُ عَنِ الْعَرَبِ فِي فَتوْحَاتِهِمْ تَخْرِيبَ الْحَقُولَ الْخَصْبَةَ ، وَلَا هَدْمَ
الْعَمَرَانَ ، لَمْ تَكُنْ هَذِهِ أَخْلَاقُهُمْ مُطْلَقاً .

وَهُلْ يَكُنْ أَنْ يَصِدِّقَ أَيُّ دَارِسٌ مُنْصَفٌ عِنْدَ دِرَاسَتِهِ لِفَتوْحِ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ
فِي جَنُوبِيِّ فَرْنَسَةَ ، وَوَصْوَلُهُمْ إِلَى أَوْاسِطِهَا مَا يَقُولُهُ (لَوْبُون) مِنْ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنَ
الْغَافِقِيَّ لَمْ يَفْكُرْ فِي حَلْتِهِ عَلَى فَرْنَسَةِ فِي غَيْرِ الْغَنَامِ .

لَوْأَنْصَفَ الدَّكْتُورُ لَوْبُونَ لَقَالَ : نَتْيَاجَةُ لِاِنْتِصَارَاتِ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ فِي
طَرِيقِهِمْ إِلَى تُورْ ، أَنْقَلُوا بِالْغَنَامِ ، إِنَّهُمْ اَنْطَلَقُوا لِلْفَتْحِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَةِ إِلهِيَّةٍ ، أَمَّا أَنَّ
يَكُونَ السَّبِبُ الْوَحِيدُ لِدُخُولِ فَرْنَسَةِ هُوَ الْحَصُولُ عَلَى الْغَنَامِ ، فَهَذَا ظَلْمٌ كَبِيرٌ .

أَلَمْ يَعْلَمْ (لَوْبُون) أَنَّ هَذِهِ الْحَمْلَةَ الَّتِي قَادَهَا الْغَافِقِيُّ ، إِنَّهَا هِيَ حَلْقَةُ مِنْ
سَلْسَلَةِ كَثِيرَةِ الْحَلْقَاتِ ، تُمَثِّلُ حَرْكَةَ الْفَتْحِ مِنْذِ خَرْجِ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ
جَزِيرَتِهِمْ ، وَمَا دَامُوا يَحْمِلُونَ رِسَالَةً يَعْتَبِرُونَ أَنفُسَهُمْ مَكْفُوفِينَ بِتَبْلِيغِهَا إِلَى أَهْلِ
الْأَرْضِ ، وَيَعْمَلُونَ عَلَى الإِطْاحَةِ بِكُلِّ الْعَقَبَاتِ وَأَنْظَمَةِ الْحُكْمِ الَّتِي تَقْفَ دُونَ
تَحْقِيقِهِمْ هَذَا الْمَهْدَفُ ؟

- ١٤١ -

لـوأنه علم ذلك ، ونظر بهذا المنظار لعرف أسباب دخول الغافقي أرض فرنسة ، كما دخلها الكثيرون من سبقه من قادة العرب في الأندلس ، أمّا أن يحملوا الغنائم ، فهذا أمر طبيعي في جميع جيوش العالم ، وخصوصاً في تلك الفترات من التّاريخ ، بل ما يزال ذلك صفة من صفات الجيوش الغازية والفاخحة حتّى اليوم .

إن استباب الفتح العربي الإسلامي في الأندلس ، مهد لنقل ميدان الجهاد وراء جبال البرانس ، في فرنسة ، فعبر السّمّح بن مالك الحولاني وفتح إقليم سبتمانية^(١٠٤) . وعبر عنبرة بن سحيم الكلي أيضاً واخترق حوض نهر الرّون من جنوبه إلى شماليه ، حتى وصل مدينة سانس^(١٠٥) ، وعبر عذرة الفهري . واقتحم إقليم سبتمانية مرّة أخرى ، ودخل حوض الرّون .

وال المسلمين في حروفهم هذه ، لم يتعرّضوا للكنيسة أو دير ، ولم يخربوا ولم يشعّلوا ناراً بمدينة ، لقد فتحوا قبل ذلك بلاد الشّام ومصر وإفريقياً والأندلس ، وهي كلها غاصّة بالكنائس والأديرة ، وما إليها من المؤسّسات النّصرانية ، فلم يحرقوا ، ولم يخربوا ، ولم يهدموا ، فمن العجب أن ينقلب حالم إذ عبروا إلى فرنسة وحوشاً ضاربة مخربة !!

وعبر عبد الرحمن الغافقي إلى فرنسة وبالغت المراجع التّصرينية في وصف الغنائم التي جلّها المسلمين وهم على تلك الأرض . والحكم المنطقي أنَّ المسلمين حملوا بعض الغنائم لاشك ، ولو أحسنوا لبعثوا نفراً منهم ، ليودعها جنوباً بعيداً عن ميدان المعركة .

(١٠٤) الريشيرا اليوم ، يطلُّ على البحر المتوسط جنوب فرنسة ، حاضرتها أربونة .

(١٠٥) سانس تقع في ضواحي باريس الجنوبيّة ، حوالي ٢٠ كم .

- ٣٧ -

و يستطيع العربيُّ الذي تحبِّط نسأوه به هنالك أن يطلق خياله العنان :
فيخيل إليه أنه يرى من خلال دخان نارجيلته أنه انتقل إلى جنة محمد ، [صفحة ٤٤٦] .

أولاً : الأصل في الإسلام الزوجة الواحدة ، لا التعدد .

ثانياً : لا يليق بلوبيون أن يسجل على نفسه عبارة لاتلقي بعلامة مثله^(١٠٦) : « فَيَخْيَلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَرَى مِنْ خَلَالِ دُخَانِ نَارِجِيلَتِهِ أَنَّهُ اتَّقَلَ إِلَى جَنَّةِ مُحَمَّدٍ » ، فمحمد عليه السلام لا يملك جنة ، الجنة جنة الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسِّعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۚ وَنَزَّعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غُلٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ۖ وَمَا كُنَّا لِنَهَتِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثَمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف ٤٢/٧ و ٤٣] .

(١٠٦) ومن الصور غير الصحيحة التي أوردها لوبيون صفحة ٤٥٠ : « فَسَأْلُ المخطوبية عن رأيها صورة ، فلا تكون لديها ما يتوغّر رفضها تزوجه ، مادامت لا تراه إلا بعد عقد الزواج » ، مع أن قول رسول الله عليه السلام صريح واضح : « لاتنكح الأم حتى تشتأنر ، ولا البكر حتى تستأند » ، [رواه الجماعة] ، كما أمر عليه السلام أن ينظر لها وتنظر إليه : « فإنه أخرى أن يؤذم بيتكا » ، يعني أن تكون بينهما الحبة والاتفاق ، [السان : أدم] ، ورد عليه زواج خنساء بنت خدام الانصارية لأنها لم تتوافق على زوجها .

وقال لوبيون صفحة ٤٥٢ : « ويتقىد المجازة فريق من الغنيمان والمساكين ، مرتبين بعض أي القرآن ، ويأتي خلفها الأقرباء والأصحاب والنائحات » ، صورة غير لائقة ، لماذا (الغنيمان) بالذات ، ولماذا (النائحات) ؟

- ١٤٣ -

- ٣٨ -

والمخسيش الذي هو مادة مُسْكِرَة ، من أهم وسائل اللهو والتسلية عند أمة الشرق منذ قرون . فالفللاح الشرقي الحقير يصبح وقتاً يتعاطاه سعيداً حيناً فلا يرضى بحظٍ أعظم ملوك الأرض بدلاً من حظه ، والشرقيون قد حلوا بفضلهم مشكلة وضع السعادة في الزجاجة التي لا تُغَيِّر حيازتها ، وهو إذ لا يزال ذا شأن عظيم في حياتهم ، نرى من المفيد أن نقول كلمة في خواصه :

يُصنَع المخسيش من القنب الهندي كـ « يَعْلَمُ الْعَالَمَ » ، ويُباع في القاهرة والقسطنطينية على العموم .. » ، [صفحة ٤٥٤] .

لم يكن المخسيش الذي هو مادة مخدّرة ومسكرّة من وسائل اللهو والتسلية عند العرب عامة ، وال المسلمين خاصة . ذلك أنه عندهم من المحرمات ، وليس وسيلة تسلية . ولذلك فقد انتشر بين غير المسلمين أكثر بكثير من انتشاره بين المسلمين ، ولا يزال الإسلام حتى الآن سياجاً متيناً يحمي المجتمع الإسلامي من أمثال هذه الأمراض الخطيرة ، وإذا وجدناه قد انتشر في بعض المجتمعات الإسلامية ، فيكون ذلك نتيجة الجهل وقلة الوعي الإسلامي في تلك المجتمعات ، وكان للاستعمار الأوروبي دور كبير في نشر المخسيش في المستعمرات .

لقد استعمّرت بريطانيا - بهدف شركة الهند الشرقية - الهند ، فتطلعت إلى استعمار الصين . التي لم تفتح أبوابها حرّة أمام تجارة البريطانيين ، الذين وجدوا المبرر للتدخل ، ألا وهو اعتراض الصين على تجارة الأفيون ، الذي زرعه البريطانيون في الهند ، حتى أصبح ٢٧٪ من الصينيين مدمني أفيون . وصارت صادرات الصين كلها لاتسدّد ثمن الأفيون^(١٠٧) ، وكانت حرب الأفيون الأولى سنة ١٨٤٠ م ، والثانية سنة ١٨٥٧ م .

(١٠٧) حرب الأفيون ، محمد العزب موسى ، سلسلة أقرأ : ٢١١ ، سنة ١٩٦٨ م (دار المعارف بمصر) .

- ٣٩ -

« ومِثْلُ ذَلِكَ شَانُ مُحَمَّدٌ ، فَهُوَ قَدْ عُرِفَ كَيْفَ يَخْتَارُ مِنْ نُظُمِ الْعَرَبِ الْقَدِيمَةِ ، مَا كَانَ يَبْدُو أَقْوَمَهَا ، فَدَعَهَا بِنَفْوَذِ الدِّينِ الْعَظِيمِ ، وَلَكِنْ شَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ لَمْ تَنْسَخْ جَمِيعَ الْعَادَاتِ الَّتِي قَامَتْ مَقَامَهَا كَأَنَّ قَانُونَ الْأَلْوَاحِ الْأَثْنَيْ عَشْرَ لَمْ يَقْضِ عَلَى قَوْانِينِ الرُّومَانِ الْقَدِيمَةِ ، وَمُحَمَّدٌ حِينَ رَأَى أَنَّ يَحْرِمَ بَعْضَ الْعَادَاتِ الْقَدِيمَةِ كَالْوَادِ ، لَمْ يَفْعُلْ غَيْرَ مَا يَلَامُ الْمُشَاعِرَ الْمُنْتَشِرَةَ بِدَرْجَةِ الْكَفَايَةِ فَلَا تُقْرَأُ » ، [صَفَحَةُ ٤٦٧] .

تَارِيَةٌ يَقُولُ (لُوبُون) فَكَرَّ مُحَمَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاخْتَارَ مُحَمَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَرَادَ مُحَمَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَارِيَةٌ أُخْرَى يَقُولُ : جَاءَ الْوَحِيُّ عَنْ طَرِيقِ جَبَرِيلٍ إِلَى مُحَمَّدٍ بَكُنَا وَكُنَا .

مُحَمَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، مُثْلُهُ مُثْلُ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، فَهُوَ لَا يَخْتَارُ مِنْ نُظُمِ الْعَرَبِ الْقَدِيمَةِ مَا كَانَ يَبْدُو أَقْوَمَهَا ، بَدْلِيلُ أَنَّ حَرَمَ أُمُورًا بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ ، لَمْ تَكُنْ نُفُوسُ الْعَرَبِ تَتَقَبَّلَ تَحْرِيَهَا وَمَنْعِهَا ، فَلَمْ يَفْعُلْ مَا يَلَامُ الْمُشَاعِرَ الْمُنْتَشِرَةَ كَمَا يَدْعُونِي (لُوبُون) ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ ، مَنْعُ الْعَرَبِ مِنْ أُمُورٍ كَانُوا شَدِيدِي التَّعْلُقُ بِهَا ، مُثْلٌ : الْعَصَبَيَّةُ الْقَبْلِيَّةُ الَّتِي أَحْلَّ مَحْلَهَا أُخْرَوَةُ الْعَقِيدةِ ، وَرَابِطَةُ الْإِيَّانِ ، وَمُثْلٌ تَحْرِيَهِ الرِّبَا ، وَكَانَ مُنْتَشِرًا وَيَصْبَعُ تِرْكَهُ ، وَحَرَمَ الْخَمْرَ وَهِيَ مَا انتَشَرَ بَيْنَ الْعَرَبِ وَعَظِيمَ تَسْكُنُهُمْ بِهَا ، وَإِقْبَالُهُمْ عَلَيْهَا ، وَمُثْلٌ ذَلِكَ حَرْبُهُ لِلشَّرِكِ وَالْوَثْنِيَّةِ مَا لَقِيَ غَايَةُ الصُّعُوبَةِ فِي حَرْبِهِ لَهَا ، وَتَحْطِيمُ قَدْسِيَّتِهَا فِي نُفُوسِ الْعَرَبِ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَحْلِلُ وَيَحْرِمَ مِنْ نَفْسِهِ لِيَوَافِقَ مَا يَتَلَاءَمُ مَعَ مَشَاعِرِ النَّاسِ ، بَلْ كَانَ يَنْفَذُ مَا يَطْلُبُهُ اللَّهُ مِنْهُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحِيِّ ، فَهُوَ إِنَّمَا يَبْلُغُ رِسَالَةَ رَبِّهِ لِلنَّاسِ : ﴿فَاصْدِعْ بِمَا تُؤْمِنُ وَأَغْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ، [الحِجْرُ ١٥/٩٤] .

- ٤٠ -

• وَالْقُرْآنُ الَّذِي لَاءَمَ مَشَاعِرَ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاحْتِياجَاتِهَا أَيَّامَ مُحَمَّدٍ مُلَائِمَةٌ تَامَّةٌ ، عَادَ غَيْرَ ذَلِكَ بَعْدَ بَضْعَةِ قَرْوَنَ .. » ، [صَفَحَةُ ٤٨٠] .

غوستاف لوبون (١٠)

- ١٤٥ -

أخطأ (لوبون) في فهمه وتعليقه في هذه العبارة ، فالقرآن الكريم لم يلام مشاعر الأمة العربية ، بل لاءم منها الفطرة السليمية التي فطر الله الناس عليها ، أمّا من غرقت نفوسهم في شهواتها ، وتغلبت عليها غرائزها ، وانساقت وراء أهواءها ، فلم يكن القرآن الكريم ، وتعاليه السّاحة مما يتلاءم مع نفوسهم ، وهذا امتنعوا وحاربوا ، إلى أن عادوا إلى صوابهم ، وأخذدوا يفكرون فيها رأوه من تأثير القرآن على أصحابهم وأقاربهم وأبنائهم ، وحكموا في ذلك عقولهم ، فاعتنتقوه لا لأنّه لاءم ما في نفوسهم ، بل لأنّهم وجدوا الخير فيه ، وعرفوا الشرّ الذي كان يلاً نفوسهم .

وأخطأ (لوبون) ثانية حين قال : إنّ القرآن لم يعد ملائماً للناس بعد بضعة قرون ، القرآن أصبح غريباً بعيداً عن نفوس فئات من المجتمعات الإسلامية ، التي أبعدت التّيارات المعادية للإسلام ، وفي مقدمتها المستعمرون والمبشرون المتعصّبون ، أفرادها عن تعاليم القرآن الجيد ، فصاروا يرون فيه قيداً يمنعهم من تحقيق ما يظنهونه سعادة ومتعة وتقديماً ، وصاروا يصدرون على القرآن أحكام أولئك المعادين له ، كـ لقنوها ، دون وعي أو دراسة أو تفكير ، وحين بدأت عودة المسلمين إلى مراجعة حساباتهم ، ودراسة قرآنهم ، تغيرت الحال ، وبدأت صحوة المسلمين إلى واقعهم ، وعودتهم إلى قرآنهم .

- ٤١ -

« التّصوير : من الأقوال الشائعة أنه حرم على المسلمين تصوير الآلهة وال موجودات الحية ، ويعزو القرآن ، أو تفاسير القرآن على الأقل ، هذا المنع إلى النبي ».

والواقع أنّ المسلمين لم يكتروا لذلك إلاّ في زمن متاخر ، وأنّهم تجاهلوا زمناً طويلاً ، كما تجاهلوا منع ذلك الكتاب المقدس لـ لعبته الشّطرينج ، والشرب بآلية من الذهب أو الفضة ... » ، [صفحة ٦١٢] .

- ١٤٦ -

في مثل هذه الأمور ، يجدر بلوبيون ألا يلقي الكلام جزافاً ، بل عليه أن يبحث ويتحقق ويوثق أقواله ويعزوها إلى مصادرها ، أمّا أن يقول : من الأقوال الشائعة ، فمن قال له أن تحرير تصوير الآلهة ، أو تمثيلها بأصنام وتماثيل هي من الأقوال الشائعة ، كان عليه أن يبحث في القرآن الكريم ، وفي سُنّة الرسول العظيم ﷺ عن وجود ما يحرّم ذلك أو لا يحرّم ، أمّا أن ينصب نفسه فقيها إسلامياً . فهذا ليس من صفات العلماء المحقّقين .

وحيث يقول إنَّ هذا المنع يعزى إلى النبي ﷺ ، فقد نسي أنَّ أقوال النبي ﷺ هي جزء لا يتجزأ من شريعة الإسلام ، وهي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم ، فما له يخبط في أقواله خبط عشواء ، ومن هنا وصل الإسلام إلى الغرب مشوّهاً ، لأنَّ الذين كتبوا فيه وعنده ، إنما هم أناس يجهلون الكثير عن الإسلام وتشرعياته^(١٠٨) .

ومن أخبر العلامة (لوبيون) أنَّ المسلمين لم يكترووا لموضوع تصوير الآلهة وتمثيلها إلَّا في زمن متأخر ، ألم يرَ أنَّ الفنون الإسلامية نَحْت نتيجة لذلك مناحي تختلف عَمِّا هي عليه في أوربة ، فقد ارتفعت عند المسلمين فنون في مجال الخط والترزيين بالكتابة ، فنشأت خطوط تزيينية غاية في الجمال والروعة ، وكذلك في مجال الطبيعة والاقتباس منها ، وإلى غير ذلك ؟

ومن قال : إنَّ القرآن الكريم منع لعبة الشّطرنج ؟ ماسعنا ذلك إلَّا من (لوبيون) . وربما كان الشّطرنج من وسائل التسلية القليلة التي لا يزري الإسلام فيها أيّ مانع ، إنَّ الإسلام يحرّم ما يفسد الأخلاق ، ويضعف الضمير والوجدان ،

(١٠٨) جاء في اللسان : التصاوير : التماثيل ، لقد تبعَ النبي ﷺ مظاهر الشرك والوثنية ، وقضى عليها ، ومحى التوحيد ، فالتماثيل عبدت من دون الله ، فعلة تحرير اتخاذ التماثيل ، قرب عهد القرشيين بعبادة الأصنام ، جاء في سورة سبأ : ١٢٤ : هُنَّ يَمْلُؤُنَّ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانِ كَالْجَوَابِ وَقَدْرُ رَازِيَاتِ أَعْمَلُوا أَلَّا دَاؤُهُ شَكُراً ، وَقَلِيلٌ مِنْ عَبَادِي الشّكُورِ هُنَّ [أحكام التصوير في الفقه الإسلامي ، الشيخ محمد حبش ، نشر دار الخير سنة ١٩٨٧ م] .

وينشر المُئِسِر وما يشبه ذلك ، كا يمنع الاعتماد في الحياة على ما يسمى الحظ ، داعياً المجتمع إلى كسب الوقت بعمل نافع ، وإلى الربح عن طريق الجد والعمل .
أمّا استخدام آنية الذهب والفضة ، فيعتبره الإسلام لوناً من ألوان الإسراف والتبذير .

- ٤٣ -

« ويَحْبُّ أَلَا تَسْتَنْبِطُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ نَتَائِجٌ وَاسِعَةٌ ، فَإِذَا كَانَ الْعَرَبُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَنْدُوسِ عِلْمًا ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ ، فَإِنَّهُمْ دُوَّنُهُمْ فَلْسَفَةً وَدِيَانَةً ، فَلَيْسَ فِي عَامِيَّةِ الْقُرْآنِ وَلَا هُوتَيْتَهُ الصَّبِيَّانِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَيْضًا مِنْ صَفَاتِ الْأَدِيَانِ السَّامِيَّةِ مَا يَقُولُ بِنَظَرِيَاتِ الْمَنْدُوسِ الَّتِي أُتْبِعَتْ لِي أَنَّ أَيْمَنَ عُمْقَهَا الْعَجِيبُ فِي كِتَابِ آخر » ، [صفحة ٦٧٤] .

لم نفهم ما يريد (لوبون) من عبارة : « عاميَّة القرآن ولاهوتيَّة الصَّبِيَّانِيَّةِ » ، ليته شرح لنا مقاصده ، كأننا لم نفهم معنى العمق العجيب في نظريات الهندوس الدينيَّة .

هل تخلي ياتري غوستاف لوبيون عن دياناته السماوية ذات اللاهوتيَّة الصَّبِيَّانِيَّةِ كَا يصفها ، فيقول : إن هذه الصفة من صفات الأديان الساميَّة ، وديانته - لاشك - ديانة ساميَّة ، فلماذا لم يتركها ، ويتذكر لها وينتقل إلى عبادة قوى الطبيعة ، كالشمس والقمر والهواء والعاصفة .. وإلى تقديس البقرة إن كان حقاً ما يقول ويدعى ؟

أمّا أن يقارن عالم فيلسوف مؤرخ بهذه البساطة والسذاجة بين دين سماوي له من التشريعات ، ماماً المكتبات لها شرحاً وتفصيلاً وثناءً واقتباساً .. واعترف خصومها قبل أصدقائها بعظمتها وتقديرها وعدالتها وإنسانيتها ، وبين ديانات وثنية لاتمت إلى الفطرة السليمية بصلة ، ولا يقبلها منطق أو عقل .

- ١٤٨ -

التوحيد الحالص بلاغوامض أو خرافات ، أو أسرار أو خزعبلات ، مع تقدير العقل وإحترام محكمته ، لاعمق فيه ، بل إنه لا هوتية صبيانية ، وانتساب إلى الجنس السامي المفطور على إدراك الجزئيات وحدها ، ومن العبث أن نلقي عند هذا الجنس آراء علمية أو دروساً فلسفية ، أو عمقاً كا هو عند المندوس الآريين !! وهكذا ، فإن تعدد الآلهة ، والوثنية ، وضبابية الرؤية ، وإبعاد العقل و « وأقبل وأنت أعمى ، واسع وأنت أعمى ، وأطع وأنت أعمى ... » ، عمق ولاهوتية ناضجة مكتملة .

عجب غريب أمر الأوريين ، لقد وصلوا في أيامنا هذه إلى قبول تعبئة هواء مدينة القدس في أوعية من البلاستيك الجميل المزین ، واستيراده من الأرض العربية المحتلة^(١٠٩) ، لي Bauer للمتدینين بشن غير جنس ، ليس أحدهم أنفه ويستنشق الهواء بعمق ، إنهم يصدقون الخرافة من عدونا ، ويرفضون الحقيقة منا ، لأن خرافة العدو حولها مؤمنون يصدّونها بجرارة العاطفة ، ورجال دهاء يسعون مساحتها ، بما أوتوا من علم ومال^(١١٠) .

- ٤٣ -

« ظهر من العرب رجال من الطراز العالي ، كما تشهد بذلك اكتشافاتهم ، ولكنني لا أظن أنهم أخرجوا رجالاً عظماء كأولئك العباقرة الذين ذكرتهم^(١١١) ، والعرب كانوا دون الإغريق في كثير من المسائل ، مساوين للرومانيين في الذكاء لا ريب ، غير حائزين ، إلا لوقت قصير ، ما كان سبباً في دوام فوز روما طويلاً من الصفات الأخلاقية » ، [صفحة ٧٣١] .

(١٠٩) يتصدر هواء القدس إلى أوربة وأميريكة ، ولو تم تعبئة هواء مكّة ، لأنّج الأعداء المسلمين ، ووظفت وسائل إعلامهم بلا استثناء لبث وإثبات أن هواء مكّة كأي هواء آخر في الدنيا !؟

(١١٠) الغزو الثقافي يتقد في فراغنا ، محمد الغزالى ، ص ٢٠٠ (بتصرف) .

(١١١) ذكر نيوتن ولابيتر .

كَنَا نَتَّنِي لَوْأَنْ غُوْسْتَافْ لُوبُونْ أَثَبَتْ صَحَّةَ قُولَهُ بِأَنَّ الْعَرَبَ دُونَ الْإِغْرِيقِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ ، بِعِصْمِ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي تَقْنِعُ الْقَارِئَ ، فَإِنَّ مَا كَانَ يُعْرَفُ بِالْمَعْجِزَةِ الْيُونَانِيَّةِ أَصْبَحَ أَسْطُورَةً الْيَوْمِ أَمَامَ الْمَعْجِزَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا إِنَّ الَّتِي لَاشَكَ أَنَّهَا أَخْذَتْ وَاقْتَبَسَتْ مِنْ كُلِّ الْحُضُورَاتِ الَّتِي سَبَقَتْهَا ، لَكِنَّهَا قَدَتْ وَصَحَّحَتْ وَأَضَافَتْ وَأَبَدَعَتْ ، فَجَاءَتْ عِلْمُهَا كَالْمَعْجِزَةِ خَلَالَ فَتْرَةٍ وَجِيزةٍ مِنْ عَمْرِ الْزَّمْنِ .

« التَّوَاصُلُ وَالْعَطَاءُ قَدِيمٌ بَيْنَ الْحُضُورَاتِ ، فَمَا مِنْ حَضَارَةٍ قَامَتْ إِلَّا وَأَخْذَتْ مِنْ سَبَقَهَا ، ثُمَّ أَضَافَتْ وَأَبَدَعَتْ ، فَحَرْكَةُ الْحُضَارَةِ حَرْكَةٌ تَنَاوِيَّةٌ ، تَأْخُذُ وَتَعْطِي ، تَتَأْثِيرُ وَتَؤْثِيرُ ، وَشَرَقْنَا أَوَّلَ مَنْ أُعْطِيَ ، ثُمَّ أَخْذَ ، ثُمَّ أُعْطِيَ .

وَلَا جَاءَ دُورُ أَمْتَنَا فِي بَنَاءِ صَرْحِ الْحُضَارَةِ ، قَامَتْ بِالدُّورِ الْمُطَلُوبِ مِنْهَا يَا تَقَانَ ، لَقَدْ قَامَتْ بِعَمَلٍ إِنْقَاذِيٍّ لِهِ مَغَازِهِ الْكَبِيرِ فِي تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَتَرَجَّحَتْ وَصَحَّحَتْ وَصَوَّبَتْ ، ثُمَّ أَضَافَتْ وَأَبَدَعَتْ ، كُلُّ ذَلِكَ بِدَقَّةٍ وَآمَانَةٍ ، وَلَوْ وَجَدَ الْأُورَبِيُّونَ اتِّحَادًا لِفَضْحِهِمْ وَهُوَلُوهُمْ ، وَعَابُوا وَنَاحُوا ، مُسْتَرْخِينَ الْآمَانَةِ الْعُلَيَّةِ ، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا أَمْنَاءَ عَلَى تَرَاثِنَا عِنْدَمَا تَرَجَّوُهُ وَاقْتَبَسُوهُ ، لَتَبْدَأُ هُنْضُمَتِهِمُ الْعُلَمَيَّةُ بَعْدَهَا مِبَاشَرَةً ، فَسَبَّوْهَا قَسِيمًا مَا نَقْلُوهُ إِلَى أَنفُسِهِمْ »^(١١٢) .

وَلَنْ نَعُودُ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَى تَقْنِيدِ مَا يُسَمِّي : (الْمَعْجِزَةِ الْيُونَانِيَّةِ) ، فَلَقَدْ فَصَّلُنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِنَا : (فِيلِيبْ حَتَّى) الَّذِي جَعَلَنَا سَعَةً بَرِيدَ ، تَرَجَّنَا وَتَقَلَّنَا (الْمَعْجِزَةِ الْيُونَانِيَّةِ) إِلَى أُورَبَةٍ ، مَعَ أَنَّ مَا يَدْعُى (الْمَعْجِزَةِ الْيُونَانِيَّةِ) - كَمَا يَقُولُ جُورِجُ سَارْتُنُ فِي كِتَابِهِ : (تَارِيخُ الْعِلْمِ) - هُنَّ أَبَّ وَأَمَّ شَرِيعَيَّانِ ، أَمَّا أَبُوهَا فَهُوَ تَرَاثُ مَصْرُ الْقَدِيَّةِ ، وَأَمَّا أَمْهَا فَهُوَ ذِخِيرَةُ بَلَادِ مَا بَيْنِ النَّهْرَيْنِ .

(١١٢) حَضَارَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا إِسْلَامِيَّةً ، فَصَلْ : هَلْ هُنَاكَ حَضَارَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَإِسْلَامِيَّةٌ ؟ ص ١١١

تقول المستشرقة الألمانية زيفريد هونكه : « إن الحضارة الإسلامية المبتكرة ، لم تأخذ عن الحضارة الإغريقية ، أو الحضارة الهندية ، إلاّ بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغورس^(١١٣) من الحضارتين البابلية والمصرية .

لقد طور المسلمون بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق . وشكّلواه تشكيلاً جديداً ، فالمسلمون - في الواقع - هم الذين ابتدعوا طريق البحث العلمي الحق القائم على التجربة .

إن المسلمين لم ينقدوا الحضارة الإغريقية من الزوال وحسب ، ونظموها ثم أهدوها إلى الغرب . إنّهم مؤسّساً الطُّرُق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع ، وبإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم ، والتي سرق أغلبها ونسب لآخرين ، لقد قدم المسلمون أمن هدية ، وهي طريق البحث العلمي الصحيح التي مهدّت أمام الغرب طريقة لعرفة أسرار الطبيعة وتسلّطيه عليها اليوم »^(١١٤) .

فأين رياضيات العرب من رياضيات اليونان ؟

وأين فيزياء العرب وعلم الضوء عندهم ، من فيزياء وعلم الضوء عند اليونان ؟

(١١٣) نظرية فيثاغورس : مساحة المربع المنشأ علىوتر مثلث قائم الزاوية ، تساوي مساحة المربعين المنشائين على الضلعين القائين . هي من أصل عربي بابلي ، فلوحة (تل حرمل) الحجرية ، والتي عثر عليها في ضواحي بغداد ، تدلّ على أنّ البابليين سبقوا اليونان في حسابات المثلثات القائمة والتشابهة بثلاث مئات السنين ، وصورة اللوحة موجودة في : [أطلس التاريخ العربي] ص ١٨

(١١٤) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٤٠١/٤٠٠ ، ولوبيون يعترف في كتابه (روح الشّورات) صفحة ٢٧٧ : « إنّ عظمة الحاضر هي نتيجة لمجهودات عصور الماضي ، وإنّ حضارة الحاضر هي نتيجة لمجهودات الأمم كلّها في عصر الماضي » .

وأين طب العرب وصيانتهم ، من طب اليونان وصيانتهم ؟

وأين علم الفلك عند العرب ، من علم الفلك عند اليونان ؟ ... لا نقول ذلك لنقيل من شأن اليونان وعلومهم وحضارتهم ، بل لننصل على أنه من الطبيعي أن تقدم هذه العلوم على أيدي علماء العرب المسلمين بعد أن أخذوها ، وما وقفوا عند حدودها ، بل تجاوزوها إلى حدود أوسع وأعمق وأوثق دراسةً ونقداً وبحثاً ورقياً ، فإذا بها وكأنها علوم جديدة كل الجدة ، متقدمة كل التقدم ، تخضع لطرق البحث العلمي ملاحظة وتجربة ، حتى وصلت إلى مرتبة الحقائق العلمية .

وكان لوبون لم يطلع على ما كان عند علماء العرب المسلمين في جوانب العلوم المختلفة ، مما لا يحصره كتاب ، ولا يأتي على ذكر علمائه عد ولا حصر .

أنسي لوبون سبق الغزالي لكنْت وهيوم ؟

أم نسي أثر ابن رشد في أوربة ، حيث قيل عنه : إن طريقته في البحث ، دليل قاطع على جبله واستقامته أخلاقه واستواء ذهنه ، وأن فرنسيس باكون انتحل آراء وفلسفة ابن رشد ؟

أم نسي أثر ابن خلدون الذي سبق ميكافيلي ، وجون لوك ، جان باتيستافيكو ، وفولتير ، وهدرر ، وغرييل تارد ، ودوركمایم ، وجان جاك روسو ، ونيتشه ، وكارل ماركس ؟ ...

أم نسي الإدريسي ، والفارابي ، وابن سينا ، والمعري ، وابن حزم ، وابن طفيف ؟ ...

أنسي الرّازى ، وابن النّفيس ، وعبد اللّطيف البغدادي الذي يكتفي قوله عن جالينوس : « الجِسُّ أَصْدَقُ مِنْهُ » ، فجعل العلم موقفاً على التجربة ؟

أنسي جابر بن حيان الكوفي ، وأبا الرّيحان البيروني ، وابن البيطار ،

وابن يونس ، وابن الهيثم الذي قال عنه وُل ديورانت : « لامبالغة منها قلنا في أثر ابن الهيثم في العلم في أوربة »^(١١٥) ..

أنسي الحوارزمي « والبَّاتِنِي ، والرَّاقِلِي ، وابن الشَّاطِر .. الَّذِينْ عاشوا قبل كوبيرنيكس فاقتبس منهم ، وتقل عنهم ؟ ..

أنسي لوبيون أم تناسى ليقول : « ولكنني لا أظُنَّ أنَّهُمْ أخرجوا رجالاً عظاماء كأولئك العباقة الَّذِينْ ذَكَرْتُهُمْ .. » !؟!

ومن الغريب أن لوبيون نفسه يقول في أماكن أخرى ما ينافق قوله هنا ، ويقُنَى لوأنَّ العرب المسلمين انتصروا في بوآتِيه ، ليصيِّبُ أوربة النَّصَارَانِيَّة المتبَرِّبة مثل مَا صَابَ إِسْبَانِيَّة من التَّقْدُمِ والارتقاء ، والحضارة الزَّاهِرَة الرَّفِيقَة تحت راية النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ ، [صفحة ٣٩١] ، ويقول : « وإِلَّا إِنَّهُ يَقْضِي الْعَجْبَ مِنَ الْهِمَّةِ الَّتِي أَقْدَمَ بِهَا الْعَرَبُ عَلَى الْبَحْثِ ، فَإِذَا كَانَ هَنَالِكَ أُمُّمٌ قَدْ تَساَوَتْ هِيَ وَالْعَرَبُ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ أُمَّةً فَاقَتِ الْعَرَبَ عَلَى مَا يَحْتَلُ .. » ، [صفحة ٥٢٦] ، وقال : « إِذْنَ ، اخْتَبِرْ الْعَرَبَ الْأَمْمَرَ وَجَرِبُوهَا ، فَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ أَدْرَكَ أَهْمَيَّةَ هَذَا الْمَهْجُونُ فِي الْعَالَمِ » . فَظَلُّوا عَامِلِينَ بِهِ وَحْدَهُمْ زَمِنًا طَوِيلًا ، قال (دولانبر) في كتاب : (تاريخ علم الفلك) : إذا استطعت أن تعدد بين الإغريق راصِدِيَّن أو ثلاثة ، رأيتَ بين العرب عدداً كبيراً من الرُّصَادِ ، وأمّا في الكيمياء ، فلا تجد مجرّباً يونانيًّا ، مع أنَّ المجرّبين من العرب فيها يُعدُّون بالمائتين » ، [صفحة ٥٢٩] ، وقال : « لم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد نشروها « كذلك ، بما أقاموه من الجامعات ، وما أُفْتوه من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ في أوربة من هذه النَّاحِيَةِ .. » ، [صفحة ٥٢٩] ، وقال : « قال بعض

(١١٥) قصة الحضارة ٢٧٥/١٢ ، وقال ديورانت في الصفحة ذاتها : « لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قط بروجر بيكون » ، ولو أردنا الإطالة ، لأوردنا فصولاً كاملة من كتاب : « حضارتنا العربية الإسلامية » ..

المؤلفين : إن لاقوازيه هو واضح علم الكيمياء ، فنسوا أننا لاعهد لنا بعلم من العلوم » ومنها علم الكيمياء » صار ابتداعه دفعه واحدة ، وأنه كان عند العرب من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافاتٍ لولاهما ما استطاع لاقوازيه أن ينتهي إلى اكتشافاته » . [صفحة ٥٧٢] ، وقال : « وما عجز الإغريق والفرس والرومانيون عنه في الشرق ، قدر عليه العرب بسرعة .. » ، [صفحة ٦٧٢] . وقال : « إن أوربة مدينة للعرب بحضارتها » ، [صفحة ٦٧٥] [٤١٩]

أنسي لوبيون هذا كله ليقول : « والعرب كانوا دون الإغريق في كثير من المسائل » ؟

أيُّ فرع أو جانب من العلوم « زحف إلى أوربة فردهه ؟

إنها حضارة عربية إسلامية بهرت أبصارهم عندما كانوا يتسلّكون في ظلمات الجهلة والتّعصب ، وعندما حرّمت الكنيسة تعلم نظام الجموعة الشّمسيّة إلى ما بعد منتصف القرن الثّامن عشر ، وعندما أصدر البابا الكسندر سنة ١٥٤٠ م أمراً يقضي برقابة كلّ المطبوعات . كيلا تنتشر الأفكار الحرة ، ولو كانت حقائق علمية ثابتة .

- ٤٤ -

• ولم يكن للقرآن تأثير في جميع مذاهب العرب العلميّة والفلسفية التي نشروها في العالم في خمسة قرون ..

غير أن العلماء كانوا لا يبالون - أبداً - بما بين نتائج اكتشافاتهم ونظريات الكتاب المقدس (القرآن) من الاختلاف ، فإذا ما بلغت أفكارهم الحُرّة عامة الناس اضطرب حاليهم من الخلفاء « عادة » إلى نفيهم لأجل محدود احتراماً للشعور العام ، وإذا ما هدّأت الزّوجية بسرعة استدعاه الخلفاء .. » ، [صفحة ٦٨٠] .

- ١٥٤ -

« لم يكن للإسلام ، ديانة ، تأثير في آثار العرب العلمية والفلسفية » ،

[صفحة ٦٨٢] .

نستغرب أن يقول عالم مثل غوستاف لوبيون : إنه لم يكن للقرآن تأثير في جميع مذاهب العرب العلمية والفلسفية ، ونريد أن نسأل السؤال التالي : هل كان عند العرب قبل الإسلام ، وكتابه المقدس (القرآن الكريم) ، أيًّا منذهب علمي أو فلوفي ؟ أليست جميع مذاهب العرب المسلمين هي نتيجة أفكار الإسلام بينهم ، ونتيجة مناقشاتهم التي دارت حول آيات القرآن الكريم وتعاليمه ، واختلاف اجتهداتهم وآرائهم حولها ، أليس علم الكلام أو الفلسفة الإسلامية نتيجة لكل ذلك ؟

أليست جميع المذاهب الفلسفية نتيجة مناقشات العلماء وأصحاب الفكر حول معتقدات إسلامية ، وآيات قرآنية ، مع اختلافهم في ذلك ؟

أليس تقدُّم الحركة الفكرية عامة ، والعلمية خاصة ، نتيجة من نتائج الإسلام ؟

أليس القرآن الكريم بآياتِ كثيرة جدًا هو الذي دعا الناس إلى التفكير وإعمال العقل في آيات الله في الكون « وكشف مكنوناته ونوميسه ؟

هل خاطب القرآن الكريم في الإنسان شيئاً ، كما خاطب عقله وفكره ؟

إنَّ ما اعتبره (لوبيون) عدم مبالاة من العلماء بما بين نتائج اكتشافاتهم ، ونظريات الكتاب المقدس (القرآن الكريم) من اختلاف هو نفسه معجزة هذا الكتاب الكريم . ذلك لأنَّ هؤلاء العلماء كانوا كلُّا وصلوا إلى نتيجةٍ علميةٍ ازداد إعانهم بقراءتهم ، حيث لم يجدوا أيَّ كشفٍ علميٍّ يخالف ما ورد في القرآن الكريم . وحتى اليوم ، تتكتشفُ أمورٌ تعتبر في باب الإعجاز للقرآن الكريم في هذا المجال .

وعودة منا إلى كثير من أقوال العلماء ، وحتى غير المسلمين منهم ، تزييناً
إعجاباً وإيماناً بصدق نبوة محمد ﷺ ، وأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون
إلاً وحيًّا من الله خالق كل شيء ، ومنظم نواميس الكون ، وعودة منا إلى بعض
أقوالهم في مجال علم الأجنحة والتشريح وعلم الفلك والفضاء وعلم البحار » وغير ذلك
من العلوم ، تزييناً إيماناً بمعجزة محمد ﷺ الخالدة ، ألا وهي القرآن الكريم ،
وإنما جاء في كتاب الدكتور موريس بوكي في دراساته العلمية حول الكتب
المقدسة : التوراة والإنجيل والقرآن ، يعتبر غيضاً من فيض في هذا المجال .

والبروفسور كيث مور Keith L. Moore رئيس قسم الأجنحة في جامعة
تورonto بكندا ، أعلن إسلامه عندما درس علم الأجنحة كا ورد في القرآن الكريم
والسنّة الشريفة ، لتطابقه كا ورد بهما مع العلم الحديث وحقائقه في هذا المجال .

والبروفسور تاجاناتا جوسون ، رئيس كلية الطب في تايلاند ، بودي أسلم
بعد دراسة المضفة المُخلقة وغير المُخلقة .

والباباني البروفسور يوشيكى قال بعد أن درس الآيات التي تتحدث عن
خلق الكون : القرآن لا يمكن أن يكون من مصدر بشري ، لقد عرفت منهجاً
جديداً في دراسة الكون ، النظرة الشمولية ، لا النظرة الضيقية ، القرآن حجة محمد
الباقي ، التي تقنع المسلمين ، وغير المسلمين ، وكل الأجيال إلى يوم الدين .

والبروفسور جولي سعن من جامعة نورث وسترن (شيكاغو) تأكّد بنفسه
إلى نصوص القرآن والسنة ، فيما يتعلق بالإنسان وخلقه ، فقال : بإمكان الإسلام
اليوم أن يقود العلم قيادة ناجحة .

والبروفسور هبيه ، مختص بعلم البحار ، درس ما جاء في القرآن الكريم بهذا
الشأن . فقال : شيءٌ مثير جداً ، إنها آياتٌ ليست من مصدر بشري ، إنها من
الله ، إنه من العلم الإلهي .

والدكتور بالمار ، مختص بالجيولوجيا ، قال : القرآن كتاب عجيب ، وأنا لا أعلم المستوى الثقافي الذي كان عليه الناس أيام محمد ، ولكنه كان متواضعاً ، فعلوم القرآن نورٌ من العلم الإلهي ، أوحى الله به إلى محمد ^(١١٦) ..

أما من اعتبرهم لوبون مخالفين بأفكارهم الحرة للمجتمع الإسلامي ، ويعتبرهم الخلفاء ، ونبي أن يقول ويصطدمهم أحياناً الخلفاء ، فهم بين أحد رجلين ، فإما عالم رفض أن يقول بما يقول به الخليفة من آراء واجتهادات ، رأى فيها مخالفة لما توصل إليه من اعتقاد ، مخالفة الإمام أحمد بن حنبل للمؤمنون ، ورفضه آراء العزلة في أمور فلسفية ، فنانه الاضطهاد والسجن أيام المعتصم .

أو رجل خرج بأعماله وأفكاره عن معتقدات قومه زندقة وإلحاداً ، والزنديق أو الملحد على أغلب الأحيان ، لا يحمل نظرية ، إنه يحمل تحلاًّ وإنفلاتاً ، وفي كل مجتمع نفرٌ من هذا القبيل ، تلاحقهم عادة نسمة المجتمع وغضبه .

فأين (لوبون) من الحقيقة في مجال تأثير القرآن الكريم في المجتمع العربي خاصة ، والإسلامي عامّة ؟ بل نستطيع القول غير مبالغين بأنَّ الإنسانية عبر تاريخها الطويل لم تعرف كتاباً أثراً في الناس ، في حياتهم وأفكارهم وعلومهم وفلسفاتهم كأثر القرآن الكريم .

ونردُ على عبارة (لوبون) الأخيرة بقولنا : ربما لا يجد لدى علماء المسلمين كتاباً علياً أو فلسفياً إلاً وأثر الإسلام واضح فيه إلى درجة كبيرة ، حتى كان العلماء في جميع مجالات العلم هم أولاً علماء في الدين والفقه والحديث ، ثم علماء في الطب والفلك والرياضيات وغيرها .

(١١٦) أقوال كيث مور ، وتاجانا جوسون ، ويوشيكى ، وجولي سمن ، وهيه ، وبالمار .. وغيرهم كثير مسجلة من فهم (صوتاً وصورة) خلال محاضرات دعا إليها الشيخ عبد الحميد الزنداني ، رئيس جمعية : (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) ، واقتبست هنا عن شريط مرئي وهم يتحدثون شخصياً بأصواتهم الإنكليزية ، التي رافقها الترجمة إلى العربية مباشرة .

- ٤٥ -

وتحت عنوان : ورثة العرب في الهند » يقول (لوبون) : « والإإنكليز هم ورثة المغول في الهند ، والإإنكليز قد مَدُّنوها ، أي أنشأوا فيها الطرق والخطوط الحديدية ، التي يسهل عليهم أن يستغلواها بها ، ولكنَّه نَجَّمَ عن هذه الحضارة الجديدة أن غَرِّقت بلاد الهند في بحر من البُؤس ، لم تَرْ بقعة من بقاع الدنيا مثله » ، [صفحة ٧٠٥] .

و قبل أن نفند ما جاء به (لوبون) في العبارات السابقة ، نورد بعض ماقاله عن نتائج احتلال الإنكليز للهند : « ودرس حديثاً أحد كتاب الإنكليز مستر هندمان حالة الهند في العهد الإنكليزي فأثبت أن إنكلترة تُغَرِّقَ الهنود بالضرائب ، فلا يبقى لهم غير الموت جوعاً ، وأنها تُخَرِّب جميع مصانعهم لكي تتمكن السُّلْطَان الإنكليزية من إيجاد أسواق لها عندم ، ثم قال : إننا نسير إلى مصيبة لا مثيل لها في تاريخ العالم » ، [صفحة ٧٠٦] .

ليت (لوبون) أجرى مقابلة بين دخول المسلمين إلى الهند وما خلفوه في هذه القارة وشعورها من آثار ، وبين دخول الإنكليز حين قال : « وغرقت بلاد الهند في بحر من البُؤس لم تَرْ بقعة من بقاع الدنيا مثله » ، في عهد الإنكليز انتشرت العبودية ، حيث أصبح الإنكليز سادة ، وأصبح الهنود عبيداً ، وانتشر الجهل والفقر والمرض ، وما تزال شعوب الهند تعاني حتى اليوم من آثار ذلك العهد البغيض البعيد كلَّ بعد عن معاني الحضارة الإنسانية .

« مَدُّنوها » ، كيف ؟ « أنشأوا فيها الطرق والخطوط الحديدية » ، لماذا ؟ لكي « يسهل عليهم أن يستغلواها بها » .

بينما كان يرافق دخول الإسلام إلى الهند ، وغيرها ، تحرير الإنسان من

العبودية لغير الله ، وتحرير الفكر ، ولهذا سرعان ما نجد تقدماً في مجالات الحياة العلمية والفلسفية في مناخيها المختلفة ، وأثار الإسلام في شعوب الهند ومدنها باقية أكبر شاهد ودليل على ذلك .

لقد فتح المسلمون السند ، وجانبأ من الهند في صدر الإسلام ، ثم أكمل الفتح محمود بن سبيكترين الغزني ، ورسخت قدم الإسلام في الهند من بعده ، ولم يبق خارجاً عن طاعة الإسلام في الهند سوى مملكة يقال لها (أودبور) ، لها ملك يقال له (مهرانا) ، وهو لقب أكبر من (مهراجا) ، وبدأ الاحتلال البريطاني للهند سنة ١٨٠٥ م بشركة الهند الشرقية ، التي كان هدفها الظاهري التجارة وجنى الأرباح ، واكتساب الأموال ، إلا أنها وطّدت قدمها ، وأحكت سيطرتها بتؤدة ، وتحولت إلى حكومة تامة ذات سياسة طموحة ، ترمي إلى الاستعمار والاحتلال ، وفي سنة ١٨٥٧ م أخذت بريطانية ثورة ، وألغت شركة الهند الشرقية ، وجعلت الهند تابعة مباشرة للنّاج البريطاني ، ونودي بعد ذلك بالملكة فكتوريا إمبراطورة الهند .

قال غاندي : « اعلموا أنَّ الإنكليز يتغدون نيل القنطر المقنطرة من مال بلادنا والتلذذ بثاراتنا ، والانتفاع بقوَّة رجالنا وأولادنا ، كلُّ ذلك في سبيل جشعهم الإمبراطوري وفهمهم الاستعماري »^(١١٧) .

وقال الكاتب الهندي (براماثانات بوز) : « إنَّ الاستنزاف يسوق الهند إلى درك الخراب سُوقاً »^(١١٨) .

ونتيجة لهذه السياسة البريطانية الاستعمارية ، اجتاحت الجماعات المتعددة الهند ، وهي فوق كلِّ تصوُّر بشري من حيث الحسائر ، لقد استأثر المستعمرون

(١١٧) حاضر العالم الإسلامي ٢٠١٤/٤

(١١٨) المرجع السابق ٢٢٤/٤

بالأرباح والمكاسب . واستنزافهم منابع الثروة الوطنية ببعض اغاثهم وأدواتهم ، وتركهم السواد الأعظم من المندود عالة عليهم ، بحيث إذا احتبس المطر قليلاً ، أو هبّت على الزروع لافحة سوم ، فقلّ المحصول ، وارتفعت أسعار الغذاء ، لم يبق أمام هؤلاء الأهالي سوى الموت جياعاً ، أو بالأمراض التي سببها سوء الغذاء ، لأنَّ الذي يأخذونه بدل عملهم ، لا يعود كافياً لشراء قوتهم الضروري ، ولا نجد إنكليزياً واحداً مسه الجوع ، أو مات سفراً .

والشيء الذي يسترعى الانتباه في عبارة (لوبون) ، قوله : « ولكن نجم عن هذه الحضارة الجديدة - أي حضارة الإنكليز - أن غرقت المند في بحر من البؤس ، لم ترَ بقعة من بقاع الدنيا مثله » ، كُنّا نتنفس لواستعمل كلمة أخرى غير كلمة الحضارة ، فمتي كانت الحضارة مرادفة للبؤس والجوع والعبودية ؟ إنه الاستعمار الذي دخل البلاد لاستعباد الشعوب واستغلال خيراتها ومصّ دمائها ، أين هذا من ارتفاع المآذن مع المسلمين تعلن أنَّه لا عبدية لغير الله ، وتعلن المساواة بين البشر . ولا تفاضل في اللون أو العرق .. وارتفعت منارات العلم في كلّ مدينة وقرية وكثير عدد العلماء والمدارس والمكتبات .

لقد عم الرفاه البلاد التي فتحها المسلمون ، لاستباب الأمن فيها ، وأصبح الفاتح المسلم أحب إلى الشعوب من الحاكم السابق ، لأنَّهم رأوا عملياً خيراً الإسلام وفائدة . وقام الجميع خدمة العلم ، حتى إن أشهر العلماء في كلّ الميادين كانوا من سكان البلاد المفتوحة ، وكلُّهم علماء خلُّدهم التأريخ أرهاطاً في ميادين العلوم ، عاشوا وماتوا خدمة الحضارة العربية الإسلامية .

وصار ابن البلاد التي فتحت يحيى الله عزّ وجلّ ويشركه لكونه مسلماً ، ولأنَّه صار على دين الفاتحين وحضارتهم ، فهل حمد الله إنسانٌ في مستعمرة أوربية لأنَّه استعمِر ؟ لاقطعاً ، فلماذا ؟

فورثة العرب المسلمين في الهند لم يقيموا « حضارة جديدة » كما يقول (لوبون) ، بل أقاموا عبودية وبؤساً وشقاء وجهلاً وأمراضاً وتخلقاً ...

- ٤٦ -

« لو ظهر نابليون في زمن لويس الرابع عشر ما استطاع أن يصيّر سيد أوربة ، ولو ظهر محمد أيام سلطان الرومان ما قادرَ العرب على الخروج من جزيرتهم لارئب ، ولظلَّ التاريخ جاهلاً لهم » ، [صفحة ٧١٥].

لقد أخطأ (لوبون) في هذه المقارنة ، وشتان ما بين الصورتين ، ماعلاقة نابليون ، وما وجه الشبه بينه وبين محمد عليهما السلام في هذه المقارنة .

إنْ (لوبون) يعلم ، أو يجب أن يعلم أنَّ التأريخ لا يعرف حرف (لُو) ، فليس في التأريخ (لُو) ، والتاريخ حوادث حدثت وسط ظروف لا تعود ولا تتكرر ، لأنَّ العنصر الأساسي فيها هو الإنسان ، الذي لا تتكرر صوره النفسية والروحية والفكرية ، وإن تكررت صوره المادية أحياناً .

إنَّ الذي جعل نابليون سيد أوربة ، ليس لكونه نابليون ، بل لظروف معينة مررت بها فرنسة بعد ملوكها من آل بوربون . وفي مقدمة تلك الظروف الثورة الفرنسية (تموز ١٧٨٩ م) ، التي أطاحت بأولئك الملوك ، وأنظمة حكمهم المستبدة ، وجاءت ظروف معينة رفعت من سمعة وشعبية نابليون لدى الشعب الفرنسي . وفي مقدمة تلك الظروف ، تحقيقه للانتصار العظيم على إمبراطورية النمسة ، مما جعل الشعب الفرنسي يرى فيه رمزاً لعزته وانتصاراته ، فبني الآمال عليه ليتحقق له نصراً ماثلاً على بقية أعدائه ، وفي مقدمتهم الإنكليز .

أما محمد عليهما السلام فظروف انتصاراته تعود إلى تلك الرسالة الإلهية التي حملها ، وهي رسالة الإسلام التي وحدت أبناء جزيرة العرب ، وجعلت منهم أمّةً جهاد

تحرص على الشهادة أكثر من حرصها على الحياة . وجعلت من حكامها الأوائل وكبار رجال دولتها قدوة في العالم للعدل والحق . وتطبيق المساواة ، وما يسمى اليوم (بالديمقراطية) الحقيقة غير المزيفة ، حكام شعروا بمسؤوليتهم أمام الله ، وأمام شعوبهم ، وكانوا يسألون عن تصرفاتهم بوجب دستور هو القرآن الكريم ، وهذا نقول إن حكم غوستاف لوبيون خاطئ ، وإن أمّة آمنت برسالة الإسلام ومثله العليا ، كانت - وما تزال - تنتصر مما واجهتها من قوى ، ولو كانت تلك القوى الامبراطورية الرومانية في عنفوان مجدها : ﴿سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدَ لِسْتَةً اللَّهُ تَبَدِّلُ إِلَّا﴾ [الأحزاب ٦٢/٣٢] .

إن مقارنة (لوبيون) بين محمد عليه السلام وبين نابليون خطأ من بداياته ، فلا يقارننبي مرسلا ثابت المبدأ ، قال : « والله لو وضعوا الشمس في يبني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »^(١١٩) ، وبين نابليون الرجل المتقلب ، الذي قال في مجلس شورى حكومته : « إنني أقمت حرب الفنديين لما تكثلت ، واستوليت على مصر إذ أسلمت . وتوجه بالظفر في حرب إيطالية لأنني قلت بعضة البابا ، ولو كنت أحكم شعباً يهودياً لأعدت بناء هيكل سليمان »^(١٢٠) .

- ٤٧ -

« نير تلك الشّريعة الخازم ظل طيباً ما ظلت نظم النبي ملائمة لاحتياجات أمته ، فلما أصبح تعديل تلك النظم ضربة لازب بسبب مبتكرات حضارة العرب ، كان نير التقاليد من التّقليل بحيث لا يمكن زحزحته » ، [صفحة ٧٢٢] .

(١١٩) ابن هشام ١٧٠/١

(١٢٠) روح الاجتماع ، تأليف غوستاف لوبيون ، ترجمة أحمد فتحي زعلول باشا ، مطبعة الشعب ، القاهرة ١٩٠٩ م .

إن طبيعة الشريعة الإسلامية لا يجعل منها نيراً على معتقدها مما تطورت
الحضارة ، وكثُرت مبتكراتها واختراعاتها ، وذلك لأن شريعة الإسلام كا وردت في
مصدرُيها الأساسيَّين ، القرآن الكريم والسنَّة الشَّرِيفَة ، لم تعرَض إلَّا للأمور
العامَّة في حياة الجمَّع ، وإلَى الأمور الخالدة في حياة الأفراد ، فالقيود التي تفرض
العدل والحق والمساواة والصدق .. وتنبع الفش والضرر والجريمة .. إنَّا هي أمور
لاتعرف التبديل منها تطورُ الحضارات وتقديمت البشرية ، وكذلك حين
نفرض على الإنسان ما يحفظ عليه صحته وعقله ، ومنعه من تجاوز حقوقه
وحرَّياته ، فإنَّا نقرُّ أموراً خالدة خلود البشرية ، ترتفع وتترقى عبر تاريخها
ومسيرتها وتطورها ، وهذه هي الأمور التي وردت فيها التشريعات الإسلاميَّة ،
أمَّا الأمور التي تتقبَّل وتتطابق التقدُّم والتَّطُور والتَّبديل تبعاً لتطور الأمم ،
فقد تركها الإسلام دون قيود ملزمة ، ليجد لها الإنسان ما يناسبها من أحكام
وقوانين ، والأصل في الأشياء الإباحة^(١٢١) ، ومن هذه الزاوية يبقى الإسلام
تشريعاً صالحًا لكل زمان ولكل مكان ، وهذه حكمة الله في آخر رسالته إلى
البشرية ، فمن الطبيعي أن تتصف بصفة ديمومة صلاحها ، وخلود تشريعاتها ، لما
فيه صالح الإنسان ، أي إنسان ، فما سمعناه عن عدل عمر بن الخطاب رضي الله
عنه وورعه ، نتمنى مثيله في القرن العشرين ، وبعد مضي أربعة عشر قرناً على
ظهور الإسلام .

وهل أصدر (لوبون) رأيه في الفقرة السابقة ، بعد أن سأله عدداً من
المسلمين للتزمين ، فكان جوابهم : إن الشريعة نيرة في رقابنا ، أو عباء على
عاتقنا ؟

إنَّ دين الفطرة لا يشكُّل نيراً : ﴿فَإِنَّمَا وَجْهُكَ لِلَّذِينَ حَنِيفُوا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي
قَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

(١٢١) مع المصالح المرسلة ، وسلطان المُرْفَ ، ولكن ساحة الثواب مستقلة .

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ ، [الرّوم ٢٠/٢٠] ، لَا يُشَكِّلُ نِيَّارًا لَأَنَّهُ فَطْرَةُ اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِنَعْمَانِ خَلْقِهِ .

ودين نبذ العقل ، وآمن بالأسرار والخرافات ، هو النّير الثقيل الذي يجب زحزحته .

وليكتل الرّد ، نورد أهم المصادص التي تميّزت بها الشّريعة الإسلامية^(١٢٢) :

١- الشّمول والإحاطة : فما من قضية تتصل بنظام الاجتاع الإنساني من سياسة ، أو اقتصاد ، أو إدارة إلّا وبيّنت الشّريعة الإسلامية فيها الرّأي الصّائب ، والموقف السّديد .

٢- التّكامل والتّرابط : الشّريعة الإسلامية نظام متكامل لا ينقصه شيء ، لم يفتته شيء ، وهي نظام لا يمكن أن يؤخذ ببعضه ويترك بعضاً ، لأنَّه كُلٌّ متكامل لا يمكن الاستغناء عن شيء منه بحال .

٣- الواقعية وسهولة التطبيق : نظام لا يعيش في فراغ ، ملتصق بالحياة ، ولكلّ فرد في المجتمع والمسلم عمله ، وعليه واجباته .

٤- وضوح الغايات ، ونبيل الوسائل : الفكرة واضحة ، توحيد الله قيوم السّموات والأرض ، الذي أوحى إلى مُحَمَّد بن عبد الله عليهما السلام كتاباً هو : (هدى الناس) ، فيه سعادتهم . تحقّق مبادئه : (خير أمّة أخرجت للناس) .

والشّريعة الإسلامية قسمان :

١- قسم من مبادئها ثابت لا يتغيّر بتغيير الزّمان والمكان والنّاس ، أحکام قطعية كحرمة الزّنا والخمر والميسر والربا ، وકأنصبة الورثة من مورثهم ، وكالمحدود ، والضوابط العامة ، والقواعد العامة التي يُعرَفُ بها الحلال والحرام .

(١٢٢) الغزو الفكري ٦٦ - ٧٠

٢ - وقسم متغير للمطلبات الآتية في كل زمان ومكان ، وتفسير الأحكام أو تأويلها يكون من لدن رجال الفقه الإسلامي ، مادام التفسير مؤيداً بالقرائن والدلائل ، فالاجتهاد فهم قواعد الشرع وأصولها العامة فيها دقيقاً واعياً ، ثم تطبيق هذه القواعد والأصول على قضايا جديدة لم يكن لها نظائر في السابق .

وهذا القسم المتغير هو الذي يتيح لأهل الرأي وأصحاب الحال والعقد من المسلمين أن يضعوا من النظم والقوانين لكل عصر ما يناسبه ، ولكل زمان ما يليق به ، متباينين في ذلك مع مصالح المسلمين المتتجدة المتغيرة .

فكيف تتم هذه النظم بالقصور ، وعلى عدم القدرة على مواكبة ركب التحضر والتقدم ؟ !

- ٤٨ -

إنَّ العرب « أرقى من جميع أممِ الغرب التي عاشت قبل عصر النهضة أخلاقاً وثقافةً ، فلم تعرف جامعات القرون الوسطى في قرون كثيرة ، مصدراً غير مؤلفاتهم ومناهجهم ، وكانت أخلاقهم أفضل من أخلاق أجدادنا بمراحل » .
[صفحة ٧٣١] .

« إنَّ أكابر العرب السابقين دون أكابر الزَّمن الحاضر بما يستحقُ الذِّكر ، ولكنَّ عرب الطبقات الوسطى السابقة مساوية لأنباء طبقاتنا الوسطى المذكورة الحاضرة على الأقل ، وأرقى منها في الغالب » ، [صفحة ٧٣٢] .

مثل هذه الأقوال من غوستاف لوبيون شهادات حقٌّ يعتزُّ بها العرب ، بل وهي ردٌ واضح وصريح على بعض ما ورد بحقِّ العرب من أقوال غوستاف لوبيون وغيره . فقد تأكَّد للجميع أن علماء العرب المسلمين كانوا أستاذة العالم خلال فترة العصور الوسطى ، حين كانت أوروبا غارقة في بحار ظلام المجهل والجمود الفكري ، والتعصب الأعمى ، والتأخُّل في ميادين الحياة المختلفة ، بينما كان العرب المسلمون

- ١٦٥ -

ينعمون وتنعم بلادهم المتعدة من حدود الصين شرقاً إلى مياه الأطلسي غرباً .
بحضارة تتميز بتقدم كبير في العلوم المختلفة وكشوفها ومخترعاتها الكثيرة ،
وبحبرها الفكري ومدارسها الفلسفية والفنية .

ولا ندري لماذا عاد (لوبون) بعد أقواله هذه عن رفعة العرب أخلاقاً
وثقافةً إلى القول بأنَّ أكبر العرب السابعين كانوا دون أكبر الزَّمن الحاضر ،
ولا ندري تماماً ، ماذا يقصد بكلامه هذا ؟ فهل كانوا دونهم علماء ؟ وهذا - إن
أراده لوبون - كان أمراً طبيعياً تبعاً لتقدير العلوم المستقر ، إلا أنَّهم في زمانهم ما كان
لهم ندٌ أو منافس في العالم قاطبة ، وهذا غدت مؤلفاتهم ومناهجهم العلمية المصدر
الأساسي لجامعات أوروبا لقرون عديدة ، كما يعترف ويقر لوبون نفسه .

- ٤٩ -

استخدم غوستاف لوبون - على الأغلب - كلمة (الاستيلاء) ، كلما تحدث
عن فتوحاتنا العربية الإسلامية ، ومثال ذلك :

« استولى عليه العرب » ، [صفحة ١٦٦] ، « استولت على بلاد مصر
والنوبة » ، [صفحة ١٧٦] ، « وجاب أسطول مؤلف من ألف ومائتي قطعة البحر
المتوسّط ، فاستولى على جزره وأغار على صقلية » ، [صفحة ١٧٦] ، « استولى
عليها العرب » ، [صفحة ١٨٦] ، « استيلاء العرب على سوريَّة » ،
[صفحة ١٨٧] ، « استيلاء العرب على مصر » ، [صفحة ٢٥٥] ، « واستولى
العرب .. » ، [صفحة ٣٨٤] ، « الاستيلاء عليها » ، [صفحة ٣٩٠] ، « واستولى
على مدينة .. » ، [صفحة ٥٢٧] ، « وكلُّ قُطْرٍ استولى عليه » ، [صفحة ٧٢٠] ..

بينما لم يستخدم لوبون لقومه إلاًّ كلمة الفتح :

« فتح النورمان لصقلية » ، [صفحة ٣٧٦] .

- ١٦٦ -

« بَعْدَ الفتح النَّصْرانيِّ » ، [صفحة ٢٨١] ..

لماذا يستعمل (لوبون) كلمة الاستياء ومشتقاتها ، عند دخول العرب لأي بلد من البلد ، حتى ولو كانت ذات أصول عربية ، وهذا ماضٍ عربي مثل بلاد مصر وسوريا ، بينما يستعمل كلمة الفتح عند كلامه عن غير العرب كقوله : ففتح التورمان لصيقليّة . وكقوله : الفتح النَّصْراني ؟

لماذا يعمد (لوبون) إلى هذا التمييز ؟ على أنه إن أراد الإنفاق الذي عرفناه عنده في بعض مواقفه الأخرى ، لوجب أن يقلب الآية ، لأنَّ العرب ما فتحوا البلد بهدف الاستياء عليها لاستغلال خيراتها وأهلها ، وإنما كانوا يحملون رسالةً اعتقادوا أنَّهم رسل تبليغها إلى أهل الأرض ، وهذا سرعان ما كانوا يتعايشون مع أبناء البلد المفتوحة ، وتتصبح المساواة بينهم الصفة الملزمة لحكمهم ، مادام الإسلام سائداً بينهم .

- ٥٠ -

واستخدم (لوبون) عبارات الشُّك في مصادرنا ، والرُّيبة في مؤرخينا :

« ويروي مؤرخو العرب » ، [صفحة ١١٩] ، « كما روى العرب » ، [صفحة ١٢٣] ، « ورأي العرب » ، [صفحة ١٢٩] ، « على زعم كتب السيرة » ، [صفحة ١٣٠] ، « كما روى مؤرخو العرب » ، [صفحة ١٣٢] ، « روى مؤرخو العرب » ، [صفحة ١٣٣] ، « مارواه مؤرخو العرب » ، [صفحة ١٤١] ، « روى مؤرخو العرب » ، [صفحة ١٧٥] ..

إنَّ كتب السيرة اعتمدت في كتابتها عن حياة الرسول ﷺ الطُّرق العلميَّة المتَّبعة حديثاً في توثيق أخبارها وروايتها ، فأخبارها تذكَّر مع مصادرها وأسماء رواثتها مع دراسة دقيقة لهؤلاء الرواة ، فهل من الإنفاق أن نقول « تزعم كتب السيرة » ؟

- ١٦٧ -

يقول اللورد هدلي : « ولكن الذين يرموتنا بسهام النقد ، قد غاب عنهم شيء واحد ، غاب عنهم أن الحقائق التاريخية الخاصة بالنبي ﷺ هي من الشهرة والثبوت بحيث لا يتسع لها اختلاف شيء جديد ، فإن لنا عشر المسلمين كتبًا ضخمة معترفاً بصحتها ، تحتوي على أحاديث الرسول ﷺ . التي مصتها الرواية تحيصاً دقيقاً ، ومن هذه الكتب نستد كل مان يريد أن نكتبه عن النبي ﷺ .. وقد بلغ من عناية المسلمين بهذا الأمر ، أنهم يضربون عرض الحائط بكل ما يقال عنه ﷺ ، مما لم يرد له ذكر في كتب السنة ، منها كان فيه تجيده والإشادة بذكره »^(١٢٣) .

« على زعم كتب السيرة ، عبارة بعيدة كل البعد عن صفة العالم المنصف المتجدد عن الهوى ، والتغيير والتّعصب ، وكان الأولى به والأجدر ، أن يقول : وجاء في كتب السيرة ، أو ذكرت كتب السيرة ، ثم لينقد ماجاء إن كان يريد نقداً أو تحيصاً لما ورد في تلك الكتب .

أما أراد دافيد صوميل جليوث - معاصر لوبيون - أن غرق كل مصادرنا الأدبية والتاريخية ، بل ربما كان علينا أن نلقي عقولنا أيضاً ، استجابةً لشكوكه التي نسجها حول مصادرنا^(١٢٤) .

ويعترف إميل درمنغهم في كتابه (حياة محمد) : « أنه لا يوجد واحد في الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ، ولكن وجد من ينكرون بعض ماجاء في ترجمة محمد في الكتب العربية ، ومن الناس من يتجاوز الحد في النقد والاعتراض حتى يقع في الظلم ، أما أنا فقد جعلت كتابي سيرة حقيقة مبنية على النابع

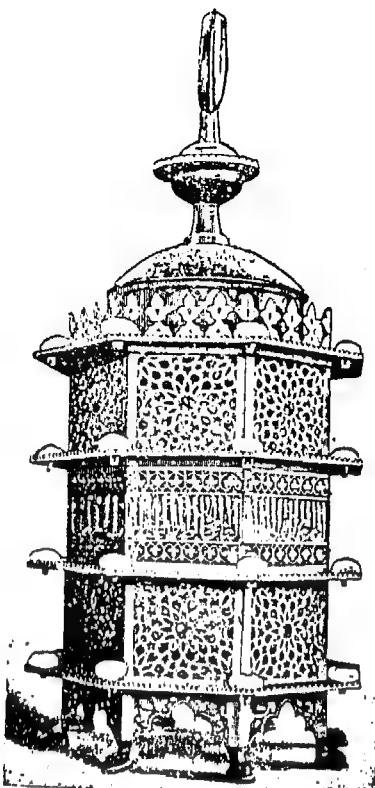
(١٢٣) من مقدمة اللورد البريطاني المسلم هدلي ، لكتاب المثل الأعلى في الأنبياء ، خوجة كمال الدين ، ص ١٧ ، طبعة دار الفكر المعاصر ، بيروت ، سنة ١٩٨٩ م .

(١٢٤) مناجح المستشرقين ٤٣١/١ ، وهذا ما تحلله طه حسين ، ورُوِج له في كتابه : (في الشعر الجاهلي) .

العربيّة الأصيلة بدون إهمال جميع ما وصلت إليه تدقيقات المتخصصين في هذا الموضوع في الأزمنة الأخيرة .. إن من المناسب الأولى لسيرة محمد القرآن والسنّة »^(١٢٥) .

إنّهم يقفون موقف المطمئن الواثق من أيّ خبر أو قول أو شعر يطعن أو يمسُّ بالإسلام ونبيّه ، أمّا سيرة محمد ﷺ فلا يروها مصدراً تاريخياً صحيحاً ، إنّها تحتاج - حسب زعمهم - إلى التّحقيق ، والبحث العلمي الدّقيق !؟!





مساجد معدنية مصنوعة من البرونز
(من صور فوتوغرافية التقطها المؤلف في القاهرة)



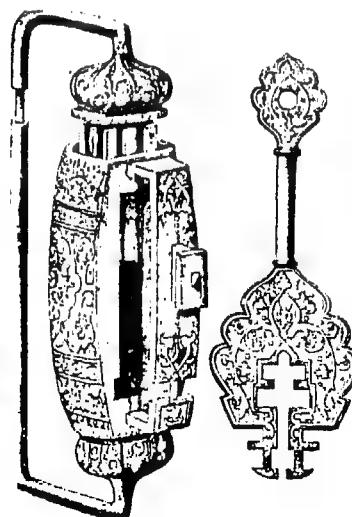
قدح عربي يعرف بقدح شارلمان ويرجح أنه
جيء به من الشرق أيام الحروب الصليبية
(متحف شارتر)



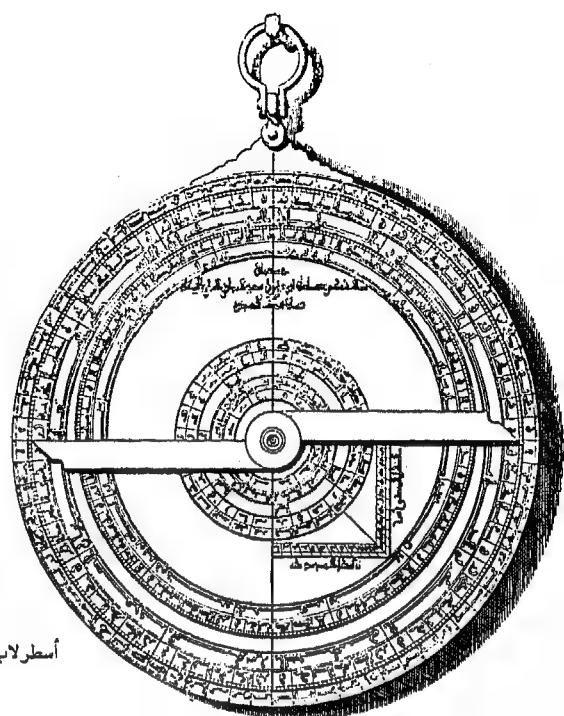
ابريق عربي مصنوع من البلور في القرن
العاشر من الميلاد (متحف اللوفر)
(صورة أخذت من جريدة الفنون الجميلة)



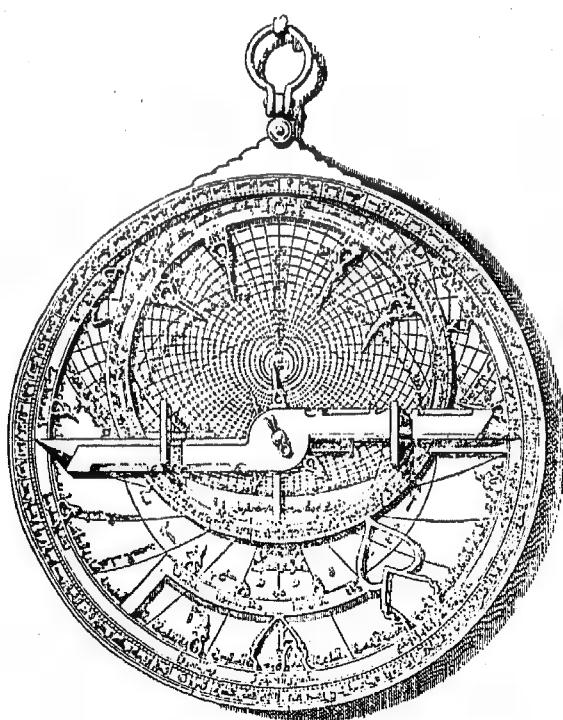
إناء من البرونز مصنوع على الطراز
الصيني العربي (من مجموعة شيفر)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)



قفل عربي



أسطرلاب عربي قديم (متحف الآثار القديمة الإسباني)



الوجه الثاني للأسطرلاب



نارجيلة عربية مصنوعة من النحاس
المكفت بالفضة
(من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف)



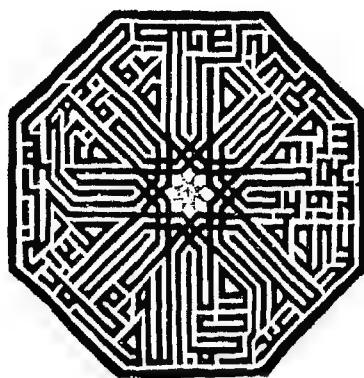
كوب عربي قديم من البلور
(من تصوير إير)



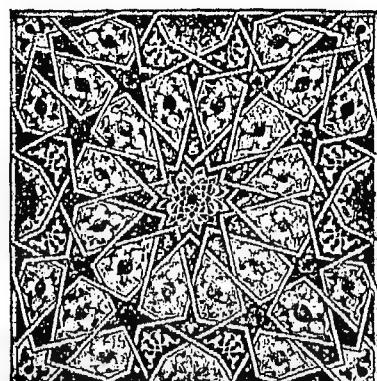
عربي حضري سوري
(من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف في دمشق)



مصباح عربي قديم كان في مسجد الحراء
(يبلغ ارتفاعه مترين و ١٥ سنتيمتر)
(متحف الآثار القديمة الإسباني)



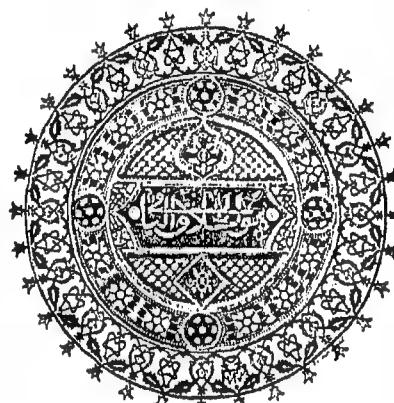
كتابه مزخرفة مؤلفة من تشابك حروف كولية



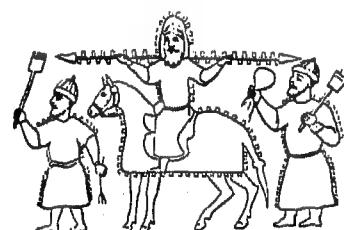
من زخارف مصحف قديم في القاهرة
(من إبر)



قطعة حل فضية عربية (سورية)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)



سقاء مراكشي في طنجة
(من صورة فوتوغرافية)



قد اتى عرقه استعملها العرب في القرن الثالث عشر من الميلاد (نرى في هذه الصورة فارساً حاملاً رحماً نارياً ولا يأساً كخدميه قيساً صفيقاً من صوف ذي دسر معداً ليبيل بنطف يشغل فيها بعد ، وذلك لإلقاء الرعب في الأعداء)
(من مخطوط عربي قديم محفوظ في بطرسبرغ)

خاتمة

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْتَّيِّبِ هِيَ
أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا
بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ
وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝ .

[المنكوبات ٤٧٢٩]

وهكذا رأينا إيجابيات الرجل وسلبياته ، وقبل أن نطوي آخر صفحات هذا الكتاب ، نؤكد أن الرجل كان بعيداً عن التّعصب والتّشنّج إلى حدّ بعيد ، لا حقد ، ولا كراهيّة ، لا شتائم ، ولا سباب ، لقد جاء إلى البلاد العربيّة زائراً باحثاً ، فأعجب بآثار حضارة رفيعة المستوى ، خالدة الذّكر ، لها أثرها البالغ في بناء الحضارة الإنسانية ، وختّم كتابه بفقرات هامة عن أسباب عظمة العرب ، وأسباب انحطاطهم . وحال الإسلام الحاضرة .

أسباب عظمة العرب :

جعل (لوبون) الزّمن الذي ظهر فيه العرب - القرن السّابع الميلادي - من العوامل التّمهيدية التي ساعدت على إظهار قوتهم : « ييد أنّ القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة »^(١) .

لقد جعل (لوبون) الزّمن عاملًا مساعدًا على إنشاء دولة جديدة . وحضارة جديدة ، ولكنه أضاف عوامل أساسية أخرى لإقامتها ، مثل :

(١) حضارة العرب ٧١٥

العُرْقُ • والعِرْقُ والنُّوْعُ - عند (لوبيون) - كلمتان متراوْفَتَان^(٢) ، صفات العُرْقِ الْخَلْقِيَّةِ والْعَقْلِيَّةِ ثابتة ، ثبات الصَّفَاتِ التَّشْرِيْحِيَّةِ ، ومن صفات أَمَّةِ العرب : الذَّكَاءُ ، وحِمَاسُهُمْ واسْتِعْدَادُهُمْ الفَنِيُّ والأَدَبِيُّ ، وما إِلَى ذَلِكَ مِن الصَّفَاتِ الَّتِي لَوْلَا وُجُودُهَا فِيهِمْ ، مَا سُتُّطِعُوا أَن يَصْلُوُا إِلَى درجةِ الْحُضَارَةِ .

ولما جاء الإسلام أَلْفَ بين قلوب العرب ، فوجّهوا جميع قواتهم إلى البلاد الأجنبية ، فكانت طبائعهم الحربية من أسباب انتصاراتهم ، كما منعهم الإسلام مثلاً أعلى ، اكتسبوا به من الهمية ، واستعدوا به للتضحيّة في سبيله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ أَشَرَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ أَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَإِلَيْهِ الْجِيلُ وَالْقُرْآنُ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَأَسْتَبِرُوا بِيَعْلَمُكُمُ الَّذِي بَاسْتَعْتَمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفُوزُ الْعَظِيمُ ﴾، [التوبه ١١٦] .

وَجَعَلَ (لوبون) تسامحَ الْعَرَبِ وَرَحْمَتِهِمْ فِي فَتوحِّهِمْ سبِيلًا لِانتشارِ دِينِهِمْ ،
مَعَ بساطةِ النُّظُمِ الَّتِي انبثقتَ عَنْ دِينِهِمْ .

كما وجعل من تأقلم العرب مع البيئة الجديدة بعد الفتوح ، وجدهم من فورهم لبناء حضارتهم ، سبباً آخر من أسباب عظمية العرب ، التي تحلى باستقلالهم الروحي والعلمي ، وبقوّة إبداعهم في مبتكراتهم الحديثة ، فلم يتمضِ سوى وقت قصير . حتى طبعوا على فن العماره وسائل الفنون ، ثم على مباحثهم العلمية طابعهم الخاص ^(٢) .

☆ ☆ ☆

(٢) حضارة العرب ٧٨ : « فيجب عدّ كلمة العرق بالنسبة إلى الإنسان مرادفة لكلمة النوع ». .

(٣) حضارة العرب - ٧١٤ - ٧٢٢

أسباب انحطاط العرب :

إنَّ غرائز العرب في الحرب والخصام ، الَّتِي كانت نافعة في دور فتوحهم ، لم تلبث أن أصبحت ضارة بعد انتصاراته وخلو الميدان من أعداء يحاربونهم ، فالعرب بعد أن تَمَّت فتوحهم أخذ ميلهم إلى الانقسام يبدو ، وصارت دولتهم تتجزأ حتى سقطت ، كما حدث لهم في بلاد إسبانية وصقلية اللَّتَيْنِ أضعواها بفعل انقساماتهم الدَّاخِلِيَّة على الخصوص .

ويقول (لوبون) : إن العرب لم يقدروا على فتح العالم إلا حينما خضعوا للشُّريعة الجديدة الَّتِي جاء بها محمد عليه السلام ، وجمعوا كلمتهم المتفرقة تحت لوائها ، وهي الَّتِي كان يمكنها وحدتها أن تجمع القُوَّى المبعثرة في بلاد العرب ، فنير تلك الشُّريعة الخازم ظلَّ طيئاً ما ظلت نُظم النَّبِي ملائمة لاحتياجات أمته ، فلما أصبح تعديل تلك النُّظم ضرورة لازبة بسبب مبتكرات حضارة العرب ، كان نير التقاليد من الثقل بحيث لا يكن زحزحة^(٤) .

وتقع الولاية في ولاياتهم بمثل ماتقتع به الخلفاء من السلطات العسكرية والدينية والمدنية^(٥) ، فلم تلبث أهم ولايات الدولة أن تحولت إلى دويلات مستقلة ، وهذا أضعف سلطان العرب السياسي ، وإن مهد السُّبيل لتقدُّم الحضارة في مصر والأندلس مثلًا^(٦) .

ثم إنَّ الحضارة تهذب الطبائع وتنقي الذهن ، لاتتني الصفات الحربية ، فتهيء بذلك سقوط الدول الكبرى .

(٤) حضارة العرب ٧٢٣ ، وردتنا بعض أفكاره في هذا المقطع في الفقرة ٤٨ ، فصل (الأخطاء والمفوات) .

(٥) خصوصاً ولاية التفويض ، يقول الماوردي [الأحكام السلطانية ١٨ - ٢١] : فهو ينظر في كل ما ينظر فيه الخليفة .

(٦) يعني مصر أيام الفاطميين والمالiks ، والأندلس أيام الأمويين في عهدي الإمارة ثم الخلافة .

ومن أسباب اخبطاط العرب ، اختلاف العروق التي خضعت لسلطانهم ،
ما أسف عن تنافس مختلف الأمم ، وتوالد الكثير من فساد دم الغالبين بسرعة .

كان اختلاف مختلف الأمم في دولة واحدة عامل اخلال قوي على الدّوام ،
وقد أثبتت التّاريخ أنه لا يمكن بقاء مختلف العروق تحت سلطان واحد ، إلا
برعاية الشرطين الآتيين ، وهما : أن يكون الفاتح من القوّة بحيث يعلم كلُّ واحد
أنَّ كُلَّ مقاومة له لا تجدي نفعاً ، وألاً يتواجد الغالب والمغلوب ، ومن ثمَّ ألاً يفني
الغالبُ فيه ، ولم يراع العرب الشرط الثاني قط^(٧) .

حال الإسلام العاضرة :

ولا يزال الإسلام جاداً في تقدمه ، والسهولة العجيبة التي ينتشر بها القرآن
في العالم شاملة للنظر تماماً ، فالمسلم أينما مرّ ترك خلفه دينه ، ويتسع نطاق
الإسلام في أي مكان في العالم^(٨) .



مفتاح شخصية لوبيون :

أعجب (لوبون) بتراثنا وأشارنا ، وأحبَّ العرب وساحتهم في فتوحهم ،
وليس إبداعهم في بناء حضارتهم ، التي كانت سبب صحوة أوربة الحديثة عندما
احتَكَتْ بها : « وقد يسأل القارئ : لماذا ينكر تأثير العرب علماءَ الوقت
الحاضر ، الذين يضعون مبدأ حرّية الفكر فوق كل اعتبار ديني كا يلوح ؟ لا أرى
غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأله نفسي أيضاً ، وهو : أنَّ استقلالنا

(٧) حضارة العرب ٧٢٢ - ٧٣٢

(٨) حضارة العرب ٧٣٤ - ٧٣٦

الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة ، وأنا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد »^(٩) .

ولسبب أو لآخر (استقلَّ لوبيون فكريًا) ، فتحرر من أثر النصوص التوراتية ، أو المؤثرات التوراتية ، أو التطوير التوراتي إلى حد بعيد .

إن مفتاح شخصية الرجل عدم أخذه بدراسات الاستشراق الظالمة ، مع كرهه لليهود ، فتحرر من تأثير دراساتهم وأحكامهم ووجهات نظرهم حول تاريخنا وحضارتنا ، فجاءت آراءه منصفة عادلة بشكل عام ، وعندما أخطأ أو كتب ، ما خطأ عن تعصب أو حقد ، وما كتب عن سوء قصد .

ويليس القارئ بغضّ (لوبيون) لليهود ، من خلال خمسة نصوص في (حضارة العرب) هي :

١ - « زالت تقريرًا القصور العجيبة التي كانت تشتمل كل مدينة عربية على عدد كبير منها ، أيام ازدهار حضارة العرب ، نعم ، يُقيم مُرأبُو اليهود بيوتاً من نوعها في دمشق ، ولكن ما فطر عليه الشعب اليهودي من الذوق الفاسد ، والتّرف المزيف ، يدفع المرء إلى الأسف على ما ينفقونه من المال في سبيل تقلييد تلك القصور العربية التي هي في طريق الأفول تقليداً سيئاً ، فالماء يرى في تلك البيوت اليهودية خلطًا كريهاً بين أحسن ما صنعه شرقى ، وأقبح ما أنتجه أوربي ، ويشاهد فيها نقوشاً من أحط ما صنعه الرسّامون ، وتلك البيوت اليهودية وحدها هي التي يستطيع الأجانب أن يدخلوها ، وهي التي لا يزورون غيرها ، فيخطئون في عددها من أمثلة فن العمارة العربي ، وقد انعمت في بيت يهودي ، الذي نشر رسمه المؤلفان الفاضلان مسيو لوته ، ومسيو غيران ، والذي هو أشهر تلك البيوت اليهودية ، فلم أجده فيه سوى فساد في ذوق صانعيه الذين حاولوا أن

يوفّقون في شيده بين مختلف فنون البناء فضلاً عما رأيت فيه من الأمة الأوروبية المبتذلة ، والشَّماعون التي لا يساوي بدل الواحد منها سوى بضعة دوانق ، والتماثيل الصغيرة لنباليون ، والرسوم التي تعد بجانبها أحط رسوم إپينال الملونة آية في الإبداع »^(١٠) .

٢ - « وينتظر التاجر أمام دكانه متزناً صابراً المشتري فلا يزعجه أحداً من المارين ، مالم يكن التاجر يهودياً ، فإذا كان التاجر يهودياً ألحف على المشتري بدناءة ، فلم يستطع أن يتخلص منه إلا بعد عناء كبير »^(١١) .

٣ - « وما علمناه من أشعار العرب قيل بعد المسيح ، وقبيل ظهور محمد ، ولم تكن هذه الأشعار في غير الغزل ومجيد الملام ، فالعرب كانوا ، كالأغربيق في عصر البطولة ، يحبون أن يسمعوا شعراءهم يُشيدون بعافرهم .

وتبدأ تلك الأشعار في الغالب ، بالتصوير والتّشبّه ، شأن شعر الأمم الفطرية التي تحسُّ كثيراً وتفكّر قليلاً ، وتحتفظ تلك الأشعار عن الشعر الإسرائيلي في خلوها من التكهن والتجون والتّغنى بسفك الدماء ، ولا تجدها ذكرًا مثل المجاز والوحشية والمذايحة والإيمادات ولعنة الرّب الدائمة التي ملئت بها التّوراة »^(١٢) .

٤ - « فالحق أنَّ أتباع محمد ظلُّوا أشدَّ من عرفته أوربة من الأعداء إرهاباً عدّة قرون ، فهم عندما كانوا لا يُؤْعِدُونا بأسلحتهم ، كما في زمن شارل مارتن والحرروب الصليبية ، أو يهدّدون أوربة بعد فتح القسطنطينية ، كانوا يُذلُّوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، فلم تتحرّر من نفوذهم إلا بالأمس .

لقد تراكت أوهامنا الموروثة ضدّ الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة ،

(١٠) حضارة العرب ٤٤٥

(١١) حضارة العرب ٤٤٩

(١٢) حضارة العرب ٥٣٩

فصارت جزءاً من مزاجنا ، فأضحت طبيعة متصلةً فيما تأصل حقد اليهود على النصارى الحقيقي أحياناً ، والعميق دوماً^(١٢) .

٥ - « يصعب بيان ما امتصته رجال المال الأوربيون ، ولا سيما اليهود ، من فلاحي مصر في بعض سنوات ، وإنما نعلم من الأرقام التي نشرها مسيو فاندنبرغ في سنة ١٨٧٨ م أن رجال المال أخذوا من مبلغ الـ ١٣٩٧١٧٥٠٠ فرنك ، الذي هو مجموع القروض الخمسة ٥٢٢ مليون فرنك إكرامية أو عالة إلخ ، فلم يكن نصيب الخزينة المصرية منه سوى ٨٧٥ مليون فرنك . فدفعت هذه الخزينة من الفوائد منذ زمن طويل ، ما يعدل رأس المال»^(١٤) .

لقد تحرر (لوبون) فكريّاً من مؤثرات الاستشراق الحاقدة الموجّهة ، والتي حرصت على إدانة الإسلام وأهله . ونبذ التفسيرات التوراتية . وكره حقد اليهود الخفي أحياناً ، والعميق دوماً ، فكتب ماكتب .

ورأى (لوبون) محمداً عليه رجلاً عظيماً ، وشخصية عالمية ، ولكن لم يَرْ فيه نبوةً ووحيًا :

« أمّا الفريق الثاني من القواد ، وهم ذوو الإرادة الثابتة ، فإنَّ تأثيرهم أعظم بكثير ، وإن كانوا أقل ظهوراً في الشكل ، وهم الذين نبغ من بينهم أصحاب الأعمال الكبيرة كالقديس بولص^(١٥) ، ومحمد - عليه - وكريستوف كولومبس^(١٦) ، ودولسيس^(١٧) .. » .

(١٢) حضارة العرب ٦٨٨

(١٤) حضارة العرب ٧٠٢

(١٥) شارل بولص : اضطهد المسيحيين بعنف ، واهتدى فجأة على طريق دمشق نحو سنة ٢٢ م ، أُعدم في روما سنة ٦٧ م .

(١٦) كولومبس [ت ١٥٠٦ م] بحار ولد في جنوى (إيطالية) ، وتوفي في إسبانية ، مكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ م .

(١٧) مهندس فرنسي ، صاحب مشروع السُّويس ، الذي بدأ حفره سنة ١٨٥٩ م ، وافتتحت سنة ١٨٦٩ م .

« إنَّ أَكْثَرَ مِنْ نَسْعَرْ بِنْفُوذِهِ فِينَا هُمْ مِنَ الَّذِينَ ارْتَحَلُوا عَنْ هَذِهِ الدَّارِ » . وَلَمْ
نَعْدْ خَافَ مِنْهُمْ مُشَلَّ الْاِسْكَنْدَرَ ^(١٨) ، وَقِيَصَرَ ^(١٩) ، وَمُحَمَّدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ،
وَبِوْذَا ^(٢٠) .. » .

« لَقَدْ كَانَ تِيبِير ^(٢١) وَجَنْكِيزْخَان ^(٢٢) وَنَابِلِيُون ^(٢٣) جَبَارِينَ مُسْتَبْدِينَ ،
وَلَكِنْ اسْتِشَارَ مُوسَى وَبِوْذَا وَعِيسَى وَمُحَمَّدَ وَلُوِثْر ^(٢٤) ، وَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ أَشَدُّ وَأَبْقَى ـ
إِنَّ مَكِيدَةً قَدْ تَبَيَّدَ سُطُوهُ الْجَبَارِ ، وَلَكِنْ مَاذَا يَنْفَعُ الْكِيدُ فِي عِقِيدَةِ اسْتَقْرَرَتْ فِي
النُّفُوسِ » ^(٢٥) .

« يَعْتَبِرُ الْمَرءُ التُّوْرَاتُ الدِّينِيَّةُ أَمْرًا سَيِّئًا إِذَا ظَنَّ أَنَّ تَارِيخَهَا يُشَبِّهُ تَارِيخَ
ثُورَةِ الإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ شَأْنَهَا كُلُّهَا لَيْسَ كَذَلِكَ ، فَقَدْ كَانَ تَأْثِيرُ الْكَثِيرِ
مِنْهَا فِي تَهْذِيبِ النَّاسِ وَتَقْوِيمِ نَفْسِهِمْ عَظِيْمًا جَدًّا ، إِذَا هِيَ بَعْنَاهَا الشَّعْبُ وَهَدْهُ
أُدُبِيَّةُ تَزِيدُ فِي قُوَّتِهِ الْمَادِيَّةِ كَثِيرًا ، وَقَدْ شَوَّهَ ذَلِكَ لِمَا حَوَّلَ مُحَمَّدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِهَا أَقْتَى
بِهِ مِنِ الْإِيَّانِ ، قَبَائِلُ الْعَرَبِ الْمُضِيَّفَةُ إِلَى أَمَّةٍ مُخِيفَةٍ » .

(١٨) الْاِسْكَنْدَرُ بْنُ فِيلِيُّوبِ المَكْدُونِيِّ .

(١٩) يُولِيُّوسُ قِيَصَرُ : [Cesār : ٤٤ - ١٠١ ق. م] ، امْبَاطُورُ رُومَة ، تَزَوَّجَ مُلْكَةً مَصْرَ كَلِيوبَاتَرَةَ .

(٢٠) بِوْذَا (بِدَهَا غُوتَا) : [Buddha Gautāma : ٤٨٦ - ٥٦٦ ق. م] ، مَؤَسِّسُ الْدِيَانَةِ الْبُودُوْهِيَّةِ . كَانَ
اسْمُهُ سَدَهَارَتَا ، وَاسْمُ عَائِلَتِهِ غُوتَا ، وَلُقْبَ بِوْذَا أَيُّ الْمُنْوَرِ .

(٢١) تِيبِير : Tiberius ، اسْمُ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَبْأَاطِرَةِ رُومَةِ وَبِيزِنْطِيَّةِ ، أَشْهَرُهُمْ تِيبِيرُوْيُوسُ الْأَوَّلُ :
[٤٢ ق. م - ٣٧ ق. م] .

(٢٢) جَنْكِيزْخَان (ابْنُ يَشْوِيْكِي) : [١١٦٧ - ١٢٢٧] مِنْشَيُ الْإِمْپَراَطُورِيَّةِ الْمُغُولِيَّةِ .

(٢٣) نَابِلِيُون : [Napolion : ١٧٦٩ - ١٨٢١ م] ، امْبَاطُورُ فَرَنْسَةِ : [١٨٠٤ - ١٨١٥ م] نَفَى إِلَى
جَزِيرَةِ الْقَدِيسَةِ هِيلَانَةَ - فِي الْخِيطِ الْأَطْلَسِيِّ ، بَعِيدًا عَنْ سَوَالِلِ إِفْرِيقِيَّةِ الْجَنُوُبِيَّةِ -
حِيثُ تَوَفَّ فِيهَا ، ثُمَّ نَقَلَ رَفَاتَهُ إِلَى بَارِيِّسَ .

(٢٤) مَارْتِنُ لُوِثْر : Luther : [١٤٨٣ - ١٥٤٦ م] ، مَؤَسِّسُ الْبِرُوتُوْسَانِيَّةِ بِحَرْكَةِ الإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ فِي
الْأَمْلَانِيَّةِ ، انْفَصَلَ عَنِ الْكَنِيْسَةِ فِي شَانِ صَكُوكِ الْغَفَرَانِ وَسُلْطَةِ الْبَابَا .

(٢٥) رُوحُ الْاجْتَمَاعِ ، عَلَى التَّوَالِي : [١٠٦ و ٨٨ و ١١]

▪ إن حماسة مؤسسي الثورة الفرنساوية تعادل حماسة ناشري دين محمد - عليه السلام - « روح الثورات ٨٥ » .

« لقد أثبتَ التَّارِيخ مَا لِلْمُعْتَقَدِ الْقَوِيِّ مِنَ الْقُوَّةِ الَّتِي لَا تَقُوْمُ ، فَخَضَعَتْ دُولَةُ الرُّومَانِ الْمُنْيَعَةُ لِجَيُوشِهِ مِنْ رِعَاةِ الْبَدْوِ ، الَّذِينَ أَضَاءَ قُلُوبَهُمْ مَاجَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ - عليه السلام - مِنَ الْإِيَّانِ »^(٢٦) .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ، لقد صدر من هذه السلسلة (في الميزان) حتّى نهاية سنة ١٩٨٩ م أربعة كتب هي :

- ١ - جرجي زيدان ، من خلال دراسة : (روایات تاریخ الإسلام) .
- ٢ - فیلیپ حتی ، من خلال دراسة كتابه : (تاریخ العرب المطؤل) .
- ٣ - کارل بروکلمان ، من خلال دراسة كتابه : (تاریخ الشعوب الإسلامية) .
- ٤ - غوستاف لوبيون ، من خلال دراسة كتابه : (حضارة العرب) .

وبعد إبعاد ما أوردته جرجي زيدان في روایاته الغرامية الخيالية ، التي فيها كل شيء إلا التاريخ . ومقارنته ما قدّمه حتی وبروكلمان ولوبيون ، نجد عوامل ، أو قواسم مشتركة فيما قدّموه في كتبهم المذكورة ، وهم يتقاربون جداً في الخطوط العامة . وإن تخلص لوبيون من الكثير ، الذي سببه الحقد والصلبية ، أو الطعن والتّأثيرات التوراتية ، فمن نقاط التّقاطع بين حتی وبروكلمان ولوبيون ، النقاط التالية :

(٢٦) روح الثورات على التوالي : ٤٧ و ٢٠

١ - إقحام (اليهود) في المجرات العربية التي انطلقت من الجزيرة العربية :

قال حتى : « فإنها - أي الجزيرة العربية - قد أنشأت الشعوب التي نزحت فيما بعد إلى الهلال الخصيب ، هذه الشعوب التي أصبحت مع تعاقب الأجيال أمّ البابليين والأشوريين والفينيقيين والعربانيين ، وفي تربة هذه الجزيرة الرملية نشأت العناصر الأصلية للديانة اليهودية » ، [تاريخ العرب المطول : ١] .

وقال بروكلمان : « وابتداء من الألف الثالث قبل الميلاد ، شرعت جماعات من شعوب الجزيرة العربية ، تندفع نحو الشمال في فترات من القحط بالغة الخطورة ، فإذا بالبابليين يغشون العراق ، ويقتبسون فيه ثقافة السومريين ، وإذا بالكنعانيين واليهود والأراميين يهبطون سورياً وفلسطين ، ويستعيرون مع الفينيقيين ثقافة الجنس المعروف بجنس الشرق الأدنى .. » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ١٥] .

وقال لوبيون : « عَدَّ العرب واليهود والفينيقيون والعربيون والسومريون والبابليون والأشوريون ، الذين استوطنوا جزيرة العرب وأسيمة الصُّفْرى إلى الفرات من أصل واحد ، ويندّعى ذلك الأصل بالأرومة الساميّة » ، [حضارة العرب ٨٣] .

٢ - القول بتقديس الحجارة عند الوثنين أيام الجاهلية ، ومنها (الحجر الأسود) :

قال حتى : « تقديس الحجارة والقدران في العصور التي سبقت عصر الحجر الأسود - وبئر زرم في الجزيرة ، وعصر بيت إيل في فلسطين » . « وفي وسطها - وسط الكعبة - قام نصب هو عبارة عن قطعة من المجر البركاني الأسود يبعدونه » ، « وأقرَّ - على الله - الحج إلى الكعبة ولثم الحجر الأسود فيها ، وهو من فروض الدين المرعية في الجاهلية » ، [تاريخ العرب المطول ٢٢ و ١٣٩ و ١٦٣] .

وقال بروكلمان : « ومن هنا قدس العرب القدماء ضرباً من الحجارة في سُلْعٍ وغيرها من بلاد العرب ، كا يقدس المسلمين الحجر الأسود القائم في زاوية من الكعبة في مكّة » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٢٤ و ٢٥] .

وقال لوبيون : « ولا نعلم نصباً كرمه الناس زمناً طويلاً كالحجر الأسود ، فقد كان موضع احترامٍ وتبجيلاً قبل ظهور محمدٍ بقرون كثيرة » ، [حضارة العرب ٧١] .

٣ - صيَّلةُ مُحَمَّدٍ عليه السلام بالراهب بحيري خلال رحلته إلى الشام :
قال حتّي : « ولما بلغ مُحَمَّدَ الشَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِهِ فَيَا يَرْوَى ، رَافِقُ عَمِّهِ أَبِيهِ طَالِبٌ فِي رَحْلَةٍ إِلَى الشَّامِ ، زَعَمَاً أَنَّهُ قَابِلٌ فِي أَشْنَائِهِ رَاهِبًا مُسِيَّحِيًّا يَعْرِفُ بِالرَّاهِبِ بَحِيرِيِّ » ، [تاريخ العرب المطول ١٥٦] .

وقال بروكلمان : « وتذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلاته بعض اليهود والنصارى » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٤] .

وقال لوبيون : « وتقول القصة إنَّ مُحَمَّداً سافر مرّةً مع عَمِّهِ إلى سوريَّةَ ، فتعرَّفَ في بُصْرَى بِرَاهِبِ نَسْطُورِيِّ في دَيْرِ نَصْرَانِيِّ . فَتَلَقَّى مِنْهُ عِلْمَ التَّوْرَاةِ » ، [حضارة العرب ١٣٠] .

٤ - الأخذُ من التَّوْرَاةِ والاقتباس منها ومن الإنجيل :
قال حتّي : « وقد ظهرت ديانة العرب بعد اليهودية والمسيحية ، فأصبحت ثلاثة الديانات التوحيدية وخاتمتها ، وهي من الناحية التاريخية تَمَّتْ بأوثق الصلات إلى هاتين الديانتين ، فكانت أقرب الديانات إليهما على الإطلاق . وهكذا فإن هذه الديانات الثلاثة ليست إلا نتاجاً لحياة روحية واحدة هي الحياة الساميَّة ، ومن هنا هان على المسلم المؤمن - إذا استثنينا بعض الأحوال - أن يسلِّم بعظام ماتنطوي عليه العقائد المسيحية » ، [تاريخ العرب المطول ٢] .

« لقد نسج الإسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيسة ، إلا أنه تأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى في البيع » . [تاريخ العرب المطول ١٨١] .

وقال بروكلمان : « اقتبس النبي عن التوراة فكرة الخطيئة الأصلية » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٧٠] .

« وإنما ترجع معتقداته فيها يتعلق بالعالم الآخر إلى مصادر يهودية ، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٧١] .

وقال لوبيون : « وما جاء في القرآن من نص على خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وخلق آدم والجنة وهبوط آدم منها ، ويوم الحساب مقتبس من التوراة » . [حضارة العرب ١٥٢] .

« وإذا أرجعنا القرآن إلى أصوله أمكننا عد الإسلام صورة مختصرة من النصرانية ، والإسلام مختلف عن النصرانية ، مع ذلك ، في كثير من الأصول ، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي » ، [حضارة العرب ١٥٨] .

٥ - الاستيلاء والفتح :

استعمل حتى في كتابه كلمة (استولى) في كتابه (تاريخ العرب المطول) . بحق الفتوحات العربية الإسلامية : « الاستيلاء على مصر وطرابلس وبرقة » ، [صفحة ٢١٥] ، « وهكذا تم استيلاء المسلمين للمرة الثانية على الإسكندرية » ، [صفحة ٢٢٢] ، « واستولى معاوية على قبرص » ، [صفحة ٦٤٩] ، « الاستيلاء على إسبانيا » ، [صفحة ٢٧٠] ، وهكذا خص حتى العرب المسلمين بعبارات الاستيلاء والاغتصاب والاتساح والغزو والقهر ، كما في الصفحات : ٢٦٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٨ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ .

٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٧١٤ ، ٨٣٦ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٧٠ ، وخصّ قومه بالفتح
والتحرير ، خصّهم بكلمة حضارية إنسانية هي « الفتح » .

« ولما فتح الفرنجة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م » ، [صفحة ٥٧٥] ، « الفتح
النورماني » ، [صفحة ٧١٩] ، « تم للصلبيين فتح بيروت وصيدا في
عام ١١١٠ م » ، [صفحة ٧٥٨] ، « تحرير الرها » ، [صفحة ٧٦٣] قالها بحقّ قومه
الصلبيين « وقال عن نور الدين زنكي : « أتم احتلال كوتية الرها » ، « فتح
الفرنسيين لمراكش » ، [صفحة ٨٤٦] .

وقال بروكلمان : « كان الغزاة العرب يجوسون خلال الدّيار غائبين
خربين » ، [صفحة ١٠٠] ، ووصف المجاهدين في البحر المتوسط ضدّ الغزو
الأوري ، والإسباني خصوصاً ، بالقراصنة ، وجهادهم : قرصنة ، كما في
الصفحات : ٤٥٣ و ٤٧١ و ٦٢٠ ، ووصف جهاد الجزائريين ضدّ الفرنسيين
المستعمررين « بالتعصب الديني » ، [صفحة ٦٢٥] ، « نيران العصبية الدينية بين
القبائل ، فتابعت حرب العصابات ضدّ الفرنسيين » ، [صفحة ٦٢٦] ، وجعل
بروكلمان احتلال بريطانية لمصر لرفع مستوى المصريين من الوجهتين المادية
والفكرية أيضاً » ، [صفحة ٧١١] .

ولوبون وصف فتوحاتنا بالاستيلاء : « استولى عليه العرب » ،
[صفحة ١٦٦] ، « استولت على بلاد مصر والنوبة » ، [صفحة ١٧٦] ، « استيلاء
العرب على سوريّة » ، [صفحة ١٨٧] ، « استيلاء العرب على مصر » ،
[صفحة ٢٥٥] ... وقال : « فتح النورمان لصقلية » ، [صفحة ٣٧٦] ، « بعد
الفتح النصارى » ، [صفحة ٣٨١] .

٦- القرآن من تأليف محمد - عليه السلام ، فهو « صاحب الشريعة الحمدية ، أو الإسلامية » :

قال حتى : « ويكن أن نعتبر النثر المسجع الذي ابتكره الكهان والمعارفون خطوة أولى في سبيل ابتداع الفن الشعري ، وفي القرآن غاذج لهذا الأسلوب » ، [تاريخ العرب المطول ١٢٥] .

وقال بروكلمان : « وكان على أبي هب أن يحمل محل أخيه أبي طالب في حماية النبي ، على الرغم من خصومته له ، وعلى الرغم من أن النبي لعنه في إحدى السور » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٤١] .

ولقد كان يُعلن أحکامه السياسية في المدينة بوصفها جزءاً من القرآن ، أي جزءاً من الوحي الإلهي » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٦٨] .

وقال لوبيون : « ويقال إنَّ مُحَمَّداً كان قليل التعليم وترجح ذلك ، وإنَّه لوجدت في تأليف القرآن ترتيباً أكثر مما فيه » ، [حضارة العرب ١٤١] ، ثم قال في الصفحات : ١٥١ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ : « فاسع تعريف النبي ، فإليك وصف مُحَمَّد » ، « فاسع قوله - قول مُحَمَّد - عنهم » ، ويدرك آيات من القرآن الكريم .

٧- أسباب غزوة خيبر : خيراتها وخصبها ، وفشل النبي عليه السلام في صلح الحديبية ١

قال حتى : « أمّا اليهود خير فأخرجهم من واحتهم الخصيبة في الشمال من المدينة سنة ٦٢٩ م » ، [تاريخ العرب المطول ١٦٢] .

وقال بروكلمان : « وفي نوار من سنة ٦٢٨ حاول النبي أن يعوض من فشله الظاهري في الحديبية ، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٥٦] .

وقال لوبيون : «رأى محمد بعد ذلك الإخفاق - في صلح الجديبية - أن يرُوح أصحابه فخفَّ بهم إلى مدينة خير المحسنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي ، والبعيدة منها مسيرة خمسة أيام ، والتي كان يقطن فيها قبائل يهودية ، والتي كانت مقر تجارة اليهود ففتحها عنوة » . [حضارة العرب ١٣٦] .

٨ - كان بناء الصخرة أيام عبد الملك ، لصرف المسلمين عن الحج إلى الكعبة المشرفة :

قال حٰتّي في الصفحة ٣٣٢ [تاريخ العرب المطول] عن بناء عبد الملك لقبة الصخرة : « وقد دعاه إلى بناها عزمه على صرف الحجاج عن مسجد مكّة » .

وقال بروكلمان في الصفحة ١٤٠ [تاريخ الشعوب الإسلامية] : « وفي عهد عبد الملك تعذر على أتباعه الحج إلى الكعبة ، بسبب استيلاء منافسه في الخلافة ، عبد الله بن الزبير على مكّة ، فحاول أن ينشئ في القدس بدلاً من البيت الحرام ، وهناك على الصخرة المقدسة التي استن عمر نفسه الصلاة عندها ، يوم دخل بيته المقدس ، شيد عبد الملك ما يدعى قبة الصخرة » .

وقال لوبيون في الصفحة ٣٣٨ [حضارة العرب] عن عبد الرحمن بن الحكم الخطأ نفسه : « ولم يكبد عبد الرحمن يقبض على زمام الحكم في إسبانيا حتى أخذ يسعى في حمل العرب على اتخاذ إسبانيا وطنًا لهم » . فأنشأ جامع قرطبة الشهير ، الذي هو من عجائب الدنيا لتحويل أنظار العرب عن مكّة » .

٩ - يوسف بن تاشفين ، أفقد ملوك الطوائف عروشهم جبًا بالتوسيع :

قال حٰتّي : « وأراد المعتمد اتقان الخطر الذي تهدّه به ألفونسو السادس والسيّد ، فارتكب أكبر خطأ ، إذ طلب النجدة من يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في مراكش ، ورغبه في الجهاد ونصرة الإسلام .. غير أنه لم تمض فترة طويلة حتى عاد زعيم المرابطين هذا هو وأتباعه ، وكان هؤلاء قد سئموا البدائية

وقطّعوها . وتأقت أنفسهم لأطايق المدنية الأندلسية التي تذوقوها من قبل ، فنزلوا الأندلس مرّة ثانية ، ولكنهم نزلوها هذه المرّة فاتحين لامْنَجِدين » ، [تاريخ العرب المطول ٦٤٢ و ٦٤٣] .

وقال بروكلمان : « الواقع أنه دفع - المعتمد بن عبّاد - وزملاؤه ثُمَّ من هذه المساعدة غالياً ، فما أن نزلت المزية بالعدو حتّى فقدوا عروشهم جميعاً ، واحداً بعد واحد ، أمّا المعتمد فاقتيد إلى إفريقية حيث مات في سجن أغاث مراكش سنة ١٠٩٥ م » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٠٨] .

وقال لوبيون : « واستفاث عرب إسبانية ببربر مراكش في سنة ١٠٨٥ م ليخلوا دون تولي انتصارات ملك قشتالة وليون والأذفونش السادس ، فلم يلبث هؤلاء البربر الذين جاؤوا إلى إسبانية حلفاء للعرب أن ظهروا لهم بظاهر السّيّد الامر الناهي » ، [حضارة العرب ٣٢٣] .

١٠ - العِلْمُ عند المسلمين لم يكن يعني اكتساب معرفة جديدة : قال حتّي : « وقاموا مقام الوسيط في أن نقلوا إلى أوربة خلال العصور الوسطى كثيراً من هؤلاء المؤثّرات الفكرية التي أنتجت وبالتالي يقظة أوربة الغربيّة ، ومهدّت لها سبيلاً نحو نهضتها الحديثة » ، [تاريخ العرب المطول ٢] .

وقال بروكلمان : « إنَّ العِلْمَ لم يكن يعني عند المسلمين اكتساب معرفة جديدة ، بل التّمكّن إلى أقصى حدٍّ مستطاع من المادة التي أنتجتها الأجيال السالفة » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٨٢] .

وقال لوبيون : « لم يكن للقرآن تأثير في جميع مذاهب العرب العلميّة والفلسفية التي نشروها في العالم في خمسة قرون » ، [حضارة العرب ٦٨٠] .

١١ - إن سبب يسر الفتح العربي الإسلامي وهن الفرس والروم وضعفهما
قال حتّي : « ولقد يسّر الفتح للعرب أسباب منها أنَّ فارس وبيزنطة كانتا

قد وهنتا بسبب الحرب فيها أجيالاً طوالاً ، فاضطررتها هذه الحرب إلى إرهاق رعاياها بضرائب قاسية أدت إلى نفورهم » ، [تاريخ العرب المطول ١٩٤] .

وقال بروكلمان : « لم يحالفه التوفيق - يعني أنها بكر الصديق رضي الله عنه - في الحكم على الحالة الدولية » وبخاصة فيما يتعلق ببيزنطة ، تطلع أول الأمر إلى الشرق ، نحو الإمبراطورية الفارسية ، بعد أن رأى إلى ضعفها البين منذ عهد غير قصير » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٩٠] .

وقال لوبيون : « وكانت دولة الروم ، التي نهكتها حرباتها لدولة الفرس ، والتي كانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة ، في دور الانحطاط ، فلم تكن غير هيكلٍ نَحِرٍ يكفي لتداعيه أقل صدمة » .. كانت أركان العالم متداعية كالدولة الإغريقية الرومانية والدولة الفارسية في زمن ظهور محمد - عليهما السلام - ، « ولد محمد في أحسن الأوقات ، فقد رأينا أن العالم المؤمن كان متصدقاً فيه من كل جانب ، فلم يتوجّب على أتباع محمد إلا أن يهُزُّوه ليتساقط » ، [حضارة العرب ١٦٦ و ١٦٨ و ٧١٥] .

١٢ - الطعن في مصادرنا العربية ، مع روايات التوهين والتبرير والتضليل :

استعمل فيليب جتي في كتابه [تاريخ العرب المطول] العبارات التالية : « إن صح » ، « أسطير » ، « كما يُحكى » ، « زعموا » ، « فيما يُقال » ، « على قول الروايات » ، « نسبتها الرواية » ، « روينا ويروى » ..

ناهيك عن اعتقاده على كتاب (ابن العربي) : [تاريخ مختصر الدول] ، المعروف بتعصبه وبعده عن البحث العلمي ، وكتاب « ألف ليلة وليلة » ، وكتاب « الأغاني » الذي هو ليس كتاب تاريخ يحتاج به .

واستعملَ كارل بروكلمان في كتابه [تاريخ الشعوب الإسلامية] العبارات التالية : « ولسنا نملك بيّنة موثوقةً لها » ، « وتذهب الروايات » ، « وقد يكون » ، « ولسنا نعرف على اليقين » ، « وليس من الميسور أن تقرّر على وجه الدقة » ، « الروايات الأسطورية » ، « وتعزو الروايات » ، أمّا مصادره ، فهي كتب المستشرقين ، « مع أننا وإيّاه نعلم : إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ » ، هذه قاعدة لا موضع للجدال فيها . وذلك أنَّ التاريخ لا يقوم إلاً على الآثار التي خلفتها عقول السلف أو أيديهم » .

واستعمل غوستاف لوبيون في كتابه [حضارة العرب] العبارات التالية : « ويقال » ، « من الأقوال الشائعة » ، « ويريوي مؤرخو العرب » ، « كما روى العرب » ، « على زعم كتب السيرة » ، « مارواه مؤرخو العرب » ..

ورغم هذا كله ، تبقى لكتاب « حضارة العرب » قيمته العلمية الرفيعة ، ويكتفي غوستاف لوبيون تحرّره من المؤثّرات التّوراتيّة . وبيُعدَه عن التعصب والشتائم والحقن ، ويكتفي جُبَّه للعرب وحضارتهم الحالدة .

ونحن في هذه السلسلة (في الميزان) نقف موقف الدّفاع عن ديننا وحضارتنا ، لأنَّ الدّفاع عنها دفاع عن حياتنا وجودنا . سائلين الله عزّ وجلّ أن يجعلنا مِن ينطبق عليهم قوله : ﴿ وَالْزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ [الفتح ٢٦/٤٨] ، والحمد لله رب العالمين .



المُحتَوى

الصفحة

| | |
|-----|-------------------------------|
| ٥ | مقدمة : |
| ٥ | - تمهيد (بوگاي واستيغنس) |
| ١٠ | - كتاب (حضارة العرب) |
| ١٢ | - مؤلف (حضارة العرب) |
| ١٤ | - مترجم (حضارة العرب) |
| ١٥ | - خطّة هذه الدراسة |
| ١٧ | من روائع لوبون |
| ٤٩ | كتاب حضارة العرب (وصف وعرض) |
| ٦١ | الأخطاء والمفوات |
| ١٧٤ | خاتمة : |
| ١٧٤ | - أسباب عظمة العرب |
| ١٧٦ | - أسباب انحطاط العرب |
| ١٧٧ | - حال الإسلام الحاضرة |
| ١٧٧ | - مفتاح شخصية لوبون |

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٩٩٠/٤/١
عدد النسخ (١٥٠٠)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٢

(حضارة العرب) كتاب لاشك فريدي في نوعه ، وكاتبه محب للعرب وحضارتهم ، إلا أن الأخطاء والمفوات والمطاعن فيه كثيرة ، فمع حُسْنِ نية (لوبيون) ، نلمس أنه لم يرهاق نفسه ليحيط بدقائق العقيدة الإسلامية ، فجاءت معظم هفواته وأخطائه في هذا المجال ، فهو لم يتصور أو يدرك ظاهرة الوحي ، أو أدركها ، لكنه لم يقرأ بها لـ محمد بن عبد الله ، ولم يستوعب بعض الأمور المتعلقة بالنبوة والقرآن والشريعة .

لقد وصف (لوبيون) آثار حضارتنا فأجاد ، ودافع عن فتوحاتنا فأنصف ، كل ذلك بروح علمية عالية المستوى قوية الحجة ، ولكن بعد هذا الإنصاف يتصدم الدارس (لحضارة العرب) بأقواله في القرآن ، وفي الرسول الكريم ﷺ ، وفي الإسلام عقيدة .